يوسف الصايغ

الاعتراف الأخير لمالك بن الريب



سيرة ذاتية

الجزء الأول

منشورات شركة مطبعة الاديب البغدادية المحدودة

يوسف الصائغ

الاعتراف الاخير لمالك بن الريب

سيرة ذاتية

القسم الاول

منشورات شركة مطبعة الاديب البغدادية المحدودة

«اننا لا نستطيع ان نستخرج من خطٍ منحنٍ خطاً مستقيماً . ونحن لا نستطيع ان نعيش حياة صحيحة في مجتمع ليس صحيحاً . اننا نلدغ ، دوماً ، من جديد . . . من هذا الجانب او ذاك . . .» .

سيمون دي بوفوار

المثقفون – الجزء الثاني




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الاول
عيون القديسين




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الاول
عيون القديسين

يداهُ على اصابع «الارغن . .»

وصوته كان حانياً ، وشجياً . . وكان له نظارتان ، مؤطرتان بالذهب . . وساعة ، ذات سلسلة . لم تتوقف الا لحظة موته . . وكان أبي . .»

أما هي . فكانت خصلة من شعرها الابيض ، قد التصقت بجبينها ، بسبب من عرق الاحتضار ، وحين سمعت صوت البكاء ، انحنيت عليها ، وجسست جبينها ، فوجدته ، مايزال دافئاً . ولكن خديها كانا باردين كالثلج . . ولسبب غامض تجاسرت فحاولت أن افتح عينها المغمضة . بطرف اصبعي . فبان البؤبؤ ، جامداً ، وزلالياً . . خفت ثم حزنتُ فقد ماتت امي أيضاً . وعندذاك سمعت صوتها يهمس في اذني :

يــــا ملاكــــاً في السريــــرِ مـــقـــمـــطـــاً بـــالحريـــرِ

يــــا مـــهـــجتي وسروري نَـــمْ بـــالهنـــا . .يـــاحـــبـــيبي . .

واذا استجيب لندائها العذب ، يثقل جفناي ، وينسحب من مخيلتي ، اللصوص ، والشرطة ، والقديسون ، الذين كانوا أبداً يحدقون بي ، بطريقة رهبة . .

وآه من القديسين . .

فانا حتى الساعة . مازال أخاف عيونهم وفي كل مرة ، وأنا اتطلع الى التماثيل والايقونات الشاخصة ، يخيل لي ، أن عيونهم تتحرك ، بطريقة غامضة ، وأنهم ، بعد ذلك ، مؤهلون لان يمدوا أيديهم ويلمسوني . .

وأخاف . .

ثم يملأ كياني . شذى بخور ثقيل ، واصوات منشدين . . والرائحة المنبثقة عن لحية الكاهن في منبر الاعتراف . .

كان وجهه العتيق قريباً من وجهي ، يفصل بينهما خشب المنبر كنت احسه ، وأنا مغمض العينين . من مجرد الرائحة المنبعثة عن وجود باسره . . هذا الكاهن ، فتح لي عيني البريئتين بالاسئلة . . وباللجاجة . . لماذا فعل ذلك ؟ لماذا تحدث الي ، أنا ابن بضع سنوات – ذاك الحديث السري والخطير ، الذي لم تجد أمي ، ولا أبي الجرأة ، على ان يحدثوني به ؟ الان يبدو لي . أنه ربما كان يتلذذ بذلك . .



كان حرمانه ، قد علمه ، اكتشاف هذه المتعة المزدوجة ، أن يتحدث للأخرين – الابرياء منهم بشكل خاص – عن خطايا لايستطيع ارتكابها ، أو محرم عليه ارتكابها . فهو بطريقة ما ، يبيع حرمانه . ولذة هذا الحرمان ، للأخرين . . ثم ، وفي الوقت نفسه ، كان ينتقم للعفاف المفروض عليه . بأن يمارس سطوة الالهة على الأخرين ، انتقاماً ،لثقل السطوة التيفرضها ايمانه عليه . .

ماكان ذلك الرجل رحيماً . . ولاحكيماً . . ولامتفهماً . . ماكان معنياً قط ، بأن يدرك ، أن هذا الذي يركع قربه ، طفل ، أو صبي ، . . وصبي بريئ ، لم يجرب ، مثله ، معاناة الحرمان من الخطيئة ، ولا من متعها الرهيبة . . . . . .

أنى له أن يدرك ذلك ؟ . وأن يكون متسامحاً بحيث يقبل حقيقة أن طفلاً في مثل سني آنذاك لن يقترف الا خطايا بريئة ، ولهذا فهي مغفورة سلفاً . . . والا فكيف يمكن أن يعقل ، أن الكاهن . كان يأخذ الأمر مأخذاً جاداً ، ويؤمن ، وهو في سنه تلك ، وتجربته المعقدة والصعبة ، أن الله يمكن أن يحاسب صبياً ، على خطيئة ، اقترفها ، وهو يلعب . . . أي منظر باعث على الفكاهة ، أو على الأسى . . أن يحكم على طفل بعذاب جهنم . . لانه في براءته ، أو حتى في خبثه ، حاول أن يستجيب الى حاجته للاكتشاف . .

بعد ذاك الاعتراف ، تعلمت الندم . . .
ندم ، كان يرادف اللعب والخطيئة . . يأخذ
بخناقي ، فأحس أنني لن أنقذ الا اذا ذهبت الى
الكاهن ، وقلت له ، بذلة ، خطيئتي . . وأنا أردد
في الختام ، تلك الصلاة المنسحقة التي لقنوني
اياها :
يا ينبوع العدل والرحمة . .
ها انني ، أنا الخاطئ . .
منطرح أمامك . .
معترف ، بخطاياي التي . .
بها اهنتك واحتقرتك
اغفر لي يا الهي . .اغفر لي . .
خطاياي الكثيرة . . العظيمة
ها انني ، نادم عليها ، من كل قلبي
وانوي نية ثابتة



الا أرجع الى الخطيئة أبداً . . آمين . .»

كنت قد لقنت هذه الصلاة مبكراً . . وقد استعملتها في الاعتراف ، الاول ، بانفعال صغير . اذ لم اكن انطوي ، على ايما احساس حقيقي بالندم ، ولم اكن أفهم الكلمات الكبيرة والمعاني الرهيبة التي تنطوي عليها . .

ثم حين اكتشفت ندمي ، فقد استطعت ان احدس ما تعنيه من قوة الاعتراف ، والرغبة في تفريغ الاحساس بالاثم ، والنزوع الى الندم . . والتلذذ بالخذلان . .

والان ، حين استعيد ، فعل الندامة ، كما يسمون هذه الصلاة ، ادرك ، بحنان ، اية مفارقة كنت اشكلها في عمري المبكر ذاك ، وأنا اعلن ، بصدق وخطورة عن «خطاياي الكثيرة العظيمة !» وافكر بصورة الصبي وهو «منطرح» قدام ربه «معترف بخطايا» التي «اهان الرب بها واحتقره ! !» . .

أنا واثق ان الله ، سبحانه ، كان يصغي اليّ آنذاك ، ويكتم ضحكته الرؤوم ، وهو يفكر في هذه الدعابة التي يحاول طفل من خلالها أن يدعي ، انه استطاع ، أن يُهين الله ويحتقره ويدق الناقوس .

دقات متقطعة وحزينة ، فاعرف أن جنازة مافي طريقها ، الى الكنيسة ، واخاف من جديد ، ومع هذا ، لا أملك ، الا أن أركض مع الاطفال ، الى المقبرة ، وادنو من القبر ، وبخوف لذيذ ، لايقاوم ، اتطلع ، فأرى بقايا مهمة . . وانشق رائحة غريبة . . ويظل الناقوس يدق . .

وأذهل فاحسب أنه يدق لوحدهِ ناسياً، في حرارة ذهولي ، انه هناك تحت البرج ، يقف ذاك الرجل الغريب الذي يسمونه «الساعور» يتثبث بالحبل المتدلي ، مجهداً ، ضجراً ، ويصنع هذا السحر الحزين والرعب الذي لايقاوم بحيث يتشبع الهواء ، ولبعد أميال بروح جنائزية لها قوام غبار سري ما يلبث ان يسقط على العيون والوجوه والملابس السود . .

ثم يأتي الموكب . .

يتقدمه كهنة ذوو لحى بيضاء وهم يتلون باهمال اناشيد حزينة وعلى جانبي الطريق يقف العابرون وقد امسك بهم الوجل من الموت وخطف ملامحهم ، فهم أقرب لصور مرسومة على الجدران . .

ما يلبث الموكب ان ينتهي الى الكنيسة . . وعند ذاك يصبح صوت الناقوس موذياً وشرساً . حتى يستقر النعش على منصته ، في الفسحة ، التي تفصل بين قسم الرجال وقسم النساء . حيث الرخام بارد ورطب ، وحيث العتمة دبقة تطفو عليها عيون الايقونات . . ورائحة الشموع الانثوية . .



يضعون النعش على المنصة : رأسه متجه الى المذبح ، وقدماه تواجهان النساء . . عند ذاك يكف الناقوس فلا يبقى الا لهاثه المعدني ، عالقاً في الهواء ، وتبدأ الصلاة ، فتبدو شاحبة ، ومبللة ، وشديدة الغرابة . . ولهذا فهي لن تطول . ويسود صمت متوتر ، يوحي بأن على الميت أن يُحمل الى قبره . . فيتبرع للقيام بذلك بضعة رجال ، يحملون النعش مرتبكين لانهم في تلك اللحظة يفكرون بثقل الميت وبموتهم المزمع ان يموتوه ، غداً أو بعد غد . .

وسرعان ما يترك النعش وحيداً ، في القبر الذي لم يغلق باب بعد . وينفرط الجميع ، وهم يدافعون ثقل الكابوس الذي كانوا يحملونه . . فلا يبقى لدى القبر غيرنا . نحن الصغار نراقب بفضول حفار القبور وهو يؤدي مهنته ، بتأن وصمت . . ولن نغادر حتى ينغلق القبر وتسوى الارض ويغسل حفار القبور يديه ويخيم المساء وتتخذ كل الموجودات قواماً ، أقرب ما يكون الى قوام الاشباح . . .

وفي الطريق الى البيت عبر الأزقة الضيقة والابواب نصف المغلقة تظل يدا حفار القبور قريبتين من عيني وأظل اتطلع الى كفين لهما اصابع قصيرة وخشنة على ظاهرها ، شعر أبيض وآثار خدوش وبقع سمراء . . .

لقد كان ذلك يسحرني بقدر ما يخيفني . .

الايدي . . والاصابع . . .

انها تبدو لي أبداً كائنات مستقلة . . لغة قائمة بذاتها . .

وأذكر : الكف اليمنى دافئة وممتلئة . . والسبابة صفراء من التدخين . السبابة والوسطى . وكنت اقيس كفي بكف أبي واتأمل المعجزة . .

فهذه الاصابع ، كانت ، تختار مساحيق ، وتخلطها ، بحذق وحنان فاذا هو مسحوق يصنع حبراً أسود يلمع ، مثل جلد سمكة سوداء . . وهي اصابع تمهد ورقة خشنة فتجعلها مصقولة تتحرك عليها الكلمات بيسر وعذوبة . وهي تنتقي قصبة ، وتبريها ، فاذا هي يراع أو ريشة كتلك التي كان ينسخ بها الوراقون قبل ألف عام . ثم تروح اصابعه تكتب بتأنٍ ومحبة . . فترسم حروفاً انيقة ذات قداسة ورصانة . . ثم يتآلف كل ذلك كما تتآلف اصابع «الارض» . . ويتخذ ترتيبه الى جانب اوان غريبة . وكتب . وخزانات . . ومساحيق وشموع وثلاث آلات للتصوير وفوانيس وقنان ومفاتيح وزقاق . .

عالم !

وكان لهذا العالم رائحته التي اعرفها . .

ثم . . في سنة ما ، فقدتُ تلك الرائحة وظلت رائحة القبر عالقة في ذهني .

لماذا ؟



لماذا القبر وليس البيت ؟

لماذا القبر . . وليس تلك الغرفة التي على يمين البيت ؟

لماذا . . ؟ وليس السرير ، وكان من خشب ، وكان في دفئه اشبه بالرحم ؟ . .

وهي تأتي . وتنام الى جانبي . وتحكي لي ، وتنشد ، وتتوسل : «نم بالهنا يا حبيبي !» ثم أغفو . وفي روحي توجس . دائم : أنني سأفيق واراها قد تركتني عرضة للصوص ، والشرطة ، وعيون القديسين . . آه . كم عذبتني عيون القديسين . .

كانت عيونهم الواسعة ، الثابتة ، والمثابرة ، والهالة الغريبة التي تحيط برؤوسهم تجعلني مسحوراً بالخوف والمحبة . . فأروح اتطلع اليهم ، واحدق ، في ملامحهم الوسيمة . . وهالتهم الخرافية . . وملابسهم النظيفة والمتقنة . . . فهم متشابهون . . جميعهم يقفون شاخصين مثل الاشجار . . لم يتعب أحدهم ، مرة ما انحنى أو فكر بالجلوس . . ابداً . . انهم ينبعون من اماكنهم باستقامة غريبة ، ممتنعين على النوم . . والتعب . . وعلى الموت . .

الاّ يسوع . . .

هو الوحيد ، الذي رأيته ، ملقى في احضان امه ، ميتاً . . لقد كان يسوع المسيح ، أول ميت اراه في حياتي . . ولم يكن موته مخيفاً مثل موت سائر الناس . . بل حزيناً . . وكان هذا الحزن يجيْ من امه الصامته ، التي تشبه احزانها ، احزان امي ، حين تراني ميتاً بين يديها . . حين اصلب مثله ، امامها ، ويأتي جندي روماني فيطعن لي جنبي و «يخرج للوقت من الجرح . . دم وماء» ؟ وتعجبني الصورة . .

فانا على الصليب . .

«وستار الهيكل قد انشق الى قسمين» . . واظلمت السماء ، وأنا اتطلع من بين جفني المغمضين . فأرى أبي وامي وعمي ، وخالتي التي ترتدي ملابس الراهبات ، وعمتي ، السمينة ، والضعيفة . . واعمامي ، وبناتهم . . أراهم جميعاً يبكون ، واحس انهم جميعاً نادمون . لانهم ما احبوني كفاية ، وتمتلئ عيناي بالدموع ، حزناً على نفسي ، ثم يأتي الموت . .

فقد مات يسوع . .

«أمال راسه . . وأسلم الروح . .»

ويغدو صوت الكاهن رهيباً . . وتطفأ الشمعة الاخيرة ، فيسود الظلام ، ثم يرتفع في صمت الكنيسة صوت صرخة . . تعقبها ضحكات مكتومة . . وأمد يدي ، وامسك بيد أبي بحثاً عن الخلاص من هذه الغرابة . . .

ولا يلبث المذبح أن يضاء بشموع نحيلة ، وتبدأ الاناشيد الحزينة ، حتى لأتمنى أن ابكي . . ولا أبكي . .



ما أفظع ذلك ! . . أن يغيب عنك البكاء ساعة تريده أو تحتاج اليه . فلقد رأيته ميتاً بعيني هاتين . .

وكانت امي تنوح ، والبيت قد علاه الشحوب . . .

وكنت ادرك بعمق ، أن أبي ، لن «يقوم من الموت بعد ثلاثة أيام . .»

فهاهي ذي اسنانه الصناعية الى جانبه . . وتلك نظارته ذات الاطار الذهبي . . وذلكم هو الخوف والحزن . . وينبغي لي أن ابكي . . أن أتألم من أجل راحتيه الناحلتين ، واصابعه . . حاولت ، فأخفقت . .

وحين كررت المحاولة ، صدر عن صدري وحنجرتي ، صوت غريب ، يبعث على الضحك . . وكان الجميع من حولي ينوحون . . وكان يؤلمني ، في تلك اللحظة ، وبطريقة مبهمة ، حبُ الشباب ، الذي نبت في وجهي ، وبشكل خاص ، حبة ، قرب اذني ، لعلها المسؤولة ، عن أنني لم استطع البكاء في جنازة أبي . وقلت له في سري ، باخلاص وباعتذار حقيقي : «أنت ترى أنني حاولت . . ولم أفلح . .» وحين قلت ذلك ، كففت تماماً عن المحاولة ، وايقنت انه سمعني ، وصدقني . . .

سرت معهم ، حتى وضعوا النعش في القبر . كنت اقف صامتاً ، دون أية محاولة ، لاظهار الجزع أو الحزن ، مدللاً على عقوق ، لا موجب له . . والان ادرك ، انني لم اكن مسؤولاً ، عن جمودي هذا ، وعقوقي ، بقدر ماكان سني مسؤولاً . . فقد كنت آنذاك في السنة الثانية من مراهقتي ، وهذا يعني ، أنني لم اكن بريئاً كفاية . . ولا خبيثاً كفاية .

يتقدمنا عمي ، وعلى جانبيه ، يسير اناس وقورون ، ملامحهم جادة وحزنهم ظاهر الكتمان . . واذ كنت اعرف الطقوس ، فقد كنت اقدر ما سيجري بعد قليل ، ولكنني كنت متضايقاً لانني ، لم اكتشف الدور الذي ينبغي أن اسلكه الان ، بعد أن انتهى الدفن . فقد كان يبدو لي ، أن لا دور لي على الاطلاق . ولو ترك الأمر لي ، لذهبت مباشرة الى اصدقائي ، خمسة من اولاد المحلة ، ولتباهيت امامهم ، بأن أبي – كما لابد أنهم رأوا ذلك بأم اعينهم – قد مات ، وان في بيتنا حزناً بهذا القدر ، ومعزين ، بتلك الكثرة ، ونواحاً ، وطقوساً . . فذاك ، بطريقة ما ، امتيازي . . اذ لم يسبق لاحد من اصدقائي هؤلاء ، أن مات أبوه . .

كان الاغراء شديداً . .

لقد شغلني ابتداء ، من باب المقبرة ، حتى مدخل البيت . ولقد زاد من قوة هذا الاغراء ، أنني رأيت «حازم» ، أقرب اصدقائي اليّ ، يقف في المقبرة ، ويبكي ، حتى لقد اوشكت أن ابكي لبكائه ، ثم انتبهت فجأة الى أنه لايمتلك الحق ، في البكاء ، على أبي ، اكثر مني . . فنظرت اليه حانقاً . . .



كان الوقت شتاء . .

الايام الاولى من كانون الثاني ، بعد الاحتفال بعيد رأس السنة بيوم واحد . وكانت الغرفة الكبيرة مملوءة بالمعزين . . . تلك الغرفة الفخمة ، بتخوتها ، وطنافسها وخزاناتها المغلقة كالاسرار . وسقفها البيضوي المرتفع ، حتى لكأنه بيضة تُرى من داخلها . .

انني لأستذكر الساعة دفء هذه الغرفة المتغطرسة ، وحيطانها التي تحمل عديداً من صور الكهنة والشمامسة . . موتى . واحياء . ينتظمون بهدوء ، وعلى افواههم ابتسامات قديمة . ثابتين داخل اطاراتهم بملابسهم السود . لايبرحونها . . .

عمي يجلس في صدر الغرفة عند الزاوية . .

أما ابي . ففي الزاوية القريبة من الباب ، يجلس متكئاً الى ذاك «الصندوق ا الحديدي» الكبير الذي اخذه من العسكريين الالمان . . ويؤتى بالموقد البرونزي الكبير ، تتوهج فيه جمرات من فحم . قد نضجت ناره . . وتبدأ امسية رخية . . حتى يتعب الطفل ، فيضع راسه في حضن امه . وهو سعيد . . . ويتسلل النوم الى عينيه . من كل شبر حوله . . . صوت اهله ، ورائحة الشاي ، وشذى الطعام الذي يعد في الخارج . . وصراخ عمته وهي تنتهر الخادمة ، لانها في غفلة منها . كسرت . الماعون الكبير . .

كانت اكبر مني ببضع سنوات . .

لعلي كنت في الثامنة . . وهي في الثالثة عشرة من عمرها .

ومُنذ جاءوا بها لتعمل عندنا ، ميزت ، في وجهها ، شفتها السفلى التي تتدلى ، بطريقة غريبة . . وخفت منها . . وبقيت اتجنبها ، وعبثاً حاولت أن تتقرب مني أو تغريني باللعب . فقد خفت عينيها وشفتيها وطريقتها في النظر الي بحيث كنت احس أنها تترك فوق قصبة أنفي دغدغة لاتحتمل . .

والان اذكر بيتنا الخالي . . والشتاء . . والخوف المبكر . .

وارها تقف امامي . .

كان فستانها في ذلك البرد من (الجيت) . . فيه اوراد كبيرة زرقاء وحمراء . . وكانت قدماها حافيتين . وشعرها مشعثاً . . . وجاءت فلعبت معي على الرغم مني . . وقد كنت موشكاً على الموت حين كفت عن اللعب . . لأن احداً كان يقرع الباب . .

آه لتلك الخادمة . .

لأسمها الذي لا أريد أن أبوح حتى هذه اللحظة . . . للحب الذي انطويت عليه لها ، بصمت ،ومكابرة . . .

ثم للشوق الذي كان علي أن اعانيه . . يوم أخذوها مني . . فاختفت الى الابد . . .



أين هي الان ؟

هل كبرت حقاً . فهي تقارب الستين ؟

هل تزوجت ، وصار لها اطفال ، وكانوا في سنة ما ، بعمري ، حين ، جاءت لتلعب معي . وتأخذ عني ثقل الخوف ، وتعطيني ، وطأة المحبة ؟

هل كانت حلماً ؟ كيف يمكن أن تكون ؟ إلا اذا صدقت ان كل الذي نعيشه من سعادة ، أو حتى من احزان ، ماهو الا حلم ، نستيقظ منه ، لحظة بعد أخرى . . .

ولقد كنت استيقظ مبكراً . وأول ما أنظر اليه ، تلك الكوة المستطيلة القريبة من سقف الغرفة . فمنها ، اعرف ، أن الليل قد ولى ، فأحس لذاك فرحاً عجيباً . . هاهي ذي أمي ، قد غادرت مكانها . أما أبي فمتربع على تخته وأمامه «السماور» ، يصدر صوتاً أليفاً ، والسكائر ، ووعاء القهوة . . والى الاعلى ، فوق رأسه ، صورة «يوسف النجار» خطيب «العذراء مريم» بملامحه الزيتونية ، وعباءته الكبيرة ، وقد وضع المسيح الطفل في حضنه وجلس مهموماً تحت ثقل خواطره . . وذكرياته . .

ويسعل أبي . ومن بعيد اسمع صوت ديك يصيح متأخراً ، وصوت عمتي السمينة ، وتختلط في ذهني اصوات عديدة ، مرحة ، ذات طعم صباحي فريد . . الى ان يصبح الصباح صباحاً ، ويطفأ المصباح الكهربائي ، وتغدو غرفتنا ، في تلك الساعة ، واضحة ، وضوحاً صلباً . الخزانتان الكبيرتان على الجانبين . . خزانتان من خشب تعلوه زخارف محفورة بورع وعناية ، في كل منهما خمسة ادراج . وعلى كل منهما صندوق كبير . . وبين الخزانتين مكتبة ، فيها كتب قديمة . . وخمس خزانات محفورة في الجدار . . ونافذة تطل على السرداب ، وأخرى على الايوان . . وثالثة على الفناء . . وهذه العائلة الصغيرة . . أبي وأمي وأنا واختي التي تكبرني بضع سنوات . . .

كان الصبح يؤكد معناه رويداً رويداً . . فتزداد الحركة ، والاصوات . . ابواب تغلق وتفتح . . ووقع اقدام . . وتمتمات . . وصوت الماء في الحنفية . . . وصوت المطر . . وصمت الثلج :

ياللبرد . . .

مرة تجمدّ الماء . . وكان ذلك عيداً لنا نحن الصغار . .

دموع كبيرة تتدلى من حافات النوافذ . . . وحواشي المظلات على الابواب . . اشبه بثريات مهيبة . تلتمع في أول الصباح ، وتقدم الوانها القزحية . .

ومرتين ، سقط الثلج . . ظل يسقط حتى غطى السطوح . . وجاءت اسراب من الغربان ، فاكلت الزيتون الاسود الذي وضعته عمتي على السطح ، لتذهب عنه مرارته . . البرد . .



والثلج . . وعيد الميلاد . .

وذاك الطفل غير المصدق ، الملقى في المغارة ، مستسلماً ، للدفء ، الذي تقدمه له حزمة شوك محترقة ، وانفاس حيوانين :

ثور ، وحمار . .

في ليلة الميلاد ، كان أبي يوقظني عند الثالثة ليلاً . . .

لافائدة من أن تعترض أمي ، وأن تعتذر لي بصغر سني ، والبرد ، والنعاس فانا اعشق هذه اليقظة المسحورة . . .

اعرف أن حذاء ، جديداً ، ينتظرني ، تحت السرير ، وأن حلة جديدة تعدني بفرح العيد . . والكنيسة المسحورة ، وتلك المغارة التي يقيمونها عند الزاوية ، والاناشيد ، وحزمة الشوك الكبيرة التي سيشعلونها ، في فناء الكنيسة ،

أرتدي ملابسي ، وأنا ارتعد من السحر ، والبرد ، والانفعال . .

وتشد لي أمي سيور حذائي . . ثم نعبر أنا وأبي الفناء المعتم ، ونفتح باب الدار ، فيصدر في عمق الليل أنيناً حزيناً ، ويأخذنا زقاق موحش ، ونروح نصغي الى الصدى الذي ينجم عن وقع اقدامنا . . ونرى الحرس الليليين متدثرين بمعاطفهم السميكة . . ونظل نسير ، وقد نصادف أحداً من الجيران . . أوكلباً سائباً . . أو نافذة مضاءة واذ نقترب من الكنيسة ، تتناهى الينا ، عن بعد ، اصوات المصلين ، ثم نلمح الاضواء . . وما نلبث ان ندخل باباً كبيراً ، وننحدر بضع درجات ، الى باحة صغيرة ، ثم تهبط درجتين ، ونعبر مجازاً ، ويستقبلنا ذاك الفناء الملئ بالقبور ، تتكئ على جانبه الكنيسة المهيبة . . فنعبر باب النساء ، وتلحق بنا رائحة البخور والصلوات ، ونرى قبوراً جديدة ، وشواهد مرمرية ، حتى نصل باب الرجال ، ويلقي أبي التحية بوقار على بعض من الناس الواقفين يدخنون عند الباب . ثم ندلف من الباب الى الكنيسة ، فنسقط في السحر . .

يستقبلنا مزيج من الدفء ، والاناشيد ، والبخور ، والاضواء ، وملامح الايقونات ، والثريات المضاءة ، وستار الهيكل ، الذي يخفي وراءه المذبح . . والملائكة الصغار المعلقين بخيوط على المغارة . .

ويتجه أبي الى مكانه ، هناك في المنصة التي تحاذي الهيكل ، أمام أحد الاعمدة الكبيرة — المكان المخصص له — هو رئيس «الشماسة» . . وعازف الارغن . . ومعلم الكهنة الصغار . . واتبعه بزهو ، وعيناي على المغارة . . هذا السحر السنوي غير المكشوف . . وما أن استقر قليلاً ، حتى اتسلل بهدوء ، يؤلمني حذائي الجديد ، واروح أقف امام المغارة ، أتأمل بخوف ، ودهشة ، قصة الميلاد ، الغريبة ، وافكر بـ(هيرودس) . . وبجنود يطوفون الشوارع والازقة ،

ويقتلون الاطفال . . وأرى «يوسف النجار» . وهو يأخذ خطيبته ، ويهرب ، واتمثل الرعاة . . والملوك الذين حملوا هداياهم : ذهباً . . ولباناً . . ومراً . . .

كنت مسكوناً بهذه القصص . . كل قصة اعطيها تفاصيل من خيالي ، واكيفها على هواي . . ثم تختلط هذا جميعه . بصوت امي ، وعمتي . . فما كنت أملك دونهما ، أن اعطي لهذه القصص . الغريبة احساساً ممكناً ، لولا حرارة انفاسهما ، ورائحة حنانهما ، والنعاس ، والتعب . والاحساس بالطمأنينة . ثم في الوقت نفسه ، ذاك النزوع الغامض ، الى عالم ، أجمل . يسكن فيه الجن ، والآلهة والملائكة ، والحيوانات التي تنطق ، وتحب ، وتتصارع ، وتهزل . وتمكر ، عالم من الرحمة والقوة والدعابة والجد والقبح والجمال ، والالفة والغرابة . . .

كان ذلك كله يتحقق في القصص التي ترويها لي ، امي وعمتي . . . الياسمين يبكي . . والحمير تتزوج . . وعصفورة الجنة تدور السند والهند . . وعصفورة البستان ، التي ريشها الوان . . وعصفورة البحرين . التي جعلت ريشها لونين . . والسعلاة . . والرجل الذي بعث امه لتخطب له دجاجة . . والابله الذي لم ير طول حياته الباذنجان . . و «مريم خاتون» التي كتب عليها أن تخدم جثة ، سبع سنين . . ويعقوب المقطع . . وحديدان ، مقطع الاذان . . ويوسف الذي باعه اخوته للمصريين . . .

كانت قصة يوسف ، تستهويني ، لفرط مافيها ، من ظلم ، وقسوة ، اعرف ، مقدماً ، أنها سوف تنتهي ، بانتصاره الكريم . . وكنت أبدأ ، أرى نفسي فيها . وكان ألذ مايعجبني في ذلك . أن يبعني اخوتي للنجار ، ثم يأتي وقت يقفون فيه أمامي ، نادمين ، مستغفرين . . .

يالحرارة تلك القصص ، وجدتها . . .

كانت ، اذا حل الليل ، تغدو جميعها مصدقة وممكنة . . . في الليل تُضيع الحدود بين الحقيقة والوهم . . بين زجاج النافذة ، وغصن الشجرة الذي خلفه . . وتصير النجمة سناً ذهبية . والقمر عروساً . والحجارة رأس قديس . . .

ماكان ليواتيني النوم الا مع قصة أو حكاية . . أو على الأقل تنويمة . . وماكان ثمة بأس ، من أن تعاد الحكاية مرات ومرات ، فهي لن تفقد أسرها ، بل تزيد في خيالي طغياناً . . . بحيث أرى كل تفاصيلها مجسدة ، من المحيط الذي حوالي . . .

كانت عمتي تقص علي القصص التي تثير الغرابة والضحك . .

أما أمي فكانت تحكي لي ما يستدر الحزن والدموع . . . ولقد كنت شغوفاً بكلتيهما . . ما أن اسند رأسي الى صدر عمتي ، حتى تضع يدها على رأسي كأنها من خلال ذلك ، تستحوذ علي . . وتروح تتخلل شعري باصابعها وتحكي لي ، حتى أنام . . أما أمي فكانت تستلقي الى جانبي . وتلفني بذراعيها ، وتروح تربت على كتفي ، ويأتي الي صوتها ، كأنما من قرار سحيق ،



واحس أنني استسلم الى حلم غريب . . وأنام ، فلا استيقظ ، الا وقد أبيضت السماء ، فما كاد يتبقى فيها ، الا ذاك النجم العنيد ، الابيض اللماع . وهدأ صوت المؤذن في الجامع المجاور ، واتلفت حوالي . . فاذا أبي قد غادر فراشه . وكذلك امي ، وعمتاي ، . . وعند ذاك ، انط من مكاني . وابحث على حاشية الجدار الذي يحيط بالسطح ، عن فاكهة ، قد تخلفت من عشاء أمس . أو قطعة بطيخ قد اقشعر جلدها ، تحت ليل بارد ، ثم اتسكع في السطح ، وقد أتلصص على الجيران بحذر ، فانا اعرف ان عملا كهذا معيب تماماً . ومع هذا لا استطيع الخلاص من فضولي ولذة أن ارتكب هذا العمل الذي حرموه علي . .

أرفع رأسي على حافة الجدار رويداً رويداً . . . واروح أتلصص ، فثمة على الطرف المقابل . . في غرفة مهجورة ، يجلس ، وديع المجنون ، وقد كشف عن نفسه ، ببلاهة مخيفة ، وهو لايفتأ ليلاً ونهاراً يصدر ذاك الصوت الرهيب «إع . . إع . .» . . واذهل ، كأني اراه للمرة الاولى ، ويحاصرني فضول طاغٍ . . . فكل ما أراه يبدو غريباً وغير مفهوم . . وأتعب من التحديق وتوجعني رقبتي . . وتوجعني قدماي . . ولكنني اظل مأسوراً الى هذا الشذوذ ، الذي يقدم لي اسئلة كثيرة . لاجواب لها . عن الجنون . . ويركبني خوف طاغ ، لان عيني وديع تشبهان في سعتهما ، وثباتهما ، عيون القديسين . . ثم ، في الوقت نفسه يبدو التناقض بين وقار عينيه ، وحزنهما ، وبين عريه ، طاغياً ، فهو في لحظة أخرى اشبه بشيطان . . .

ما كنت أخاف منه . . . بل كنت أخاف من معناه الذي لا استطيع استيعابه . هذ المعنى الذي يجعله ملتبساً . . فلا هو قديس ، ولا شيطان . . وكان يزيد من خوفي هذا ، ان تكتشف اخته عيني المتلصصتين . فتروح ترفع من صوتها بالدعاء ، على الجيران الذين لايرعون حرمة الجيرة . . وعند ذاك اسقط ، تحت لوم أمي الحزين ، وتهديدها لي ، بأن من ينظر الى المجنون ، قد يتحول الى مجنون مثله . .

ومع هذا . فقد ظل اغراء النجس على «وديع» لايقاوم ! وكان اشد ما في هذا الاغراء ، تلك الغرابة . التي تشكل لنا نحن الصغار امتيازاً ، فكأننا نكشف عالماً محرماً ، ونفضحه بفضولنا . عالم ، هو عيب الكبار ، والبالغين . .

ثم مرت سنوات ، حتى جاء يوم ، اكتشفت فيه حقيقة جميلة ، وذات مغزى ، هي أن الصغار لايصابون بالجنون . الكبار وحدهم ، هم المؤهلون . لان يتحولوا ، مثل «وديع» الى مجانين . . .

ولكن اكتشافي . جاء متأخراً . . . فقد بقيت ، لسنوات افكر في «وديع» وفي جنونه الخصوصي . والمكتوم ، الذي لايشبهه فيه حتى المجانين . . واخاف ان اصير مثله . .

كان يكمل صورة شذوذه أن له اختين . كبراهما في الستين وصغراهما في الخمسين . .



امراتين ، ملفعتين بالسواد ، والحزن ، والحقد ، والكتمان . . . كانهما خارجتان من الاساطير ، فهما ، واخوهما المجنون ، تسكنان داراً ، يندر أن يطرقه أحد أو يزوره ، فاذا فعل فهو لا يستطيع أن يصل اليه ، الا عبر ممر موحش ، شديد الضيق ، ما يلبث أن يؤدي الى فناء شبه مهجور ، تقوم فيه غرفتان ، كان يبدو لي انهما مسكونتان ، بالاشباح والعناكب . . .

ظل سر «وديع» امتيازنا ، نحن الصغار ، وكنا حين نرضى عن صديق ، ندعوه ، لمشاركتنا هذا السر الغريب ، فنقوده الى سطح الدار متلصصين . . ونريه «وديع» وعريه . . وصوته اللامعقول . . ثم اذ يكتمل اثر الصدمة في الصديق الصغير ، نروح نتطلع الى عينيه بشغف . . وكأننا نعيد معه اكتشاف الغرابة ، ونتأكد من حقيقة امتيازنا ، وعند ذاك فقط ، نتسلل من السطح ، الى حياتنا البريئة ، وقد عكرها اكتشافنا المعاد . . اكثر من مرة ، سمعت أبي يقول ، أنه لكي يعالج المجنون ، فانه لمن الحكمة أن يأخذوه الى دير ما . . أو الى كنيسة ، تقع في أحد احياء المسلمين . . .

ينحدر الداخل الى هذه الكنيسة درجات عديدة . . ثم يدلف الى باحة تتوزع فيها القبور ، ويقترب من بئر المعجزات ، ويستقي الماء . . ويقدم منه ، بالوعاء القصديري الصدئ ، جرعة ماء للمصاب بالجنون . . فاذا لم يُجدِ ذاك ، فليس اكثر من أن يقتادوا المجنون الى بهو الكنيسة . . ويتوجهوا به الى «بيت القبر» ، وهناك سيجدون سلسلة حديدية ، اشبه ماتكون ، بالقيد الذي يقيد به المجرمون ، وفي نهاية هذه السلسلة ، طوق ، كالذي يوضع للحيوانات والكلاب الشريرة . . يأخذون المجنون ، ويحتالون عليه ، بأن يضعوا الطوق حول عنقه ثم يغلقونه بالقفل ، ويأخذون المفتاح معهم . . وينسحبون ، تاركين المجنون وحده في «بيت القبر» . . وشرط ان تمر ليلة كاملة . . فاذا كان الصباح ، يعودون ، ويجدون القفص مفتوحاً ، والمجنون قد برئ من جنونه !

يالتلك السلاسل . . .

مرات لمستها بيدي . . . وتحسست برودتها ، وثقلها ، وكان علي ان اقبلها ، وأضعها ، فوق رأسي ، وصدري ، وعنقي (بناء على طلب أمي والحاحها) ثم أخرج ، وأنا ارتعش خوفاً . . لأنني لم اكن أملك طاقة ان ادفع عن نفسي ، فكرة أنني سأصاب بالجنون ذات يوم ، وسأقيد بالسلسلة نفسها ، واترك ليلة كاملة ، في ذاك البيت الرهيب ، تحيط بي الظلمة والرطوبة ، والاشباح ، ورائحة الشموع ، والقبور والقديسين . .

كنا آنذاك في «دير الربان هرمز» ، قرب القوش . . وهو الليل ، والجبل الذي يحتوي صوامع الرهبان المنحوتة بالصخر . . وهم الرهبان بلحاهم الغريبة ومسوحهم المصنوع من نسيج خشن ، ووجوههم الناحلة ، وعيونهم الخاوية . .



خشن ، ووجوههم الناحلة ، وعيونهم الخاوية .

الي اليمين وادٍ سحيق . ومن بعد ، يمكن أن نحدس اضواء ، خافتة لقرى بعيدة ، وكروم سرية ، جعلها الليل أقرب ماتكون للاشباح . . قال أبي مستطرداً : . . وفي الصباح وجدوا السلسلة ، وقد انحلت عن عنقه ، وحكى - المجنون - للناس ، أنه في الظلمة ، رأى نوراً يتسرب من جانب الكهف . . ثم هدأت رويداً ، وتطلعت الى نفسي ، فوجدت دماً اسود ينزف من الاماكن التي طعنني فيها بحربته . . حتى امتلأ المكان بذاك الدم الغريب . . ولكن الفارس ، أومأ بيده ، فراح الدم يغور في الارض ويختفي . . ثم بدأت اشم رائحة كرائحة المسك . . حتى غلبني النعاس ونمت . .»

كانت الاديرة ، خوفاً لذيذاً أخر . . .

اديرة لقديسين غريبي الاطوار . . كل منهم هو بطل حكاية أو اسطورة أشد غرابة . .

كان اكثرهم وسامة . القديس «كوركيس» . . . فارع القوام ، واسع العينين متقن الشاربين ، ذا وجه وجسد مليئ بالعافية والعنفوان . . وقد امتطئ فرسه الأبيض ، وأغمد لتوه رمحه في فم التنين . . بينما وقفت بنت الملك المزينة ، عن بعد ، تراقب منقذها ، وأطل من شرف القصر ونوافذه ، اناس كثيرون بعيون متسعة من الدهشة والعجب والفضول . .

ما الذي حل باللوحة التي كانت معلقة أمام باب الكنيسة في القسم العلوي من الدير ؟ . .

كنت اقف ازاءها مسحوراً ، بطغيان عيني القديس ، ووداعة بنت الملك ، وشراسة التنين . . . متخذاً في خيالي الدور نفسه ، ومنتقياً لنفسي بنت ملك ما ، انقذها من القتلة . .

والدير الأخر . . ذو الردهات المحرمة ، والمعتمة ، ومئة راهب ، ورعاة ، وبنادق . . ولصوص ، ونبع . . وناقوس لايفتأ يعلن مواعيد الصلاة . .

واذكر : كان في الدير ، راهب مسلول . . (لم اكن اعرف ما معنى أن يصاب الانسان بالسل حينذاك) وقد انقطع في صومعته . . نراه أحياناً مثل شبح واقفاً امام الكوة الضيقة ، وهو ، يسعل سعالاً حاداً . . وكان فيه الاخ (قاف) الذي دفعه اليأس ذات يوم ، لان ينهي صراعه مع شهواته ، بأن يأخذ فأساً ، ويهوي به على جسد شهوته ، فيقطعه ، ويمتلئ الدير بالدم ، والفضيحة . . وعلى عجل سيارة عتيقة ، ويأخذون الاخ «قاف» الى المستشفى وينقذونه من الموت . . كان هناك أيضاً الاخ مروض الخيول والاخ صانع الفخاخ . والاخ حارس الكرم . . . والاخ شاعر الدير ، الذي يرتجل قصائد اقرب للهزل ، في مدح رؤسائه ، والضيوف الكبار الذين يفدون الى الدير . . واذكر بشكل مبهم صورة راهب وهو يقتل . .

الصورة مرسومة بالابيض والاسود ، ومعلقة في صدر غرفة الضيوف ، يبدو فيها راهب



خاشع ، وقد ركع للصلاة ، ومن حوله ثلاثة من القتلة وقد أشهروا خناجرهم . . انهم على وشك أن يقتلوه ، وهو مستسلم لصلاته ، كأنما ، يحاول ، من خلالها أن يذهل عن المصير الذي ينتظره . . .

ما استطعت قط أن أنسى عيون ذاك الراهب في اللوحة . ولا عيون قاتليه . . وما كنت استطيع ان افهم ، كيف يمكن ، أن تبلغ الشجاعة ، بانسان ، ليذهل هكذا ، عن خوفه من الموت . . ورحت ، لسنوات عديدة ، اتساءل ، ماذا لو أنني ، وجدت نفسي في الموضع نفسه الذي وجد هذا الراهب نفسه فيه . . حين خيروه بين دينه ، وبين الموت ؟ . . . ونرتقي الجبل ، يرافقنا ثلاثة من الرهبان ، وتحف بنا اشجار برية ، من تين وجوز وبلوط وزعرور . . ونباتات غريبة بعضها سام ، وبعضها مسالم . . وعلى وقع خطانا ، تقفز حيوانات نافرة ، فتهرب ، أو تروح تراقبنا بعيون يمتلئ فيها الفضول والحذر . . .

وما نلبث أن نصل «الدير الاعلى» . . .

بناية محفورة في حضن الجبل تماماً . . وغرف منحوتة في الصخور أو مبنية ، باتقان . . وكهوف تتوزع على الجانبين ، فهي صوامع ، كان الرهبان ، قديماً ، ينقطعون فيها للصلاة . . أو يهربون من اضطهاد . .

ويقودوننا الى «بيت القديس» عبر مسالك وعرة وخطرة . . ونجتاز بضعة كهوف ، معلقة فوق هوة سحيقة . . ثم تنتهي الى كهف اكثر ضيقاً ، واطئ السقف رطب ، مسود الجدران ، ويشير أبي ، الى السقف ، فأرى ثمة حلقتين حديديتين ، كان القديس ، يعلق نفسه بهما ، ليبقى مستيقظاً ، فلا ينقطع عن الصلاة ! . .

وأخرج من الكهف ، الى شمس ساطعة ، متعباً ، مذهولاً . . احمل اسئلة ستظل تلاحقني طويلاً . .

كيف يتأتى للمرء أن يصير قديساً ؟ هل يولد القديسون وهم كذلك ؟ أم يولدون مثلنا ، ثم يتحولون الى قديسين ؟ كيف ؟ هل يتحتم ، من أجل ذلك أن يواجه الانسان العذاب ، والحرمان ، والموت لينال قداسته ؟ حسناً . . وماذا عن الاف البشر ، الذين عانوا هذا كله دون ان يصيروا قديسين ؟

وتتفرع الاسئلة في روحي ، وتقدم لي قلقاً لا مهرب منه ، رغم انني ، منذ ذلك الزمن المبكر ، كنت مقتنعاً ، بأنني ، لا أريد ان اكون قديساً ، وانني ، حتى لو اردت هذا فلن استطيعه . . كل ما املكه ، هو التطلع باعجاب ، وخوف ، الى هذا النمط من البشر ، كل يحمل على طريقته ، قوته ، وتميزه ، وصبره ، وثباته ، بل وعناده الى حد الشذوذ . . وأخيراً ، قدرته الهائلة على مواجهة الموت . .



هكذا ، ظل القديسون يحيطون بي . . . وسيظلون !

اسماؤهم . قصصهم ، قبورهم ، مزاراتهم ، صورهم . . عيونهم الغريبة ، عجائبهم . . مسوحهم . . صلواتهم . . وتوحدهم . . ووحشة أيامهم . . وتلك الهالة المجيدة التي تحيط بهم في كل حين . .





الفصل الثاني

الميتـم




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني
الميتم

في تلك السنوات ، أمسكَ أبي بيدي ، وأخذني الى الميتم . . . بكت امي ، واعترضت عمتي : «ما الذي سيقوله الناس ؟» ، فما اعارهما انتباهاً . . وسرت بجانبه سعيداً ، بأنني اوشك أن انغمر في عالم غريب ، كنت لفرط طفولتي ، احسد عليه ، اولئك الايتام المساكين بمجرد أنهم يعيشون ، بطريقة لا تشبه الطريقة التي اعيشها . . .

بيت كبير ، اشبه ما يكون بمدرسة ، ولكنه ليس كذلك . . . له باب كبير مغلق الابواب . . وغرف تنسدل على نوافذها ستائر ، بسيطة لكنها نظيفة وانيقة . . وفي الزوايا ، ترتفع ايقونات ، كالتي ترى في الكنائس . . وعند الباب ، ناقوس ، يقرع عند الاستيقاظ ، والطعام ، واللعب ، والصلاة ، والنوم .

هذا بيت لا يشبه بيتنا . . لا يشبه أي بيت . .

كل شيء هنا ، كان يبدو لي غريباً ومثيراً . . . خليط من مدرسة ، وملعب ، وبيت ، وكنيسة . . فقد كان في الميتم شيء من كل هذا ، فاذا مزاجه ، يتخذ مذاقاً ساحراً في ذهني . . . مادته ستون فتى أو اكثر ، يعيشون حياة ، لا تشبه حياتنا نحن ، الذين لسنا أيتاماً ، أنهم دون آباء ولا أمهات . . . ولقد كان هذا ، لوحده يشكل في ذهني امتيازاً ، مبهماً ، لم استطع أن اتبين حقيقته القاسية الا عندما ، اصبحت يتيماً بعد بضع سنوات . . . وعند ذاك ضحكت بأسى من سذاجتي . . .

أما الان ، فهو بيت لا يشبه بيتنا ، واولاد ، لا يشبهون اولاد المحلة ، الذين اعتدت اللعب معهم . . ستون فتى لهم بيت واحد ، يذهبون معاً الى هذا المكان ويعودون معاً من هذا المكان . . . ينامون . . . يستيقظون . . . يتناولون طعامهم يتنزهون . . . يلعبون . . . يستريحون . . . يغتسلون . . . ودائماً معاً . . . تحيط بهم طقوس مثيرة . . . ويحيون حياة متصلة . . لا ملل فيها . . حتى الطعام الذي يتناولونه . . كان يبدو لي ، مثيراً فهو لا يشبه الطعام الذي اعتدت عليه . .

وقد كان صباح ، أخذني فيه أبي الى هذا الميتم . . .

كنت اسير الى جانبه مليئاً بالاعجاب ، لانه ، لم يأبه لدموع ، أمي ، ولا لأعتراضات عمتي . . بل لقد كنت في اعماقي انطوي ، على فرح ، لان ، يستدّر ما أنا مقبل عليه ، دموع



امي . فالبكاء علي ، كان يمثل عندي ، في تلك السنوات المبكرة امتيازاً اخر ، ليس ازاءها حسب . . بل أزاء كل اهلي ، واصدقائي . . . فليس بين اولاد المحلة ، من اتيح له ، أن يذهب الى الميتم ، ويعيش في ذلك البيت العجيب . . ويطلع على اسراره ويتمتع بمزاياه . . . حتى اذا شارف النهار على الانتهاء ، قفل عائداً الى بيته ، يحمل امتيازه ، واكتشافاته واسراره . . .

كنت اسير الى جانب أبي ثم حين دخلنا ذاك المبنى ، اعتراني انفعال طاغ . . حتى لقد احسست اعماقي ، ترتعش ، بين مشاعر متناقضة ، الانبهار ، والمتعة ، والخوف ، والرغبة في البكاء ، من دون سبب واضح . . .

أدخلني أبي معه ، الى غرفة «الخوري انطون» . . . يتمدد سرير مغطى بملاءات نظيفة ، والى جانب الباب ، يقوم مكتب كبير ، عليه كتب نصف مفتوحة ، تعلوه صورة لمسيح غريب الشكل ، تحيط به كتابات بلغة مبهمة . . .

كنت قد رأيت الخوري انطون ، مرات عديدة ، في بيتنا ، يزور أبي أو عمي ، فما أثار انتباهي فيه ، سوى عينيه الزرقاوين ، وطريقته الغريبة في الكلام . كان يتحدث وكأن الكلمات تخرج من فمه دون ارادته . . . واكثر من ذلك ، كنت أراه في الكنيسة ، يلقي المواعظ بأنفعال شديد يثير الضحك . . .

اما هذه المرة . . فقد بدا لي الخوري انطون ، شخصاً غريباً واحسست بالخوف منه ، الى حد ، أنني ، ندمت على موافقتي على مشروع أبي ، بأن أذهب يوماً الى الميتم من الصباح حتى العصر . . .

كنت اقف في الغرفة ، مطرقاً . . اسمع صوت أبي ، وهو يتحدث ، دون أن أجد الشجاعة ، في أن ارفع عيني وانظر الى الخوري ، الجالس ، على مقعده الاسود مثل قديس ، هارب ، لسبب سري من الجنة . .

لم يطل بي الأمر . .

فقد قرع الخوري انطوان جرساً ، لم البث على أثره أن سمعت نقراً على الباب ودخل المراقب - ذاك الولد الطويل ، ذو الانف المعقوف ، والذي ، كان في مدرستنا ، قبل سنتين . . .

شرح الخوري انطون للمراقب ، حالتي ، غير المفهومة في أن أكون واحداً من الايتام يومياً من الصباح حتى المساء . . . واوضح بأنني سأكون خلال ذلك ، خاضعاً لكل ما يخضع له الاولاد ، ولهذا فأنه - المراقب - سيكون مسؤولاً عني . . . ان اخطأت ، أو خالفت القوانين . . .

كان كلام الخوري ، مقتضباً ، الى حد مريب . . حتى لقد بدا لي أنني وقعت في الفخ ، ولأنني لم اكن املك (بسبب خوفي المبكر من الخوري ، انطون ، ومن المراقب ، الذي كان



يقف بطريقة غريبة ، حتى ليكاد يرتجف) أن اتراجع ، أو أعترض فقد خيل لي أنني ، سأبكي . . . وقد حاولت . . ولكن خوفي لم يسمح لي حتى بالبكاء . .

– خذه . .

هكذا قال الخوري انطوان . . ومباشرة نظرت الى أبي ، كأنني ، اشهده على ما أعاني من خوف واحساس باللامعقول في اعماقي . . . لكن أبي لم يفهمني . ووجدت المراقب يأخذني خارج الغرفة . . .

– تعال . . .

تبعته وبي احساس عميق بالغدر . . وصممت وأنا اسير وراءه أن اهرب ، قلت لنفسي : حالما اقترب من الباب سأفتحه واهرب . . . واذهب مباشرة الى امي ، وعمتي ، وأشكو لهما ، واستعين بهما على خوفي من الخوري انطوان القديس الهارب من الجنة . . .

احتوانا ، ما أن غادرنا غرفة الخوري ، فناء الميتم المملوء بشمس الصيف ، وقال المراقب ، ونحن نسير :

– ما الذي جئت تفعله عندنا ؟ . . .

وفهمت سؤاله بعمق ، ومن جديد ، شعرت ، بالمهانة والغدر .

فأجبته بمسكنة :

– ليس أنا . . . أنه أبي . . .

ماردّ عليّ المراقب . وتجاوزنا الباب الذي كنت قد صممت أن افتحه واهرب ، واذ ادركت عجزي ، فقد قلت لنفسي «حسناً . . انه يوم ينتهي . . وغداً لن اعود . .» واذ فكرت بذلك ، فقد احسست نوعاً من الهدوء ، وغدوت مستعداً لأن أكون صبوراً . . .

قادني المراقب الى غرفة ، حين فتح بابها ، وجدت الايتام ، ثمة ، يجلسون في قاعة ، تشبه صفاً مدرسياً كبيراً ، كل ينحني على كتاب ما ، أمامه . . والصمت يخيم على الجميع . . .

قال المراقب بصوت اشبه بالهمس ، وهو يشير الى رحلة فارغة ، «اجلس هنا . .» وعند ذاك التفت بعض الايتام . وتطلعوا اليّ بفضول . . أما المراقب فقد اتجه الى شبه منصة قائمة الى يسار القاعة . واحتل مكانه هناك ، في مواجهة الجميع :

جلست على الرحلة التي خصصها المراقب لي ، مرتبكاً فلم اكن أدري ، ما الذي يتوجب عليّ فعله . وكان الصمت التام الذي حولي ، قاسياً ومتعباً ، الى حد كبير ، الأمر الذي اغراني ، على غير ارادة مني ، بأن اجربّ أن اسعل ، أو اتنحنح . . . وتساءلت في سري ، ترى كم سيطول هذا الصمت ، ومتى سيتاح لي أن اعود الى البيت ؟ . . .

طال الوقت . . وعبثاً حاولت أن أتلهى عن احساسي ، بثقل الزمن والصمت ، وفكرت



باولاد المحلة ، الذين لابد يتجولون الان بحرية ، يفعلون ما يريدون ، ويقولون ما يريدون . . وتمثلت بيتنا . . والماء البارد قرب المطبخ . . واحسست فجأة بظمأ راح يزدادشيئاً فشيئاً ، حتى جاءت لحظة وجدتني ، أرفع يدي ، كما يفعل الطالب في المدرسة . . .

لم يلبث المراقب ، أن انتبه اليَّ ، فقام من مكانه ، وجاء اليَّ وانحنى عليّ وسألني هامساً :

– ماذا تريد ؟

– عطشان . . .

كان صوتي الهامس ، ذليلاً ، ومتـــردداً فقد ادركت حين اقترب المراقب ، أن طلبي ، لابد سيبدو سخيفاً وغريباً . في هذا الصمت العجيب . ولم يفهم المراقب ، وعاد يستوضحني :

– ماذا ؟

– عطشان . . .

قلتها . وأنا انظر الى الارض ، بارتباك . . وسمعت المراقب يهمس من جديد :

– ليس الان . . انتظر حتى يقرع الجرس . .

ثم وجدته ينصرف عني الى مكانه . . .

رحمني الجرس بعد قليل فأنهى عذابي . . .

ومع الجرس ، ابتدأ زمن جديد ، استمر صيفاً كاملاً ، اعتدت فيه ، الحياة الغريبة التي اسلمني اليها أبي ، لكي أجرّب نمطاً جديداً من العيش الصعب ، والنظام ، والحرمان . . .

سعدت حقاً طوال ذاك الصيف . . .

سعدت بأصدقاء جدد . . فرض عليهم اليتم أن يعيشوا في البيت الكبير ، وأن يتعودوا قبول شروطه . ويحولوها . كل بطريقته ، الى حياة لا تخلو من غنى ومتعة ، أو هذا ما بدا لي حين ذاك . . .

كانوا مزيجاً من اولاد . اكثرهم في مثل سني . . . ضعفاء واقوياء . . . بلداء واذكياء . . . خبثاء وبسطاء . . . عقلاء ومجانين . . . لكنهم جميعاً ، كانوا فقراء ، بطريقة مبهمة ، ومتحررين من الوالدين ، والحنان والاقارب .

كل يتيم ، كان يبدو لي سراً ، فهو أشبه بقصة لم تُحكَ بعد . . وكان يزيد الأيتام سحراً في مخيلتي . أنهم يعيشون ، حياة هي أقرب الى القصص ، ردهة النوم تلك... حيث تتمدد الاسرة . واحداً الى جانب صاحبه ، متشابهة في كل شيء . . غرفة الطعام ، التي لها دائماً رائحة خاصة ، لعلها ناجمة عن الدهن الرخيص الذي كان يستعمل في الطبخ . . واوعية الطعام المعدنية . . الموائد الطويلة . . والطعام الشاذ كانوا يتناولونه . . ثم الخزانات التي تضم حوائج عجيبة ، ولوازم مرتبة بعناية . . وذاك التفتيش الذي يجري فجأة على الخزانات ، بطريقة مثيرة



تبعث على الخوف . بحثاً عن اشياء مجهولة . . . والكنيسة الصغيرة ذات القنديل الذي لا ينطفيء – حيث يركع الايتام يومياً أربع مرات ، ويروحون يتلون صلوات لقنوها ، بأهمال ، فهم يرددون الكلمات بضجر . وعلى عجل . . خصوصاً في الصلاة التي تسبق طعام الغداء .

كان اليوم في الميتم صعباً . . ولكنه شديد الاثارة . . . وكان أجمل ما في ذلك ، تلك السفرات التي يقوم بها الايتام الى الضواحي المجاورة للمدينة سيراً على الاقدام . . وخصوصاً الى الغابة التي تقع عبر النهر . . .

وفي الميتم ، تعرفت بذاك الولد ، الساحر الذي اسمه «لويس رومانوس» كان صبياً ، ذا ملامح شديدة السمرة . فهو هندي الاصل . . وكان طويل القامة ناحلاً الى حد غريب أما سحره الحقيقي . فقدرته الفائقة على الرسم . . يأخذ القلم ، ويخط على الورقة خطوطاً ، ما تلبث ان تتضح ، فاذا هي صورة ملاك بجناحين كبيرين ، أو قديس ذي ملامح مقطبة . . أو طفل المغارة . . أو العذراء الصاعدة الى السماء . . .

لقد جعلتني براعته عبداً له . فأنا اتبعه حيث يذهب وأنفذ كل ما يطلبه مني . لكنه كان غير آبه بعبوديتي وظل دائما ، صامتاً . غريب الاطوار لا تشغله العاب الاخرين ولا تستأثر بأهتمامه شيطنتهم وحيلهم اللاذعة .

والى جانب «لويس» . كان ثمة الاخت «بيا» تلك الراهبة المصنوعة – كما كان يخيل لي – من شمع الكنائس . . فهي ذات بشرة بيضاء شاحبة كنت اراها ، جميلة وذات وقار وغرابة ، حتى لكأنها امرأة ، ماتت ، ثم بعثت من جديد . . .

لعلها كانت في تلك الايام . في الخامسة والثلاثين . . تجلس في غرفة الملابس ، بمئزرها الأسود . وعينيها الفاحمتين . وتروح . تصلح ملابس الايتام ، وتطويها ، وتمسدّ عليها بحنان طاغ . مستخدمة يديها الرقيقتين مثل اصابع الحلوى . . وانفاسها التي تتابع هادئة ، تفوح منها رائحة الصابون والنظافة . .

اعتادت الاخت «بيا» أن تدعوني اليها بين حين وأخر ، وتبسط لي عنايتها وحنانها ، ليس لانها صديقة خالتي الراهبة ، ولا لأنني ولد عاقل ، بل لأن أبي ، فوق ذلك كله ، جاء واودعني في الميتم ، لاعيش مثل يتيم . رغم انني لست يتيماً . .

كنت ارتقي اليها وهي في عالمها الهادىء ذاك في الطابق الثاني ، واقرع الباب ، فلا أكاد اسمع صوتها . وهي تأذن بالدخول . وافتح الباب ، واراها ، كما اعتدت دائماً ، في المكان نفسه ، تحيط بها سلال الملابس والابر والخيوط ، والأرقام . . . فاذا رفعت الي عينيها الوادعتين ، تقدمت منها . وقبلت ظاهر كفها الشاحب . . هناك ، حيث تلوح عروق زرق ذات لون فيروزي مذهل . . .



كنت وأنا أخذ اصابعها بيدي ، اتحسس نعومة بشرتها ، وحدود العظام وراء هذه البشرة ، ثم تلك النكهة غير المصدقة ، المنبعثة ، عن جسد نظيف ، وشديد البكارة . .

وتقبلني الاخت «بيا» على رأسي أو جبيني وتحتفظ بي لصقها رويداً ، وذراعها يحيط بي ، وتروح تسألني ، الاسئلة نفسها : أن كنت راضياً . . ان لم يكن ثمة ما يضايقني . . . ان كنت مازال ، كما وعدتها اصلي قبل أن أنام . .

ثم رويداً رويداً تتخلى عني ، وتنصرف الى الملابس العائدة من الغسيل ، تتفحصها ، وتقلبها بين يديها ، وتتملاها ، وكأنها كائنات حية ، يمكن أن تتألم ، ان لم يحسن المرء لمسها والأخذ بها برقة وحنان . . .

عند ذاك ، ابتعد عنها خطوة . واظل واقفاً بصمت . . وأنا مكتف بأن اتطلع اليها وهي تعمل . بأستغراق ، حتى لقد كان يخيل لي احياناً ، أنها نسيتني ، فما عادت تشعر بوجودي ، فأروح استأذنها ، على استيحاء ، بأن اذهب . وآذاك ترفع لي عينيها السوداوين وتريني تلك الابتسامة ، الامومية الحانية التي لا تملك الافصاح عنها سوى العيون ، في حين تبقى سائر الملامح ، محتفظة بحيادها ، ووقارها . .

كنت سعيداً . . .

ولكن عذابي ، كان ذلك الخوري انطون . . .

ذلك الكاهن ذو العينين الزرقاوين ، والبشرة البيضاء الملوّحة بشمس وهمية ، ولحيته المقصوصة بعناية . . وطريقته الفذة في الكلام . . ثم القصص الرهيبة التي كان يتناقلها عنه الايتام ، برعب حقيقي . .

وأقول الحق ، أنني لم أر الخوري انطون في الميتم ، منذ اليوم الذي أخذني أبي اليه . . لم ألتقه قط . . . ولكنني ، كنت ، مثل سائر الاولاد ، احس وجوده ، في تلك الغرفة التي قرب الممر ، ببابيها المغلقين ، جالساً بين كتبه ، يقرأ لغات غريبة ، ويكتب كلمات اشد غرابة ، يستمع لاصواتنا نحن الاولاد ، ويحصي علينا انفاسنا ، منتظراً أن يرتكب احدنا نازلة ، ليستدعيه وينزل فيه العقاب بـ (الفلقة) . . .

ما الفلقة ؟

خشيت أن أسأل عنها الايتام ، لأني اشفق ، أن يجيبني احدهم ، بما يزيد من خوفي وهكذا رحت اخترع ، على غير وعي مني ، اسطورتي الخاصة ، عن هذه الالة ، التي يحتفظ بها الخوري انطون في غرفته ، تحت السرير تماماً ، اشبه ما تكون بقط وحشي من الحديد والجلد والخشب . . . ظل الخوف من الخوري انطون ، ينغصُ عليَّ سعادتي طوال ذاك الصيف ، فهذا الفيلسوف الذي يتقن خمس لغات . . والذي لا يكاد يبرح غرفته ، منشغلا بقراءة كتبه



الكثيرة ، في حين تختبىء الفلقة تحت سريره . . هذا الفيلسوف ، كان قاسياً . . ومخيفاً . . بسبب غموضه وغرابته . . والقصص التي يتناقلها عنه الايتام ، بنوع من المباهاة والشغف . . .

وبسبب خوفي ، حاولت جاهداً ، الا أنساق الى أيما خطأ ، يمكن أن يعرضني لغضب الخوري انطون ، ويكلفني أن استدعى ذات يوم الى غرفته . . . ولكن تلك الساعة الصعبة التي كان ينبغي علينا جميعاً ، أن نخلد فيها الى النوم بعد الغداء ، كانت فوق قدرتي على الاحتمال . . . فأنا لم اكن احتمل الاستلقاء في مكاني متظاهراً بالنوم . . حتى وأن لم اشعر بحاجة اليه . . لقد حاولت بأخلاص ، ثم كان اليأس من محاولتي ، يدفعني الى أن افتح جفني ، واتطلع الى الايتام وقد استلقوا مثلي صامتين ، مغمضيْ العيون . . . ويثير ذلك الوضع ، بما فيه غرابة في نفسي ، حاجة ، لا تقاوم ، الى الضحك . . بل الى المشاكسة . . لولا أن المراقب ، كان ابداً جالساً في مكانه ، يتسقط اخطاء الاولاد ، ويهددهم بأن يبلغ بها الاب الخوري . .

ولن أنسى . .

كان الصيف يوشك على الانتهاء . . وكنت بطريقة ما ، حزيناً ، لأنني بعد أيام لن اعود الى الميتم ، وسيكون محرماً علي أن ادخل هذا البيت ، واشارك في حياة هؤلاء الايتام الذين صاروا اصدقاء حقيقيين . .

أنها الظهيرة . .

وهي المعاناة المكررة من هذا النوم المفروض . . .

وفي ذاك الصمت ، سمعنا صوت الجرس المعروف ، يصدر عن غرفة الخوري انطون ، وسمعنا وقع اقدام المراقب يغادر ردهة النوم ، فرفعنا جميعاً رؤوسنا ، وفي أعيننا اسئلة صامتة ، وخوف مبهم . .

لم يتأخر المراقب . . بل عاد مسرعاً وقبل أن يدخل القاعة ، عدنا جميعاً الى التظاهر بالنوم . . ورحنا نستمع وقع اقدامه ، وهو يدخل القاعة . . .

اقترب المراقب . . . وتوقف وقع اقدامه قرب سريري ، وسمعته يهمس . .

– هيا قمْ . . أبونا يريدك . .

– أنا ؟

– أجل

– لماذا ؟

– لست ادري . . .

كنت أساله وخوف بارد يملأ عروقي . . .

– هيا . .



تجرأ عدد من الايتام فرفعوا رؤوسهم ، وتطلعوا اليَّ بأشفاق وقلق ، وأنا الحق بالمراقب فنغادر الردهة . . .

قرع المراقب الباب ، وسمعنا صوت هذه المرة ، قد تخلى عن ملابسه ، الكهنوتية ، فهو في جلباب أبيض شديد البياض . . ولم يكن يرتدي نظارتيه ، بحيث بانت عيناه الزرقاوان أصفر مما عهدتهما ، ينتفخ تحت كل منهما كيس لحمي يزيد وجهه شراسة . .وفي الزاوية لفتت انتباهي ، بدون أي داع ، مروحة تدور بقلق ، كأنها تفتش عن شيء ما . . . أو تراقب ايتاماً نائمين .

قال الخوري للمراقب :

– اذهب أنت . .

وحين خرج المراقب ، ابتسم لي الخوري ، فأكتشفت أنه قد خلع طقم اسنانه الصناعية . . . وزاد خوفي . . وسمعته يدعوني اليه :

واقتربت . . وعند ذاك اشار الى علبة مغلّقة من الكارتون ، وقال لي وهو يبتسم – خذها . . . انها هديتك . . لقد انتهت العطلة . ولقد كنت ولداً عاقلاً . . . ومن الغد تعود الينا . . .

وأضاف حين رآني جامداً في مكاني ، اتطلع الى مكان مبهم تحت السرير حيث تختفي الفلقة . .

– خذ هديتك . . واذهب . . وسلم لي على والدك . . .

بعد عشرات السنين .وكان الشيب قد بدأ يغزو شعري . . وفي غرفة ضيقة مغلقة الباب ، مسدلة الستائر . . اجلسوني على مقعد واطىء ، وأمرني ، أحدهم ، أن انزع حذائي وجوربي . . .

كانو ثلاثة . . . اكبرهم لم يكد يبلغ الثلاثين . . . وكانوا مثلي متعبين من السهر ، والاحساس المكتوم بالتناقض . .

بأن عري قدمي ، شاذاً . وكنت أقول لنفسي ، أنهما ستبدءان بأستدراج الاذي من خلال هذا الشذوذ . وعندما كنت افكر على هذا المنوال ، أخرج احدهم «الفلقة» من خزانة حديدية خلفه . . وعند ذاك ، رأيتها للمرة الاولى ، والفقر ، الذي يميز كل الاشياء الاصيلة . . أن عبقريتها نابعة من بساطتها . . ومن تاريخها الذي يمتد في الماضي ، فلا تكاد تبين بدايته . .

مجرد عصا غليظة ، يربط جانبيها ، شريط من جلد لا يكاد يبين لونه . .

كان الأمر واضحاً بحيث لم أبذل أيما جهد من أجل اكتشاف علاقة هذه الاداة بقدمي العاريتين ، وتصورت مقدماً ، ما نحن جميعاً مقدمون عليه . .

لم اكن خائفاً . بقدر ما كنت مأخوذاً ، بالمفارقة ، حتى انني لم استطيع تفادي التفكير



بالصورة المقلوبة : صورة أن يدخل ثلاثة من الايتام الى غرفة الخوري انطون . ويأمرونه بأن يخلع حذاءه وجوربيه ، ويؤدبونه بالفلقة التي يحتفظ بها تحت سريره . .

كان في الوضع الكثير من معنى الدعابة . . وكنت بطريقة ما ، انظر الى نفسي من زاوية النظر التي كان لا مناص من أن ينظر خلالها الخوري انطون نفسه ، فيما لو قدر له ، أن يكون في موقفي . .

وعدا هذا فقد بدا غريباً جداً ، الى حد سريالي . أن يكون في هذه الغرفة التي تنتمي الى مؤسسة جد حديثة ، وتستخدم ادوات شديدة الحداثة والتعقيد ، أن يكون فيها ألة منقرضة كالفلقة التي لا يبعد أن يرتقي تاريخها الى اواخر العصر العباسي . . .

ولم يكن ذلك كله ليخلو من مغزى نفسي واخلاقي بقيت حائراً في احتسابه لصالحي حيناً ولصالح اولئك الذين أو كل اليهم أمر تعذيبي . . . حتى أنني لوهلة . وبسبب من تعويلي المرضي ، على كرامتي ، تمنيت لو أنهم عدلوا عن استخدام هذه الاداة التراثية ، الى الاجهزة الحديثة التي كنت قد سمعت عنها كثيراً وخفت منها كثيراً في كوابيسي . . .

أما هذه الفلقة . فقد بدا لي أنها ، وهي تلتف حول قدمي ، انما تعلن عن استهانة بي ، واستخفاف ، ما كان لي أن ارتضيه . .

مال اثنان منهم ، فلفا الشريط الجلدي حول القدمين ، بأن أدارا العصامع اتجاه عقارب الساعة ، وبعناية واضحة ، رفعا العصا الى اعلى فارتفعت قدماي الى اعلى . .

ومن مكان رأسي الذي كان يتدلى الان الى الخلف كنت أرى مبلغ ما في الوضع بأسره من دعابة مؤلمة . . .

أنغلق دوني باب ذاك الميتم ، ومن عجب أنني ما عدت اليه قط ، بعد ذلك . . كنت أري بين حين وآخر ، الايتام في الطريق ، سائرين ، وقد انتظموا – كعادتهم – في صف طويل ، بملابسهم الرمادية المميزة ، ورؤوسهم الحليقة ، ووجوههم التي اعرفها جيداً واعرف ما تطوي عليه من مكر ودعابة . . وعند ذاك كنت اتطلع اليهم مبتسماً ، مكتفياً أن الوح لهم ، فأنا ادري أنني لا استطيع ان استوقف احداً منهم ، وان احدثه ، وهو سائر في الصف . . فذاك غير مسموح به ، وغير ممكن أصلاً . .

ومرات التقيت الخوري انطون ، صدفة في الطريق ولكنه أبداً كان يمر بي متجاهلاً ، مترفعاً ، بملامحه المستغربة ، محاولتي أن اقبل يده ، كما ينبغي على من هو مثلي ، حين يلتقي كاهنا في الطريق . . . ومرات قليلة رأيته في الكنيسة يلقي الموعظة ، وحاولت على غير ارادة في الايذاء ، ان اضحك من طريقته ، في لفظ الكلمات . . ثم فجأة كنت استعيد احساس الخوف الذي عانيته منه ، طوال شهور الصيف ، وذكرى الهدية التي اعطانيها ، لانني كنت ولداً

عاقلاً .

ثم جاءت سنة . هدمت البلدية فيها الميتم ، بين ما هدمته من بيوت ، صادف انها واقعة في طريق الشارع الجديد ، الذي تعتزم ان تمده من شرق المدينة حتى غربها . .

واذا كان الميتم يقع في طريق اليومي ، فقد كان على أن اتابع بأشفاق ، كيف تهدم ذاك الجدار العالي ، وسقط الباب الكبير . . . ثم انكشف القصر السري للناظرين فباتت ساحته على سعتها وراحت تتكدس فيها الانقاض . . فتبدو موحشة ، يتردد في جنباتها ، صدى نواقيس خفية تفصل بين اوقات الصلاة واوقات النوم . .

وفي سنة أخرى مات الخوري انطون . وسرت في جنازته ، وأصغيت بخوف وحزن الى كلمات التأبين التي قالها ، امام نعشه ، كاهن شيخ ، تحدث فيها عن هذا الفيلسوف المتصوف الذي عاش ومات بوداعة وتواضع . . .

ورويداً رويداً بدأت تشحب في ذهني ملامح اولئك الايتام واسماؤهم فلم يتبق منها غير «لويس رومانوس» وعالم الرسم السحري الذي فتح لي أبوابه . .

لكن تجربة الاشهر التي قضيتها مع الايتام ظلت تنضج في اعماقي ، وصرت بمرور الايام اتبين تأثيرها في ذهني ومشاعري . .

ولقد كان ينبغي ان تمر بضع سنوات لكي ادرك بشكل حاد ، معنى اليتم . . حين صرت أنا أيضاً يتيماً ، ولما أزل في أول مراهقتي . .

في التابوت ، جعلوا يديه الذابلتين تتقاطعان على صدره . . وكان طقم اسنانه في كأس من الزجاج مهمل عند الزاوية . . وساعته الذهبية . . . ونظارتاه . . وكنت احاول أن ابكي . . يا للمهزلة ! . . ليس البكاء لعبة . . ولا معضلة ولكن سيدة كانت تقول له بهمس «يالعينيك» . . والكنيسة . . والمقعد امام المذبح . . والارغن . . . وزوجته الاولى التي ماتت بالتيفوس . . وأمي . . وخالتي الراهبة.. والميتم . . وساعته الذهبية . . . ونواح أمي . . وغربتها . . واليتم . . والصور التي خلّفها معلقة على الجدار . . وادوات التصوير . . ومكتبته . . واوراقه . . وحساباته . . وزهوره . . والقرى . . . والكنائس . . والاديرة . . والاناشيد . . وليلة عيد الميلاد . . والسعال في أخر الليل . . وضحكة الطبيب . . ورائحة مخدرة نفاذة . . والعم الذي مات غرقاً . . والمشيعون . . ووليمة الموتى . . وهؤلاء الذين لم يموتوا بعد . . كل الذين احبهم ومازالوا يعيشون . . الذين كان لابد ان يخلدوا بمحبتي ، لانهم عالم كامل ، وكون ثقيل وضرورة وحاجة . . فاذا حدث ، وماتوا ، فسأموت أنا ايضاً . . ولكنني كنت بعيداً عن موتي الخاص . . وقريباً من حدس خلود طفولتي ، يكون من خلاله خلود الذين احبهم كاملاً ومنطقياً . . ولكن عمتي الكبيرة انتهكت حدسي في الخلود واعطتني الخوف مبكراً من أن افقد



الذين احبهم فصار موتهم الموشك ، هماً ملحاً . . عمتي الكبيرة ماتت فجأة وكان موتها معلناً وواضحاً الى حد رهيب . .

لقد رأيت ذلك ولمسته ، وسمعته ، وشممته . . لاسبوع كامل وأنا اقف مذهولاً اراقب عن كثب كيان هذه المرأة التي احبتني ، وهو يتقوض ، ويبدل شكله ولونه ، مصدراً حشرجات وأنات وغصّات لم يسبق لي أن سمعت شيئاً يشبهها ، يصدر عن انسان أو حتى عن حيوان . .

وفي اليوم السابع ، انقطع كل هذا النزاع الضاري . . وغطوا وجه عمتي الرهيب بفضلة الملاءة التي كانت تلف جسمها ، وجاءوا بماء الورد ورشوه على جثمانها . . أما أنا فكنت أتشرب من الروائح والاصوات والحركة المبهمة ، والهمود التام ، معنى الموت ، وحدوده ، غير المصدقة . . ثم بعد عمتي مات أبي . . . فاضاف الى ذهني معنى اليتم الذي يشبه طعم الملح . .

صرت يتيماً . . ولكن البيت الذي كنت اعيش فيه لم يكن ميتاً . . ولقد كنت لا أفتأ اتساءل ، ماذا لو أرسلوا بي الى الميتم الان ؟ وكنت اشفق من ان تدمع عيناي رثاء لنفسي وأن يكتشف أحد من أهلي : هذا الخوف غير المشروع الذي اعانيه ، والذلة المكتومة ، التي انطوي عليها بسبب من أن احداً ، هو غير أبي ، اصبح المكلف بأعالتي . . .

وعلى ضوء هذه المعاناة ، بدأت استعيد جوانب من حياة اولئك الاصدقاء الايتام واطرافاً من سلوكهم فأدرك مواضع الحرمان التي تتحكم بتلك الحياة وذلكم السلوك . وبشكل خاص ، شراسة عدد منهم ، وتحديهم ، اللذين ما كانا مفهومين على حقيقتهما داخل اليتم والميتم . . .

وتشكل في ذهني معنيان منفصلان عن الفقر ، وعن الحرمان . . ولم استطع حتى مرت سنوات اربط بين الجانبين . . . فقد بقي الفقر ، حتى بعد ان انتهت مرحلة مراهقتي ، يتخذ في ذهني معنى متميزاً يجتذبني اليه ، بما ينطوي عليه من بساطة ظاهرة ، جرية يومية خارجة عن طقوس الوفرة والضخامة ، والتنوع . بل حتى عن طغيان التسلط العائلي ، الذي يتسلسل فيه النفوذ ويجري التمييز بين الكبير والصغير والقريب والبعيد . ويفترض ، نوعاً من السلوك والادب والطاعة ، والعقاب ، والحساب ، والالتزامات . . . كنت بسبب هذا أهرب الى صداقات ، اعقدها بحماسة ، مع اولاد فقراء يعيشون في محلتنا ، في بيوت متواضعة أو غرف ضيقة . تتكدس فيها لوازم بيتية عجيبة . . بل لقد كنت ، اقاوم في نفسي ، اغراء الطعام الذي يتناولونه ، وأجده الذبمرات عديدة من الطعام الذي تعده والدتي ، بأهتمام واعتناء شديدين . .

ولقد اجتذبني الاصدقاء الفقراء بما كانوا يملكونه من حرية شخصية ، تجعل من أيامهم ، وخصوصاً ، أيام العطلة الصيفية ، مغامرات متصلة . . فهم يفعلون ما يشاؤون ، ويقولون ما

يشاؤون . . ويذهبون الى حيث شاءوا . . وما كان ثمة من يحاسبهم على ذلك . . ولم يكن ثمة من ينتظر عودتهم عند وقت الغداء ، أو العشاء ، أو يفتقدهم اذا غابوا طويلاً عن البيت ، أو يخاف عليهم من أذى ممكن ان يلحق بهم هنا أو هناك ، الان أو بعد قليل . . .

يالمغامراتهم المثيرة في ذلك العمر المبكر . .

كانوا يخرجون لها جماعة . . أربعة ، أو اكثر . . . ويستعدون لها ، بما ينبغي ، عصا أحياناً ، أو مدية صغيرة ، ونصف رغيف من الخبز ، يحمله كل منهم في جيبه أو تحت الحزام الذي يلفه على جلبابه العتيق . . . مرة غابوا نهاراً كاملاً . وحين عادوا حكوا للأولاد كيف ذهبوا الى الدير المهجور ، الواقع خلف المعسكر . . . ومرة أخرى قالوا أنهم قضوا النهار في قبور الانكليز وأخرى سبحوا في «عين كبريت» . . وو . . ولقد كان ذلك ، يشحن لي خيالي ويملأني رغبة في أن انطلق معهم يوماً مرتدياً مثلهم جلباباً قديماً ، وواضعاً على رأسي طاقية ، من هذا النوع الذي يستعمله العمال الصغار . . . ولكن الخوف مما قد يسببه ذلك لاهلي من قلق حين اغيب عنهم نهاراً كاملاً دون علمهم وأن انطلق مع «هؤلاء» : ابن عامل الانابيب . . . وابن بواب المدرسة . . وابن الخبازة سارة . . و . . .

كيف ؟

ما كان ثمة وسيلة لاقناع أحد من أهلي . . . وما كان ثمة وسيلة للهرب من الاغراء . . . وهكذا ، وجدت نفسي ضحى يوم من شهر ايلول ، قبل بدء الدراسة ببضعة أيام انطلق مع المغامرين ، فنقطع الشارع حتى نصل الجسر ، ونعبره ثم نستسلم للبرية . . . والطريق المؤدية الى «النبي يونس» . . . ونميل الى اليسار حيث يطالعنا ذلك التل الغريب تل قوينجق . .

تسابقنا في الصعود الى التل . . وكانت حرارة الشمس تجعل العرق يتصبب غزيراً على جبيني ، واشتد علي الظمأ . . ثم اعقبه الجوع . . والقلق . . ولكنني كنت اكتم كل ذلك برجولة مبكرة ، واستسلام نفسي غير منطقي . . . كان ظمأي شديداً . . . وكنت من أجل ذلك مرهقاً وخجلاً في أن واحد . . وفي سري ، رحت اتساءل . ترى الا يحس أحد من هؤلاء مثلي بالظمأ ؟ وما الذي سيفعله ؟ وأين يمكن العثور على الماء ؟ . .

ثم كانت عيناي ، تتجهان الى اليسار . . . الى نهر دجلة الذي كان يبدو من فوق التل ، فضياً ، يتلوى بهدوء بين المزارع والبساتين ويلقي في روحي رغبات الارتواء والغرق . .

راحوا يحفرون في تراب التل ، تماماً كما اعتاد الايتام أن يفعلوا في الغابة . ومن اعماق التراب كانوا يستخرجون جذوراً ، وديدان ، وابصالاً ، بعضها نظيف وأبيض ، يسحقونه بأيديهم ، ويلفونه بقطعة خبز . . . ويروحون يتذوقونه بشهية . .

اعطوني لقمة ، فأكلتها ، متذوقاً ذاك الطعم اللاذع ، الذي جعل جوعي يزداد شراسة . . .



وخجلت ان اطلب لقمة أخرى ، ولكنهم ،ادركوا جوعي واعطوني المزيد . . ثم انحدروا الى جانب التل . . . وهناك ، رأيت عن كثب ، الثور المجنح ، كان ملتصقاً بالتل ، كأنه يحك في طرف منه جسمه الحجري الرشيق . . . وكتمت في اعماقي خوفاً غامضاً هو أقرب للخوف الديني الذي اعتاد ان يعتريني أمام تماثيل القديسين والايقونات ، حتى لقد خطر لي أن أصلي لهذا الثور الغريب ، ذي الابتسامة الطاغية ، ان يغفر لي أفكاري ، ويجنبني لعنته القديمة . . . شربنا الماء من وعاء آجري لدى حارس الثور المجنح . . . وقفلنا عائدين . . .

كانت مصابيح الشارع قد اوقدت حين دخلنا محلتنا...وكنت ادرك ان أهلي ،لابد ،قلقون لغيابي ، واذ كنت استشعر الذنب لما سببته لهم من قلق فلقد رحت العن خوفهم عليّ واتمنى من كل قلبي ، ان لو كنت واحداً من هؤلاء الاولاد الفقراء الذين يستطيعون ان يلهوا دون أي شعور بالذنب لأن اهلهم لا يقلقون عليهم . . ولهذا فقد أزمعت أن اتحدى . . ولكنني ما أن دخلت الدار ، ورأيت عيونهم وهي تتطلع اليّ ، بفرح ، وقلق ، وغضب ، وتسامح . . هذا المزيج الغريب ، من مشاعر الرجولة والانوثة . . من موقف الام والاب . . حملني الى زاوية من غرفة مهملة ، جلست فيها ، ورحت استقبل الظلمة وهي تتسرب الى الكون رويداً رويداً . .

لقد هداني حدسي الصبياني الخبيث الى أن الذي افعله ، هو الطريق الوحيد لتحويل ، الغضب على ما فعلته ، الى قلق ، وعطف ، لما أنا مقدم عليه . . حيث انزوي وحيداً صامتاً ، في هذه الغرفة القديمة ، أتسمع بريبة الى اصوات الفئران المبهمة ، واتحسس وجودي كشخص منفصل عن أهل هذا البيت . . ولد فقير . . ووحيد ، فهو يتيم دون يتم ولا ميتم . . يضطهده رجال بالغون قساة ، يدّعون أنهم اهله . . واذ كنت اخاف من العقارب ، وآلف الافاعي ، فقد تمنيت بالخبث الطفولي نفسه ، لو خرجت حية ، من ايما جانب في هذه الغرفة القديمة ولدغتني . . . حية بيضاء ، وناعمة ، وذات عينين تقطران حكمة وحناناً . . تقترب مني ، حزينة الملامح ، واسعة العينين ، فاعطيها طرف اصبعي ، لتلدغه . بتلك الطريقة البارعة التي لا تجيدها سوى الامهات . . .




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثالث

البيــت



الفصل الثالث

البيـت

ذلك «الايوان» الذي له سيماء أبي وسجاياه . .

المتصدر بوقار رافعاً قوسه الكبير وناشراً جناحيه اللذين من حجر ايوان البيت ، الذي تسكن تحت سقفه الابيض ذاكرتي : طفولتي ، ومراهقتي ، وشبابي . . ومن دون كل ذلك ، فناء كريم ، منكشف للشمس والسماء . .

لقد تشكلت تلك المهابة من التقاء فراغ بين غرفتين ، ولكي لا يتحرر هذا الفراغ ، ويتسرب هواؤه ، جاء البنّاء ، فرسم قوساً مثل تاج وهمي . . ووضعني وانا في طفولتي في ظل ذاك الانسجام الصوفي . . واضطرني ، ان ارفع رأسي ، الى اقصى حد اطيقه ، لكي اكتشف علاقتي المبهمة ، ببيت ولدت فيه . . ولن اكتشفها حتى بعد ان اتجاوز العشرين . .

كنت وانا في السجن ، احاول جاهداً ، ان استعيد احساسي بتلك الصدفة الرصينة التي اوجدت الايوان ، وهي توزع في البيت ، غرفة هنا وغرفة هناك . . ثم لأن هذا النمط من الحلم ، كان بدائياً ، فلقد كنت اسعد ، سعادة لا استطيع الاعلان عنها ، حين افترض ان الذي بنى بيتنا بدأ بالايوان ، والفناء قبل كل شيئ . . فلقد كان ذاك ابتكاراً شاعرياً يمكن تقدير براعته ، من مجرد التفكير باحتمال ان يفقد ذاك البيت الذي انتمي اليه ايوانه الضروري . .

ولكنهم باعوا البيت وايوانه . . .

وحين اطلق سراحي ، لم يكن ثمة بيت ، استطيع ان اؤمن انه بيتي ، فألجأ اليه . . . وامتلأت روحي بالوحشة . حتى لقد احسست بالحنين الى السجن .

يا للشذوذ . .

اذكر ان الوقت كان ربيعاً وان أمسية هادئة القت بي ، في احد شوارع بغداد العابقة بشذى قداح مبكر ، واذ تذوقت عميقاً وحدتي ، فقد تذرعت بالشعر ، لأحن الى السجن الذي كفاني تشردي :

لاشيئ يا احباب في وطني . .
سوى القداح ،
ازهر مرة اخرى ،
وعاتبني الحنين :



– نسيت ؟

– بل عُميَ الفؤاد اذا نسيتُ ! ! . .

بيتي هناك . .

سكنته خمساً . .

وغربت الرياح .

حملت عنه .

اين يا وطني أبيت ؟

مسّا المسى . .

قلبي غريب الدار في وطني . .

طرقت ديار اهلي . .

ما ارتضيتُ . .

ولا ارتضِيت ! !

لم يكن ثمة جدوى من التشبث بالماضي . . .

كانت والدتي ، في الليلة الاولى من اطلاق سراحي ، منهمكة في انتشالي من تلك الغرفة الصغيرة التي ولدت فيها . . وظلت حتى ساعة متأخرة من الليل تتحدث عن مشاريعنا ، . . . عن غرفة اخرى يمكن ان ننام فيها . . وعن بيوت نستطيع اللجوء اليها مؤقتاً . . . ولقد كان ذلك غريباً جداً . . ولكنه مفهوم بشكل حزين . .

فبقدر ما كانت هي ، وقد شارفت الخمسين ، مجبرة على الانجذاب ، الى الأيام القادمة ، كنت انا ولم أكد اتجاوز الثلاثين ، ازداد انخراطاً في عذوبة الماضي . . . وكانت تلك العذوبة تتخذ هي ايضاً شكل سجن ينبغي لكي استعيد نفسي ، ان يطلق سراحي منه . . .

كنت اصغي الى امي بهدوء ، واجهد في ان افهم الطريقة التي تفكر بها ، حين تنظر الى استسلامي لغرفتها القديمة : لقد مات زوجها . . . وقبل سنوات تزوجت ابنتها . . . ولم يعد ثمة لوجودها سواي . . وهي انما تتوسل بي ، في هذا الهزيع المتأخر لكي احافظ على هذا المعنى . . انني منزلها الأكيد ، اما هذا المنزل الذي جئنا مثل اي غريبين ، لنقضي فيه ليلة واحدة فيمكن بيعه بعد قليل . .

ولقد كنت اجهد في ان التقط مافي موقفها من روح الشعر . . ولكنه لم يكن يصلح لذلك . . فقد اختارت زاوية صعبة ، هي اقرب ما تكون لروح القصة . . وكنت آنذاك بحاجة ماسة الى الشعر . . . وكنت لا افتأ اقول لنفسي : كيف يمكن ان يكون لأنسان مثقال ذرة من الأحساس بالعذوبة ، ولا يتعذب من الهجرة . . والهجران . . .



ذاك البيت ، في «الرابعية» ، بمدينة الموصل ، كان بيتي . . كل يوم . . ولعشرين عاماً واكثر كان البيت يجلس في مكانه ، بانتظاري . . مستعملاً صبره القديم ، ووقاره الحجري : وكان له ، وهو ينتظرني ، ملامح التي ولدتني ، ودهاؤها الانثوي الرؤوم . .
اقرع الباب ، وانتظر . .

ثم اسمع وقع خطى ، وصوت المزلاج . . واتوقع ذاك الصرير الأجش ، الذي يميز باب بيتنا ، حين يدور على مصراعه . . واذ يحتويني الممر شبه المعتم ، تسكن جسدي وروحي طمأنينة ، من الحماية والانتماء ، فأعبر «الحوش البراني» تراقبني نافذتان مغلقتان لغرفتين مهجورتين ، حتى اصل مدخل «الحوش الجواني» والقي بروحي ، الى تلك الالفة ، التي تقدمها عائلة يسيطر عليها تاريخها ، فهي ماتزال تستعمل ذاكرتها وتقاليدها من اجل ان تظل متماسكة . .

سأعبر الفناء واحدس من حولي ابواباً مغلقة ، او مواربة . . وامامي يرتفع ذاك الايوان العتيد ، اشبه بهيكل لكنيسة ، افرغوه من آثاثه . . وقبل ان يأسرني الخواء ، وتحرضني الوحشة ، تجتذبني غرفتي الواقعة على يمين الايوان . . وحين افتح بابها ، اعود فأشم رائحة نفسي . .

لا . . . فحين اصبحت لي في البيت «غرفتي» كان البيت مثلي ، قد تبدل ، ورغم انه ظل جالساً في مكانه ، فقد تغيرت فيه بعض تضاريسه وملامحه . .

اثّر فيه غياب ابي ، كما اثّر في والدتي وجعلها ارملة . .

ولعدة أشهر ظلت الغرفة الصغيرة التي مات فيها مهجورة ومهملة . . ولم تلبث ان حملت الى غرفة الضيوف واختلطت بمكتبة عمي . . والنافورة التي اشغل نفسه ببنائها ، في القبو ، انقطع عنها الماء تماماً . . وحشر فيها الكثير من لوازم البيت الكبير . . وتكسر مرمرها المنحوت بعناية ، فما عادت تثير فضول الاطفال الجدد الذين ولدوا بعد حين . .

كنا ، حين ابتدأ العمل بتلك النافورةالغريبة نتابع بفضول حاد عمل (النقّار) الذي راح ينحت المرمر لأكثر من اسبوعين . . ونراقب بانبهار ، اسرار عامل الأنابيب ، وهو يحوّر انبوب الماء الذي في القبو . . وما كان خيالنا نحن الاطفال ، ليستطيع ان يجمع الصورة ، ويصوغ منها نافورة ، حتى بعد ان جاء ذاك البناء واقام هيكل هذه المعجزة وسط القبو . .

لكن في ظهيرة حارة ، استدعانا ابي . . وبعد ان تناولنا طعام الغداء وانحدر جميع اهل البيت الى القبو ، مدّ ابي يده الى صنبور سري فأنبثق الماء في عدة اقواس ، ثم عاد أمام اعيننا ليصب في حوض النافورة على ملأ من ابتسامة ابي ونظرة عمتي الحولاء وضحكة امي المستسلمة . .



وحرّضنا ابي ، بدافع من خياله الأنيق ان نتخلى نحن الصغار عن ملابسنا ونرمي بأجسادنا في الحوض المرمري تحت الماء . . واذا بدا لنا تحريضه طفولياً ،فقد ارتبنا من طفولتنا .ولوهلة ، بدا لنا ان هذا الساحر الغريب انما يسخر منا . . . وقد آذاه ترددنا في قرارة الطفولة التي احدس انها كانت تسكن فيه . .

وهكذا ، لم نفهم حتى حين سقطت اقواس الماء على اجسادنا العارية لذة الخيال الذي اعتمده هذا الرجل الذي كان في تلك السنوات يقارب الستين من العمر ، وبقينا ازاءه وازاء الماء والمرمر وظهيرة ذاك الصيف متوجسين . . . ربما بسبب ان النافورة كانت تبدو شاذة في ذلك القبو . . . او لأن الماء الصادر عنها كان يتخذ طريقه عبر ساقية مموهة ليصب في تلك البئر السرية ، يستقون منها الماء ، او يدلون بواسطة الحبل المربوط بها والدلو في نهايته ، ما يتبقى عندهم من لحم وخضار ليظل بارداً فلا يصيبه الفساد . .

أُغلقت البئر . . . والنافورة تهدمت . . . ومنذ رأت زوجة اخي الافعى في ذاك القبو ما عاد احد يجد الشجاعة على النوم فيه حين يشتد حر الصيف . .

اذكر ان الوقت كان مساء . . .

كان عمي جالساً في كرسيه المريح عند مدخل الايوان وامي في المطبخ وعمتي الكبيرة واختها واخي وانا . . وفجأة سمعنا صوت كنتنا ، زوجة اخي تصرخ بطريقة جعلت شعر رأسي ينٍدّ من منابته . . .

كان اول من خفّ اليها عمي ، ولحقنا به ، وعند باب القبو ، رأينا زوجة اخي بيضاء مثل شبح تصعد من العتمة ، بحركة يائسة لتخبرنا بشفتين ذابلتين انها رأت افعواناً اسود ذا عينين فضيتين !

اشاعت هذه المرأة الغريبة في الأمسية غدراً شاذاً بيننا . كانت على غير وعي منها ، تتهم بيتنا في طمأنينته.. وتسلب معرفتنا به وبتاريخه ، كل ما ورثناه من إلفة وسلام . . ولهذا اختار عمي عصا كبيرة وانحدر الى القبو ونحن نتبعه ، وراح يفتش عن الثعبان ، ليس بقصد ان يقضي عليه — هذا ما ادركه الآن جيداً — بل ليدحض هذه التهمة المقلقة التي اخترعتها امرأة هي رغم كل شيئ غريبة ومعادية وغير مجربة . .

رأينا في القبو مئات من الافاعي الوهمية . . كل منا اخترع افعواناً وتركه يتسلل من خوفه ويختفي خلف الاواني الفخارية ، وفي شقوق الرخام وفتحة البئر . اما الافعوان الأسود الذي رأته زوجة أخي وهي ما تزال بعد عروساً —فلم نقع له على اثر ، حتى في السرداب العفن المتصل بالقبو . .

قالت عمتي الصغيرة : ما من افعى في هذا البيت . وكنتنا توهمت . . . ان العروس دائماً



تتخيل افاعي وهمية من اجل الدلال . .

وردت عليها عمتي الكبيرة ، وهي تحدق فيها بعينها الحولاء : بل هي على حق . . في السرداب افعى . . وهي «حية البيت» . . انا رأيتها عدة مرات . . ولم تكن سوداء . . بل بيضاء مرقطة . . ما من حية سوداء تسكن البيوت . .

كانتا تتحدثان في المطبخ الذي يقع في زاوية البيت مقابل القبو ، وكنت اصغي الى حديثهما وانا موقن انهما لن تتفقا على رأي . . وفي اعماقي ، كنت اصدق عمتي الكبيرة الحولاء ، واعرف انها لا تكذب ابداً . . . ولهذا ما ان انفردت بها حتى وضعت رأسي في حضنها وشممت ملابسها وقلت لها انني خائف من هذه الحية – «حية البيت . . . . .» .

كانت يدها الثقيلة ، وانا ابوح لها بخوفي تسكن فوق رأسي وحين سمعتني امسكت بشعري بدعابة وقالت لي : «وي . . . وي . . . اي رجل انت ؟ . . .» ثم اضافت بعد قليل «لا تخف منها . . هذه حية البيت . . انها ملاكه الحارس ، وقد اتخذ شكل افعى ليخيف الجرذان واللصوص والغرباء . . اما انت ، فاذا صادف ورأيتها ذات يوم . فافتح كفك هكذا . . وقل لها : (يا حية البيت . . لا تؤذينا ولا نؤذيك . . انت صاحبة البيت . . ونحن خطارك ! !)» .

وقد حفظت هذا الشعر الاسطوري كما احفظ صلاة . . . ورددته مئات المرات ، حذر ان انساه ، كنت اردده بمناسبة او بدون مناسبة . وحين كبرت وما عدت استخدمه الا للحنين ، اصبحت اتساءل . ترى من اي جيل ، انحدرت هذه التميمة تُعلّمها الأم لأولادها ، ويتوارثونها مثل وصية ؟

كان بيتاً جميلاً . . .

اول جماله ، سعته وضخامته ، وتشعبه ، واستيلاؤه المهيب على الجوار . .

يصل القادم اليه من اية جهة اراد . .

يمكن ان يأتي اليه من يمينه ، عبر تلك القنطرة الرهيبة العائدة لـ (بيت الأغا) . . . او من الزقاق الضيق القادم من الشارع العام . . او من الزقاق الذي يؤدي الى الكنيسة . . واخيراً . . يستطيع ان يفد الينا ، من زقاق المدرسة . . وسيجده في مكانه ، مهيباً ، مغسول العتبة مغلق الباب منطوياً داخل جدرانه العالية وقسميه المتغطرسين ، علينا وعلى اسرارنا ورائحة عشائنا . .

لسنوات ظل اجمل البيوت . . بحيث لم يخطر لي يوماً ان اتمنى سواه ، ولا خطر لي انني استطيع ان آنس الى غيره . . حتى ولو كان قصر الأمير ، وبلاط الملك . . . ولقد كنت اعرفه جيداً ، لأنني اكتشفته بعيني وقلبي واصابعي ، على مهل ، كمن يكتشف جسده واسرار احشائه . . .

وبقدر ما كان أليفاً ، كان ثمة فيه وفي الفته بالذات تلك الغرابة التي تمتلكها الأساطير . .



حتى لكأنه بيت قصة او حكاية لم تنته بعد . . . سطوحه الخمسة تتوزع على ساحات متباينة وارتفاعات مختلفة ، وتتصل بممرات سرية واواصر مبهمة . . . سراديبه المعتمة . . . وتلك العليّة المتصلة بغرفة الضيوف . . والأقبية الغريبة التي تحفظ فيها الحنطة واللوازم القديمة . . .

وبين كل تلك الغرائب ، كان «السطح العالي» الذي يتوّج غرفة عمي ، وهي اعلى غرفة في البيت ، يشكل في خيالنا نحن الصغار اغراءً مستديماً . . بسبب من كونه سطحاً مهجوراً ، ليس من السهل الوصول اليه . . فقد تهدم سلمه الحجري ، وتداعت احجاره ، فصار مغامرة شاخصة ، تصدر الينا نداءاتها الحادة . .

فمن فوق هذا المرتفع الذي يشبه قمة ، يمكن ان يشرف المرء على الجوار ، ويرى الى امتداد المدينة وكأنه يكتشفها للمرة الاولى . . ويطل على السطوح الواطئة ، مستبيحاً خباياها واسرارها وفضائحها . .

كنت آخذ معي صديقاً . . واتسلل في ظهيرة صيف حار وانا ممتلئ بالخوف والترقب ، فقد كان خيالي لا يفتأ يقدم لي وعوداً ، عن مفاجآت سيقدمها هذا السطح . . اسرار . . ولُقى . . لم اوفق اليها يوماً ما .

ونصل الى السطح متلصصين بعد جهد . . ويطالعنا اديمه الشاذ ، بأعشاب احرقتها الشمس ، اشبه ما تكون ، بشعر متيبس على جمجمة قديمة . . ونروح نبحث بلهفة . . بين الشقوق ، وتحت الاعشاب اليابسة ، والاشنات المحترقة . . وقد نعثر يا للغرابة على مشط قديم . . او عظم معروق ، تركته قطة جائعة . . او على جثة عصفور . .

ونتعب من انفعالنا . . ومن وطأ شمس الصيف على جباهنا . . ونستروح وقع الهواء على اجسامنا المتعرقة ووجوهنا الملوحة . . وبالفضول المتبقي نروح نتطلع الى السطوح الواقعة دوننا ، نفتش بعيون متعطشة عن مفاجأة ، تكون امتيازنا الجديد . . مفاجأة من نوع ما تعودناه من سلوك وديع المجنون في غرفته المهجورة .

. . رأينا مريم الغسالة تنشر الملابس في السطح المجاور . . وخطر لنا ان نداعبها ، بأن نضربها بالحجارة ، ونخفي انفسنا . . . وحين اردنا ان ننفذ دعابتنا ، رأينا عبدالله ابو سامي يظهر في السطح ، ثم يتطلع حواليه ، واذ خفنا ان يقع بصره علينا فيشكونا الى اهلنا ، فقد اخفينا رؤوسنا خلف الحاجز الحجري ، ورحنا نتلصص :

كان عبدالله يتحدث الى الغسالة ، ثم اقترب منها ، فدفعته وسمعت صاحبي يهمس : «سيضربها» . . ولكنه لم يضربها . . ظل متشبثاً بها رويداً . . ثم قادها بصعوبة الى جانب من السطح وسمعنا باب الغرفة المصنوع من الصفيح ينفتح . . ولم نعد نرى شيئاً . . وبقينا في مكاننا . لم نكن نفهم ما يجري . ولكننا كنا نحدس ، ان امراً غريباً يحدث ، واننا شهود عليه . .



لم يطل الامر بنا . . فجأة رأينا مريم الغسالة تركض ، شعثاء الشعر . . وظهر عبدالله فاقترب منها و بصق عليها وقال شيئاً لم نسمعه ، ثم انصرف عنها واختفى . . فقدرنا انه انحدر الى الاسفل ولم تلبث هي ان تبعته . .

ثم يجئ الصيف . . ويبدأ موسم السطوح . . ويزدهر سطحنا الكبير الممتد فوق الايوان وغرفتنا والغرفة الكبيرة . . . وتتوزع التخوت والأسرة ، على امتداد كاف ، تفصل بينها حواجز وهمية ، وتصفو السماء بنجومها المتألقة . . وتقول لي عمتي الحولاء : (حذار ان تعد النجوم او يمتلئ وجهك بالثآليل . .) وتريني امي «بنات نعش» . . وارنو بعذاب الى ابن «نوح» الاعرج ، الذي لا يكاد يلحق بأخوته . . ويتقدم الليل ، وافكر بالغرف التي تركناها في الأسفل ، معتمة ، موحشة . . . وابواب السراديب المغلقة . . . واشباح اللصوص التي لها اقدام لحمية . . واحتمي بأحساسي من الغرابة ، بأن اتطلع الى اهلي وقد استلقوا جميعاً على اسرتهم ، و برائحة الفاكهة المنشورة تحت برد الليل والعشاء الذي ينتظر عودة أبي من سمره في بيت اختي الكبيرة المجاور لبيتنا . . وبالاصوات المبهمة التي تتناهى من بيوت الجيران . . واذ احس النعاس ، انتفض خائفاً ان اغفو قبل ان اقول صلاة النوم ، تلك الصلاة الخاصة التي تعلمناها لنقولها تحت سماء الصيف بهمس حميم واستسلام رصين :

«احط يدي تحت رأسي . . . سبع صلبان . . فوق رأسي العذراء . . تشفع لخلاصي . . . يسوع ، بيمينه . . فتح . . انجيله . . . وصاح بصوت عال . . . طاف على الجبال . . . . .»

هكذا تعلمت صلاة النوم . . يد تحت رأسي وفوقع سبع صلبان . . ومن فوق كل ذلك هذه السماء الرهيبة ، «وبنات نعش» والولد الاعرج ، خلف تابوت ابيه ، يسعى متعباً حتى يطلع الصبح . .

كان اجمل البيوت . .

وما كنت اعي انه عندما اكبر كفيل بأن يفقد براءته في روحي ، فاكتشف الفرق بين حقيقة ان يكون البيت بيتك او لا يكون . . . فستأتي سنة اكون فيها مجبراً على ان ادرك ان هذا البيت الذي احب هو بيت عمي واخي الكبير . . كان مناصفة بين ابي وعمي ، ثم اعطى ابي حصته لابنه البكر . . وحين اكتشفت ذلك ، خفت ان تدمع عيناي ، ليس لأن ابي لم يمنحني قبل موته حصة في هذا البيت الذي ولدت فيه بل لأنني كنت حتى اكتشفت هذه الحقيقة مخدوعاً ، فأحببت بيتاً هو في النهاية ليس بيتي . . ومنذ ذلك الحين ، بدأت انظر الى البيت بطريقة جديدة ومن عجب انه زاد في عيني جمالاً واشتد احساسي بانتمائي اليه . .

صار لكل جزء منه معنى خاص ، ولكل غرفة فيه تاريخ حزين . . واحسست مقدماً رغم



هذا بأنني اوشك ان اغترب عنه قريباً . . وانني حين اغادره فلن اعود اليه . كما كنت اعود من قبل . . بل بدا لي لوهلة انني قد ابحث عنه ذات يوم ، فلا اجده . .

امس . .
رجعت الى بيتي . .
لكني لم اجد البيت مكانه . .
وتعجبت :
تراني اخطأت الحارة والشارعَ . .
كيف يضيّع انسان مثلي ، بيته ،
او يخطئ جيرانه . . ؟
اطرقت . .
ولم اسأل احداً . .
يجدر ان انسحب الآنَ . .
واكتم احزاني
واروح افتش في وطني ،
عن بيت ثاني ! !
(١٩٨٠)

وآه من البيوت «الثانية» لمن احب مثلي بيته الاول . . . ولمن فوجئ مثلي في حبه لبيته الاول ، ذلك الحب الذي بلا مقابل ، والمكتفي بتاريخه بحيث يغدو البيت وطناً ومدينة . .

كنت حين حملت عنه ، في المرة الاولى افكر بعلاقتي بأمي ، واظل اقول لنفسي ، ما من قوة تستطيع ان تلغي هذه العلاقة ، او تتجاوز تأريخها وجدارتها . . . واذا كان ممكناً ان يباع البيت الذي ولدت فيه ، فهذا يعني ان ثمة قوة ، تستطيع ان تبيع امي نفسها ، لتغدو ملك سواي . .

أجل . . فلقد كان انتمائي للبيت ، يتأكد بمعنى الامومة والولادة . ولقد كان ذاك البيت يستمد من اهلي قوته ، فهو جميل بهم . . وبدونهم يغدو حجارة . . ولقد كان ذلك واضحاً من اول حادثة موت جرت فيه . . يوم ماتت عمتي . . فلقد احسست ، بشكل مبهم ، ان شيئاً مات في البيت . . وان تغيراً لا يكاد يلحظ حدث فيه ، هناك بالذات ، حيث كانت تنام . . او حيث اعتادت ان تجلس . . ثم جاء موت ابي ، فجلا الحقيقة الحزينة . . اذ لم يمض على موته بضعة ايام ، حتى رأيت البيت ، يغير تضاريسه ويفقد بعض خواصه . .

وفي غربتي ، كنت افكر مشفقاً ، انني حين سأعود ، سأكون مجبراً على قبول الكثير من



علامات النبي في المنزل الذي خلقت فيه . . وان ذلك سيكون مؤلماً الى حد بعيد ، بحيث خيل لي ، ان من الاصلح الا اعود . . لولا ان معنى البيت الاول ، ظل اقوى من المي . . فما تزال لي في هذا البيت غرفة موصودة . . وسرير جديد من خشب الصاج . . ومكتبة واوراق سرية . . ورسالة غرام . . وفوق ذلك كله كان لي فيه امي ، التي هي علة ولادتي . . ومدينتي التي بقيت اسميها «مدللة» وذات خلاخيل . . .

مدينة . . .
اعرف دارنا بها . .
وهل اعز في القلوب . . مثل الدار ؟
من عطفة تميل عند الباب ،
او حجارة تنبو من الجدار ؟
مما كتبناه على جدرانها . .
كعادة الصغار . . ؟
اغمض عيني . .
انا ، ادق بابها . .
احس مصباح الطريق فوق هامتي
ووقع خطوك الحنون خلف الباب
يا اماه . .
وتمتماتك الخضراء بالصلاه . . .

(١٩٦١)

ثم حل عام ١٩٦٨

كنت ليلة العام الجديد ، في سرداب ، يُعرف بـ «موقف شرطة باب الشط» ، انتظر اطلاق سراحي بعد خمسة اعوام من الاعتقال . وكان معي معتقلان احدهما رجل بدوي في الخمسين متهم بالتهريب ، والثاني من كركوك متهم بسلوكه ! واذ كانت الساعة تقترب من منتصف الليل ، كانت افكاري تحملني الى بيتنا الذي اعرف انه لا يبعد عن مكان اعتقالي ، سوى مسافة قصيرة مستذكراً تلك الساعات الباذخة التي اعتدنا العيش فيها ، في ذاك المنزل ليلة العام الجديد .

منذ يومين ، تدبر ابي شجرة الميلاد .
وقبل ساعات ، انتظمت هذه العروس ،
في الغرفة الكبيرة ، بأضوائها



وهداياها . . وفي الفناء اقيمت حزمة من
الشوك ، كانت عمتي الكبيرة قد اشترتها
بعشرة فلوس ، من احدى القرويات . . .
والبيت مغسول منذ الظهيرة . . ومواقد الفحم مهيأة ، يلتمع فيها الفحم
المشتعل ، مثل فاكهة غريبة . . وفي
المطبخ يُعد قدر كبير من الشلغم الحلو
والشوندر ، طقس ليلة العام الجديد .

وعند المساء تجتمع العائلة كلها ،
ويأتي عدد من القسس والشمامسة ،
ويكون في استقبالهم عمي ووالدي وتبدأ
الصلوات وتشتعل حزمة الشوك في الفناء
استذكاراً لتلك الليلة الباردة التي ولد فيها
المسيح . . . واذ تنتهي الصلوات ، يعود
الجميع الى الغرفة الكبيرة وتقدم الحلوى
رويداً ، ثم ينسحب القس والشمامسة
وتبقى العائلة وحدها ، سعيدة مرحة
بانتظار ساعة يبدأ العام الجديد . .

ولكنني كنت ادرك ان بيتنا ، ما كان ليستطيع ، حتى لو اطلق سراحي ، في تلك الساعة المتأخرة ليلة العام الجديد ، أن يهبني ، سوى المزيد من الاحساس بالغربة والنفي . . . فقد هجره اهله ، منذ سبع سنوات ولأكثر من ثلاث سنين ظل مغلقاً على الوحشة . . . غرفة خاوية ، وسطوحه مهجورة . . وآثاثه المتبقي مبعثر . . عدا غرفتي التي اصرت أمي على ان تبقى فيها كل ما كنت قد تركته : سريري . . ومكتبي ، واوراقي . . وملابسي وذكرياتي . . . ثم منذ عامين ، ولكي لا يبقى هذا المنزل مهجوراً تتداعى غرفه وجدرانه . . . جرى تأجيره لعائلة فقيرة بثمن بخس . .

مالذي يمكن ان يهبه لي التفكير في بيتنا المدنف ؟

تخيلت الايوان ، الذي كنت ارى فيه سيماء ابي ، وبدا لي مثل جثة . . وتمثلت تلك الغرفة الكبيرة المتغطرسة ، وقد خلت من تخوتها وسجادها . . ورفعت الصور العريقة ، واستبيحت الخزانات السبع المحفورة في الجدران ؟ . .

كيف تبدو غرفة الضيوف بعد ان رفعوا منها مكتبة عمي ، ذاك الكاهن الأمير الذي مات ،



بعد الهجرة بقليل . . وماذا حل بغرفته البتول ، التي ظلت متوحدة هناك ، اعلى البيت ، منطوية على كهنوته الوسيم واسراره الشعرية ؟ . .

ولوهلة بدالي ، أنه ما من مكان يجذبني ، وقد آن موعد اطلاق سراحي ، وبدا «السجن احب الي . .» . . فخلال خمس سنوات ، تداعي ذاك العالم الذي كنت اعيش فيه وعاد فتشكل دوني . فاذا غادرت السجن فليس ثمة من مكان أقصده أو أتوجه اليه . . .

ثم في ذاك الصباح . الذي كان علي فيه ، أن اصعد من السرداب ، حاملاً بضاعة سجني ، كمن يبعث من الموت . . اكتشفت بطفولة ، أن الشيئ الوحيد الذي تبقى من منزل عشت فيه هو وجود ، تلك المرأة التي ولدتني . . .

كانت لدى باب المعتقل بانتظاري فاتحة أبواب قصرها العتيق ، عينيها الحزينتين . . .

كنت مشعث الضمير والروح ، مرتبكاً من الضوء والحرية ضائعاً . لا اعرف كيف استعمل قدميّ . وقد أدركت امي ذلك بمجرد سذاجتها فاخذت بيدي ونحن نجتاز ذاك الممر . . بالطريقة نفسها التي سبق وقادتني بها الى مدرسة الراهبات وأنا ابن خمس سنين . . .

وقطعنا الطريق . من سرداب باب الشط حتى بيتنا . . . وحين دخلت اليه فوجئت بان المنزل ، لم يتبدل كثيراً . . . كان كل شيئ في مكانه . . الغرف والنوافذ . . والابواب . . والفناء الكبير ، وشمس الشتاء الجديد . . .

واستقبلني اناس بسطاء ، لا اعرفهم ، كانوا يتطلعون الي بنوع من الخوف والفضول والحياء ، لانهم لم يكونوا قادرين على أن يصدقوا حالتي ، وقادوني ، الى الغرفة الكبيرة ، واعدوا لي فطوراً نظيفاً . . . حين تذوقته ، عرفت مذاق غربتي . . .

كان هؤلاء المؤجرون الطيبون . يشكلون أثاثاً شاذاً في قصر باذخ . . وكانوا يدركون ذلك ، ويجهدون من أجل أن يعطوا الانسجام المطلوب في وجودهم الذي جرى ترتيبه داخل البيت على عجل . . .

اما أنا فرحت اتحاشاهم . ما كنت لا ستطيع اعتياد الخلل الذي سببوه لذاكرة . صيغت على مهل ، وما كنت املك أن اعترض ، فتلك الخزانات المحفورة على الحائط في الغرفة الكبيرة والتي كانت تشكل كل واحدة منها ، مستعمرة لابي ، وعمتي اصبحت تضم لوازم فجة من ادوات الطعام . والكتب المدرسية للبنت الكبيرة التي في الصف الثالث المتوسط . . .

ماذا فعلت امي بلوازم التصوير . أبي قد خلفها في تلك الخزانة عند الزواية ؟ اين الاعداد المرتبة من مجلات قديمة . . الرسالة . . والمجلة . . المسرة . . ولغة العرب ؟ . . اين صندوق العرس الذي كان قرب الباب . اين ؟

في النافذة المطلة على الايوان ، كان ثمة «راديو» كبير لم تستطيع الفئران التي تعيش فيه أن



تعطله عن العمل . .

وفي كل مساء . كان أبي . يجلس قبالة ذاك الراديو . ويروح يتابع بأهتمام بالغ «اخبار النازي» . كان يجعل صوت المذيع واطئاً الى اكبر حد ممكن ، حذر أن يكتشف أحد ، أنه يفتح اذاعة برلين . . حتى اذا انتهت نشرة الاخبار ، خرج الى الفناء ، وراح يحدث عمي ، أو بعض الزوار المؤتمنين . بما سمعه من انتصارات هتلر . .

وفي اعماقي . كنت اتعجب لاهتمام أبي بهذا الرجل الذي رأيت صورته ، ولم أجد فيها أي مسحة من القداسة . . . وما كنت لاصدق . أن أبي يمكن أن يحب أو يهتم بسوى القديسين . . .

ظل ذاك الراديو يقدم خدماته . . .

ثم حين بدأ هتلر يندحر ، عافت روح ابي متابعة الاخبار . . ورويداً رويداً بدأ يهمل الراديو . . حتى جاء وقت صارت تلك الآلة الغريبة تحت رحمتنا نحن الاطفال ، ورحمة الفئران . . وما ان قاربت الحرب العالمية على نهايتها ، حتى كان ذاك الراديو سيئ الحظ قد كف عن العمل . . وجاء يوم حملنا جثته فيه الى العلية ، كما حملنا من قبل العديد من اللوازم الميتة . . . حتى جثة الارغن العزيز . .

جاء الليل وأوينا انا وولدتي الى «غرفتي» . . في البيت المهجور – الغرفة الصغيرة على جانب الايوان . .

السرير والمكتب ، الراديو ، الكرامافون والكتب . . مما كنت قد ابتعته جديداً ، بعد ان اصبح لي راتب شهري . واستقلال مادي جميل . .

تنسمت الهواء القديم في الغرفة الموصدة وتفقدت عدة الرسم في الخزانة واللوحة التي كنت منهمكاً في رسمها ، والتخطيطات التي انجزتها على عجل . . ورأيت صورة عبد الكريم قاسم وقد اخفتها امي تحت السرير . .

افتقدت الكثير من كتبي . . وكنت اعرف ، ان امي بعد اعتقالي جاءت بمعلمة من اقاربنا واوكلت اليها ان تحرق كل الكتب التي تراها محرّمة . . فأدت المعلمة مهمتها على قدر ما كانت تملك من ذكاء وطيبة . . اتلفت مجموعة من الكتب عن اعلام الموسيقى ، لأنها وجدت فيها اسماء من نوع «كورساكوف» و «جايكوفسكي» واحتفظت لنفسها بالكتب السرية التي تتناول قضايا العلاقة بين الرجل والمرأة . . والقصص الغرامية . .

وعلى مكتبي الأنيق وجدت اوراقي القديمة . . محاولات شعرية . . ورسائل . . وقصص كلها يذكر بذاك الانسان الذي كنته عام ١٩٥٨ . . وفي ادراج مكتبي عثرت على رزمة تحتوي رسائل (ميم) وصورها وهداياها . . واوراق حزبية . . وآخر الرسائل التي بعثت بها (س) من



البصرة قبيل زواجها . . ومسودة الرسالة الاخيرة التي بعثت بها اليها . .

كانت تلك بعض كنوزي . التي شغلني التفكير بها وانا في السجن مشفقاً من ان تقع بيد احد ، او ان تكون المعلمة قد احرقتها . . او اطلعت عليها . .

تمددت على سريري . . وتطلعت الى صورة «يوسف النجار» . . وبدا لي انه ازداد شيخوخة عما كان عليه قبل سنوات . . بدا لي انه مغدور مثلي بحسن نواياه ، ومهدم امام فداحة المعجزة التي تعرضت لها خطيبته العذراء . حين وجدها حبلى من روح القدس . .

كنت وانا مستلق على سريري . اتحسس عيني والدتي ، وهما تراقبان وحيدها ، الذي اخذوه منها خمس سنوات ثقيلات . . وانا واثق ، انها ضيقة النفس ، بصمتي ، وبالبريق الكابي في عيني المتعبتين . . تود ان اتحدث اليها . . ان اقول لها شيئاً يبرهن لها انني ما زلت بخير . . وقد كنت بخير . . لكنني لم اكن اجد الكلمات التي تصلح للتعبير عن ذلك ، ولا الاسلوب الذي يمكن ان افهمها من خلاله . انني بحاجة الى الصمت لأتدبر انفعالي ، في اليوم الاول من اطلاق سراحي . . . على الاقل . ان اتدبر احتمال المفارقة التي جعلت العالم الذي نشأت فيه يتبدل ، الى هذا الحد خلال خمس سنوات . . وابرز صورة لذلك : هذا البيت الغريب الذي يحيط بي . . . ثم هذه الغرفة الاليفة الى حد يثير الريبة . .

ضحى كل جمعة ، كان يتوافد عدد
من الاصدقاء . . (ضرار) وهو يحمل
لوحاته الجديدة . . و (شاكر) الذي
يهمس بآخر اخبار الحزب ، او يدس
تحت السرير العدد الاخير من الجريدة
و (شاذل) . . و(سالم) . . و(هاشم)
وما كتبوه من قصائد ، او اعدوه من
مقالات . . . وأحاديث هامسة عن
(الحكومة) . . وحكايات عن كتاب
جديد . . . او قصيدة نشرت لشاعر
كبير . . . ومجلة مصرية ، تسربت
خلسة . . . او كتاب ممنوع باعه «عبدالرحمن» صاحب المكتبة في شارع «النجفي» .

كان زمناً سعيداً . . وكانت هذه الغرفة التي تحولت حديثاً لتصبح غرفتي ، عالماً حاراً وبريئاً وكثير المواعيد . . وقبل ان تقترب الظهيرة نقوم جميعاً فنذهب الى المقهى . . . ذاك المقهى الحميم المعلق في الشارع العام بين «الساعة» وشارع «النجفي» .

بعد اطلاق سراحي بقليل تجاسر من تبقى من اهلي على بيع البيت . . باعوه بثمن بخس . . ذاك القصر الذي ابتاعه ابي وعمي قبل اكثر من نصف قرن من عائلة عريقة ، كان عميدها «مبعوثان» المسيحيين الى الاستانة لدى «الباب العالي» كان ابي انساناً «تعجبه روحه» . . ولقد اغراه هذا القصر المطل على محلة الرابعية فابتاعه ، بعد ان تهدمت عائلة «المبعوثان» ومات اثنان من شبابها بمرض «السل» الوبيل . . فلوثا سمعة القصر . فصار وكأنه مسكون بالشؤم والارواح الشريرة . . كان قصراً قديماً . .

فعلى الايوان كتابة تقول انه جدد في منتصف عام ١٨٨٤ وبالطموح والمحبة تجدد البيت مرة اخرى . .

وفيه ولد جيلان طيبان . . واستعيدت الطقوس وحورت من اجل ان يكون للفرح والسعادة طعم جديد . .

ولكن البيوت تشيخ على قدر ما يشيخ الطموح في روح اصحابها . .

او لعلها تضيق . . . او تضطرب . .

ان البيوت كائنات اجتماعية تتعرض لوطأة المناخ ، والتغيير والمحبة والكراهية وبينها بيوت يأكلها الدود . . . وبيوت تنتحر لغير ما سبب ظاهر . .

ولقد كان على البيت الذي احببت ان يتخلى عن مهمته . ما كانت تكفيه محبتي لوحدها . . ان ذلك يحتاج الى قدر كبير من الرهافة ومحبة الشعر . . هذا الشعر الذي يحول المنازل الى كائنات يمكن التواصل معها واتمام فصل الخصب والمحبة .

ثمة دائماً حاجة جادة الى بيت جديد . . . الى زمن جديد . . والى حبيبة جديدة . . . ذلك ما يجعل مهمة الشعر قاسية . . . ثم وفي الوقت نفسه مليئة بالحياة والجمال . .

وماداموا قد باعوا البيت . . فأنه لمن الضروري البحث عن بين جديد . . ، وعن مدينة جديدة . . . وجيران جدد . . . وعادات جديدة . .

ولن تضير في هذا السياق الحزين ، قصيدة اخرى يقولها الشاعر في رثاء جسده الذي جرى بيعه بثمن بخس . . ان قصائد من هذا النوع تحرر الحجارة من علاقاتها . . وبها – هذي التي اسهمت في بناء بيت قديم – يمكن بناء العالم لاطفال لم يولدوا بعد . . او اطفال ولدوا قبل قليل . . .



الفصل الرابع

ماري لويز




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الرابع
ماري لويز

يا عيني . . . وسنأخذه الى الـ (آزيل) . .
يا عيني . . . وسيلعب مع الاولاد ، ويتعلم الصلوات والاناشيد . . .
يا عيني . . . وستعطيه الاخت «ماري لويز» الحلوى . . والهدايا . . .
يا عيني . . ويا عيني .

. . وأنا اصغي الى أمي وأختي ، بريبة ، وهما تزينان لي هذه الجنة التي تريدان دفعي اليها . ولقد افرطتا في ذلك ، الى حد ، أنني خفت مقدماً مما تبيتانه لي . . فقد علمتني تجربتي الصغيرة ، أن أشك في كل أمر ، يفرط اهلي في امتداحه . . .

في صباح ذاك اليوم . ملأت أمي جيوبي بالحلوى ، والبستني أجمل ملابسي ، تلك التي كنت قد دشنتها في العيد ، ومشطت لي شعري بعناية ، أما أنا ، فلكي امتحن ريبتي ، زدت ، فطلبت أن تعطي لي أختي ، الحقيبة الجلدية التي تحمل بها كتبها . وحين رأيت أمي تغمز لاختي ، بأن تطاوعني ، ووجدت اختي تستجيب ، بأبتسامة ماكرة ، تيقنت بأنهما تأخذانني الى مصيدة ! ! وكان عليَّ ازاء ذلك أن اتمرد . . ولكنني لم أفعل . . .

لماذا ؟

ربما لأن اغراء اللعب مع الاولاد . . وتلك الحلوى التي حشت امي بها جيوبي . . والهدايا التي قيل أن «ماري لويز» ستعطيها لي . . كل ذلك ، كان يخفف من قلقي ، ويسلبني قدرتي على العصيان . . .

* الى أين ؟
نأخذه الى الآزيل . . .
وابتسمت المرأة لي في الطريق . . وقالت :
-حبّاب ! . . .

ظلت أمي ممسكة بيدي ، ونحن نسلك الطريق الى مدرسة الراهبات ، التي تقع عبر الشارع العام ، هناك ، حيث تذهب اختي كل يوم ، وحيث تعمل خالتي الراهبة . . دخلنا المدرسة ، واستقبلنا ضجيج الطالبات ، وهن في الساحة الكبيرة ، ثم اخترقنا الساحة الى مدخل صغير ، عبرناه الى فناء ضيق تتوسطه شجرة توت عجوز ، وعلى ارض غير مرصوفة سرنا قليلاً ، حتى



وصلنا الى مدخل ، تلك القاعة الغريبة ، التي سيكون عليّ منذ الان فصاعداً ، أن اعيش تحت سقفها ، يومياً من الصباح ، حتى الظهر . .

دخلنا القاعة ، وما تزال أمي ممسكة بيدي ، واستوعبت بذهول ، راهبة تجلس وسط القاعة ، على كرسي كبير ، وامامها ، على مدرجات خشبية ، يقبع عشرات الاطفال ، يرددون ، ما تقوله ، مقطعاً مقطعاً ، بأصوات مرتفعة حادة . .

– كما في السماء . . كما في السماء . .

كذلك على الارض . . . كذلك على الارض . .

اعطنا خبزنا . . . . . خبزنا . . .

كفافنا اليوم . . . . . اليوم . . .

واغفر لنا . . . . . لنا . . .

خطايانا . . . . . يانا . . .

كما نحن . . . . . . نحن . . .

أيضاً نغفر . . . نغفر . . .

لمن اخطأ الينا . . . . . الينا . . .

ولا تدخلنا . . . خلنا . . .

في التجربة . . . ربة . . .

تقدمت أمي من الراهبة ، التي لم البث أن عرفت أنها ، الاخت «ماري لويز» ، وحين رأتنا هذه ، سكتت عن اتمام «الصلاة الربانية» . فانقطع الاطفال عن الزعيق ، وخيم على القاعة صمت غريب ، كان الاطفال ، خلاله ، يتطلعون الينا ، بعيون ، كعيون الارانب المدجنة . .

شعرت بكف أمي على كتفي ، تدفعني بأتجاه الراهبة ، فاقتربت منها وأمسكت بيدها الباردة ، وانحنيت ، فقبلت ظاهر كفها ، كما اعتدت أن أفعل حين تأتي خالتي لزيارتنا ، واذاك ، اخذتني المرأة ، الى حضنها ، وغمرتني بجلبابها الابيض ، وسرعان ، ماتنشقت الرائحة نفسها ، التي كانت تنبعث عن كيان خالتي ، ولوهلة ، ساد روحي ، سكون حبيب ، حتى لقد شعرت بما يشبه النعاس . ولكن الراهبة ، ابعدتني عن حضنها فجأة ، ورفعت رأسي اليها ، فصار وجهي تحت وجهها مباشرة ، وعن كثب ، وأنا في عمق انفعالي ، رحت احدق في ملامحها القريبة : الانف الصغير . . والفم المنطبق على مرارة ، والتؤلولة الكبيرة على جانب انفها ، وقد نبتت فيها شعرة سوداء . . وكنت أقول لنفسي ، أنها لا تشبه خالتي . . . بل هي قديسة غريبة ، كانت ميتة ، وبعثت الى الحياة ، فحملوها من المقبرة مباشرة ، ووضعوها في هذه القاعة الرهيبة ، واذ كنت اردد ذلك في اعماقي ، فقد انتابني خوف شديد ، وشعرت بحاجة



مفاجئة الى البكاء . . .

تطلعت الى أمي ، فبدالي أنها قد تخلت عني تماماً ، وأنها مثلي ، اصبحت ، لسبب غير واضح ، خاضعة لوجود هذه الراهبة الغريبة وخيل لي ، أنها فهمت معاناتي ، وأنها ما كانت تملك ازاء ذلك ، أن تعطيني ، كما في كل مرة ، سوى ابتسامتها الحنون ، وحزنها الامومي الضعيف . . .

وكأنما فهمت «ماري لويز» ، هذا الذي يجري ، بين الطفل وامه ، وحدست أنني موشك على البكاء . فمدت يدها الى جانب جلبابها الأبيض ، واغرقتها ، رويداً ، خلل تلك الطيات العجيبة ، وأخرجت لي ، كما يفعل الحواة ، قطعة حلوى كبيرة ، ملفوفة بغلاف فضي ، ومشدودة بشريط أحمر . .

ولم يعد ثمة مجال للبكاء . .

فقد كانت شراهتي الطفولية ، وفضولي ، وضعفي المهين امام الهدايا ، . . . كان كل ذلك طاغياً ولا تمكن مقاومته . وهكذا ، بدلاً عن أن أبكي ، انحنيت من جديد ، وأنا أخذ الحلوى ، وقبلت يد «ماري لويز» ، بمداجاة اصيلة معلناً بذلك هدنة مهينة فهمتها الراهبة ، على حقيقتها ، فأبتسمت ، راضية عن نفسها ، ونظرت الى أمي ، تطمنّها ، وتأمرها ، بالانسحاب . .

منذ تلك الساعة ، صار لزاماً عليّ ، أن اذهب يومياً الى «الازيل» . . . وما «الآزيل» ؟ . . .

حتى قبل بضعة أيام ، وبعد مرور اكثر من اربعين عاماً على تلك الاحداث ، كان يخيل لي أن كلمة «آزيل» ، هي كلمة اجنبية ، تعني ، بشكل ما ، الروضة ، أو المدرسة . . . ثم خطر لي أن اسأل كاتبة تعرف الفرنسية عن معنى الكلمة ، فقالت لي ، أنها كلمة فرنسية حقاً ، تعني «المنفى» أو مايشبه ذلك ! !

– الى أين ؟

– الى المنفى ! ؟

ياعيني . . يا عيني . .

وماري لويز ، جالسة ، في المنفى ، على كرسيها الكبير ، ذي المساند العريضة ، وقد وسعها تماماً ، سوى ما يتدلى على جانبيه من فضلة جلبابها وازارها الاسود . . . و «الآزيل» عامر الكيان ، بمدّرجه الخشبي ، والاطفال ، والصلوات ، والحاجة المفاجئة إلى التبول . .

كان يرفع يده الصغيرة ، وصوته ، مستنجداً ، بصراحة ووضوح أنه يريد أن يبول . . وكان يكرر نداءه الحزين ، لحظة بعد أخرى . . . ولكن صوته ، كان يضيع بين زعيق الاطفال ،



وهم يرددون ، مقطعاً مقطعاً ، بعد ماري لويز «قانون الايمان» . . . وهي صلاة طويلة ، وغير مفهومة ، مثل الكثير من الصلوات التي يطلب من الاطفال ترديدها :

. . . إلاه من إلاء . . .

. . . نور من نور . .

إلاه حقٌ . .

. . من إلاء حقٍ . .

. . مولود . .

. . غير مخلوق . .

. . مساوٍ للأب في الجوهر . . .

. . . الذي على يده . . .

. . . صار كل شيء . . .

. . الذي من اجلنا . .

. . نحن البشر . .

. . . نزل من السماء . . .

. . . وتجسد من روح القدس . . .

. . . .

كان الزعيق يملأ القاعة . . . وكانت ماري لويز منكبة على نسيجها ، كان الطفل يحس حاجته تتضاعف ، ويخجل من ضعفه ، ويجهد ، في أن تسمعه الراهبة ، وتنقذه مما هو فيه . . ولم يكن ذلك ممكناً . . لاسباب بسيطة ، وأصغرها ، أن صوت الطفل لم يكن يملك أن يصل الى «ماري لويز» . . . ولقد ادرك ذلك في النهاية . . واستسلم ، كما يستسلم البشر المعذبون بحاجتهم . . وضعف اجسادهم . . . وكان عليه أن ينتظر الاكتشاف الذي سيداهمه ، بعد انتهاء الصلاة . . . والعقاب الحنون الذي سيكلفه ، التلذذ بمهانته امام اربعين طفلاً ، لم يصدف ، ان حاصرتهم الحاجة ، وهم يرددون الصلاة كما حاصرته . . .

تجلس «ماري لويز» على كرسيها . . .

أنها الخالدةُ ، في تلك القاعة ، لا يدركها ، الملل ولا التعب ولا الفناء . . . كانت حاضرة ، وقوية ، ولا مناص منها ، بحيث لم يخطر لي ، أن احاول التخلص منها ، بأن ادعو عليها بالموت . فلم يكن يخطر ببالي ، أن «ماري لويز» يمكن في يوم ما ، ولسبب ما ، أن تموت . . .

بل تظل في مكانها ، ويظل ذلك النداء الذي لا يملك سواها ، أن تصنعه ، يصدر عنها وكأنه ، صادر عن اصابعها ، وليس عن شفتيها :



– ايه يا أولاد . .

ونتنبه . . .

فبعد كل نداء من هذا النوع ، كانت الراهبة ، تستطرد ، لحكاية ، أو نصيحة . . أو وعد ، أو وعيد . . ونصغي اليها ، موزعين بين القلق والترقب والجوع والخشوع والخوف . . .

ثم يأتي غالباً ، حديث العصافير . . .

يا للعذاب . .

فهذه الراهبة القديسة ، كانت قد منحت سطوة على كل العصافير ، فهي لها ، وموكلة بنا ، ليل نهار ، تراقبنا ، وتحصى علينا اخطاءنا ، ومعاصينا ، ثم تنقلها ، اذا جاء المساء الى الراهبة بمثابرة ولؤم عجيبين . . .

والصورة في ذهني هكذا : القاعة الرهيبة خالية الا من «ماري لويز» الجالسة على عرشها الخشبي . . والعصافير تنظر فوق شجرة التوت العجيبة ، وما أن يقرع ناقوس العشاء ، حتى تطير هذه العصافير ، فتدخل القاعة ، وتحوم حول الراهبة مثرثرة بهوس انثوي ، مقدمة تقاريرها الحيوانية الحاقدة ، و «ماري لويز» تصغي ، وهي منكبة على نسيجها ، وقد ارتسمت فوق شفتيها القديمتين ، امائر ابتسامة سرمدية لا تكاد تراها العين . . حتى تتعب ويثقل جفنّاها ، فتغفوا على كرسيها ، ويقع من يدها نسجيها الابيض . . . ويتقدم الليل . . .

لشد ما كرهت العصافير ذاك العام . . .

كنت حين اتورط في ارتكاب معصية ، على الرغم مني ، اتطلع حولي : مشفقاً ، من أن يكون أحد هذه الحيوانات ، ذات اللون الترابي القذر ، يتلصص علي ، بعينيه اليقظتين المراوغتين . فيطير . حاملاً وشايته ، سعيداً بعذابي ، والعقاب الذي سينالني بسببه . .

مرة كذب عليَّ عصفور ابن كلب ، فنقل عني الى «ماري لويز» أنني «حلفت بأسم الله باطلاً» . وهو يدري وأنا أدري ، أن تلك «خطيئة مميتة» ، لأنها تكسر احدى الوصايا العشر التي اسلمها سبحانه تعالى الى موسى محفورة على لوح من حجر . . .

كذب العصفور . . . فأنا لم أجسر قط ، حتى حين تجاوزت مراهقتي ، على أن أحلف بأسم الله ، باطلاً ، أو صادقاً . . . بل كنت اقتصد حتى في أن أحلف برأس أبي . . . لأنني اعرف أن ذلك ، خطيئة أيضاً . . .

لكن الكذبة الحاقدة ، لم تنطل – وهذا من حسن حظي – على الاخت ماري لويز . فقد ادركت منذ البداية العصفور ، يحاول أن يظهر شطارته ، بأن يشي بولد عاقل مثلي . ولهذا قالت أمام جميع الاطفال ، أنها ما صدقت العصفور لأنها تعرفني جيداً ، وتعرف أنني لا يمكن قط ، أن أحلف بأسم الله باطلاً . . . ثم أضافت بصوت فيه نبرة القديسين . . أن العصفور ، سينال

عقابه على كذبه . . . وقد نال المسكين عقابه حقاً . . . ورأيت بعيني هاتين ، جثته الهامدة ، قرب بابنا مقلوبة على ظهرها ، بحيث ارتفع ساقاه في ضراعه وطلب المغفرة . . .

واذ احسست بالشماتة لمصير العصفور الكذاب . فقد زاد خوفي من الاخت «ماري لويز» ، وتضاعف قلقي لرقابة عصافيرها : واستقر في ذهني ، منذ تلك السنوات المبكرة ، اعتقاد راسخ ، بأننا لا يمكن أن نفر من الرقابة ، ونكون لوحدنا . . فهناك ابداً اعين تراقبنا ، حتى ونحن في اعمق حالات وحدتنا وانطوائنا . . .

ويا له هماً ، يضيق به الصدر ، أن تعيش وأنت تحس ، أن هنالك من يراقبك : وأن كل ما حواليك يصلح لأن يؤدي هذه المهمة : العصافير ، والنوافذ ، والابواب ، والجدران والصور المعلقة عليها ، والشرفات ، ومصابيح الطريق ، والنجوم ، والحيوانات ، والاشياء . . . وعيون الآخرين ، احياء ، كانوا أم امواتاً . . بل لا يكفي ذلك كله ، فتروح أنت ، بسبب ذلك ، أو بدونه ، تراقب نفسك . . .

— ايه يا أولاد . .

تقولها ، بعد أن تكون قد تعبت ، معها ، من ترديد ، «السلام عليك يا مريم» و «الربانية» و «قانون الايمان» . . ويسود ذلك الصمت الذي يأتي مع انتهاء الضحى واقتراب الظهيرة ، حيث تبدو كل الاشياء متعبة ، وقد استنفدت نشاط الصباح . . وحيث تكفي اصغر الاصوات ، لاثارة القلق ، أو ابتعاث الحنين . .

في مثل هذا الوقت ، كنت ادرك ، أن عمتي الكبيرة ، لابد في المطبخ ، وأن أمي لابد في غرفتنا عند ماكنة الخياطة ، التي بعثت اليها بها ، أمها المهاجرة الى المكسيك . . . وأن هناك اولاداً يلعبون . . . ويعطشون ، فيشربون الماء ، ويجوعون ، فيأكلون لقمة من هنا أو هناك . . .

ويدركني لذلك ، احساس بالغبن ، اذ أراني ، في هذه القاعة ، مأسوراً لصوت الراهبة ، ووجودها الطاغي : لا أملك حتى مجرد ان احتج على ما أنا فيه ، مكتفيا بهذا الخوف المهيب ، الذي يملأ روحي ، بما يشبه الحب والاحترام . . .

واذا كانت العصافير بعض ما علمتنا ماري لويز أن نخاف ، فأن الخوف الاكبر ، كان في ذلك الشيء الذي تخفيه في جيبها الكبير ، ملفوفاً بورقة سوداء ، شيء مبهم ، ورهيب ، كنا نحسه ، دون أن نراه هو : «لسان الشيطان» .

ياللأ لاعيب ! !

فانا حتى قدرلي أن نعرف على «ماري لويز» ، ثم حتى بعد أن غادرت قاعتها العجيبة ، لم يكن الشيطان ليعنيني كثيراً . . والأهم من ذلك ، أنه لم يكن يثير عندي الخوف والحذر . .



كان يبدو لي مخلوقاً أقرب للدعابة . بحيث لا يمكن أن يحمل محمل الجد . . فهو أقرب ما يكون الى أنسان ، ممن جرت العادة على أن يوصفوا بأنهم قليلو الادب والحياء . . لم يحسن أهلهم تربيتهم . .

ثم زادت تربيتي ، على هذه الصورة مسحة من الاغراء ، وجعلت الشيطان ، دون أن تقصد الى ذلك ، كائناً محبباً . . . أجل . . . فهو مسؤول عن كل المعاصي الجميلة التي قدر لي أن اجربها ، والمحرض على كل الخطايا المحببة ، التي لم أجرؤ على ارتكابها . . بل لقد زاد أهلي على ذلك ، على غير وعي منهم ، بأن قرنوا الشيطان ، والشيطنة بالذكاء وسعة الحيلة . . .

– آه يا شيطان ! . .

كانت عمتي تقول ذلك لي ، معجبة بعمل ما ، اجدت اداءه . وكانت امي لا تفتأ تردد ، وهي تصف ، أمراً تعلمته ، قائلة «لست أدري من أين تعلّم هذه الشيطنة» وتتسع ابتسامتها ، بزهو جميل . .

ثم عمق الاصدقاء الصغار هذا المعنى في روحي ، بحيث كان واضحاً لي ، أن من الافضل مليون مرة أن يوصف احدنا ، بأنه «شيطان» من أن يوصف بأنه «ملاك» . . فليس ما نحسده عليـــه ، كان مثله ، ينزوي ، متردداً خائفاً حذراً ، لا يصدر عنه ، ما يوحي بحيوية ، ولا جسارة . . ولهذا فلم يكن يصلح في اللعب ، ولا المغامرات . .

وعلى هذا كنا جميعاً ، نتنافس على أن نبرع في اتخاذ دور الشيطان لننفي عن انفسنا تهمة ملائكة . . فالملاك بيننا ، لم يكن يملك أي قدر من الاحترام ، ولا المهابة . . سوى قدر من الاشفاق ، لفرط مسكنته ، يزيده بيننا ضعة واستهانة . .

وآه من زمن الطفولة . .

من اعجابي المرير ، بذلك الولد ، الذي يكبرنا سنتين ، ابن عامل المصبغة . فقد كنت أرى فيه ، بجلاء صورة الشيطام . . .

لعل أولى امائر شيطنته ، أمه قط لم يكن مجبراً على الذهاب الى المدرسة . ما كان أهله يفرضون عليه ذلك ، ولا يحاسبونه . . ولم تكن ثمة من اوامر ينبغي عليه الانصياع لها : أن يذهب الى البيت مثلاً عند وقت الطعام . . . وأن يقف بخشوع واحترام ، حين يمر بالطريق كاهن ، أو راهبة أو معلم . . .

ابداً . . كان ابراهيم – وهذا اسمه – يقضي كل اوقاته في الزقاق ، مرتدياً جلبابه الوسخ ، وقد شد الى وسطه حبلاً ، بعد أن انقطع حزامه العتيق ، يتجول حيث شاء ، وفي عز الشتاء ، حافي القدمين ، حاسر الرأس . . .

ولشدما كان هذا كله ، يبدو لي مغرياً . . أن امشي في الزقاق ، مثله ، بدون حذاء ، وأن

تلمس قدماي وحل الطريق ، وماء الامطار . . وأن يكون لي جلباب وسخ ، ولكن :

– البس حذاءك . . اغسل وجهك . . لا تلعب في الطريق . . لا . . !

وأكاد ابكي من القهر ، لانني لا استطيع أن اقول ، أنني اريد أن اكون مثل ابراهيم . . وكنت في ساعات قهري هذه ، اتخيله هارباً من المدرسة ، واقفاً مثل أمير في صدر المحلة ، وقد غرس قدميه في الاوحال ، وحول رأسه هالة من نور . .

. . . . .

كانت تلك صورة الشيطان ، وعدته في مخيلتي . . . حتى قدّر «لماري لويز» أن تجعلني اعرف شيطاناً من نوع اخر . . أو أن اعرف منه (لسانه) حسب ، وقد استقر في جيبها ملفوفاً في ورقة سوداء . . .

– ايه يا أولاد .

وتمديدها الى جيبها ، كما لو أنها في سبيلها لأن تخرج منها طيراً أو أرنب ثم ، برؤوس اصابعها ، تخرج تلك الورقة المطوية وتضعها على ركبتها ، فوق جلبابها ، ناصع البياض . . وتروح تقلّص وجهها ، في محاولة ، لتصوير الخوف والاشمئزاز ، وهي تبذل محاولة – لن تتم – في أن تفتح الورقة ، وتخرج ذلك الكائن من غلافه ، لتضعه في فم ذاك الولد الخاطىء ، الذي باع قلبه للشيطان . . .

لا منطق . . .

كانت حكاياها ، قريبة من ارواحنا ، لأنها لا تعتمد منطقاً خارجاً عنها ، بل لأنها ، تجبرنا ، لفرط ما تمتلكه ، من سطوة ، على قبول منطقها الخارق وحده ، مادمنا ، قد قبلنا مسبقاً ، بالمنطق الذي أوجد هذه القاعة الرهيبة «وماري لويز» ، وشجرة التوت ، والعصافير ، ذوات القلب الاسود . . .

اعطتني «ماري لويز» تلك الرهبة الطيبة ، اول الالغاز في عواطفي . . . وعلمتني ، في زمن مبكر ، أن المحبة ، هي نسيج غريب ، من الخوف والعشق والالفة ، والغرابة ، والقلق ، والاطمئنان ، والخمول ، والترقب ، والثواب والعقاب . . وأنها ، هذه المحبة ، تملك منطقها الخاص ، وقوانينها ، التي لا يمكن اكتشافها ، الا بالحدس . . . ولم أدر متى ادركت أنني ، احب «ماري لويز» حتى لقد خطر لي أن استبدلها بأمي . . . فقد كنت بحاجة الى أم مثلها . . أو لعلي كنت بحاجة اليها ، هي بالذات . . ربما لانها كانت تناقض أمي التي ولدتني في كل خواصها وسجاياها . . .

أنا لست مؤهلاً لأن أنسى ، تلك اللحظات المفاجئة ، التي كانت فيها الراهبة ، تستدعيني اليها ، وتأخذني بين طيات جلبابها ، وتعطيني رائحة ذاك الحنان الفذ ، الذي يصدر عن كيانها ،



بحيث آلمني نعاسي . . . ونومي الابدي . . . كانت تفعل ذلك ، فجأة ، ومن دون أي مبرر ، يمكن لضميري الصغير أن يفهمه . . بحيث أتعود ، على شرط ما ، يمكن أن يقدم لي هذا الامتياز .

لقد جربت كل الشروط : أن اكون عاقلاً . . . أو أن أصلي قبل النوم . . أو أن اعطي «يوميتي» للفقير الاعمى قرب باب البيت . . أو أن اصوم عن اللحم يومي الاربعاء والجمعة . . . أو . . .

جربت ذلك كله . . . ولم انجح . . حتى اقتنعت أن «ثوابها» العذب هذا أنما يأتي يوم أهمل كل هذه الشروط . . . فرحت ارتكب ، من أجلها المعاصي . . ولا فائدة . . . كل ما أعقبه ذلك ، أن العصافير ، راحت ، تتلذذ ، بتقديم المزيد من التقارير عني . . «وماري لويز» تغض الطرف . . .

ثوابها وعقابها . . !

الله لذاك العقاب الاكبر . . حين كانت ماري لويز ، تنساني تماماً ، فيخيل لي أنني فقدت جدارتي ، وأروح أعاني بصمت ، وأنا ارتقب تلك اللحظة ، التي لابد أن تأتي ، في وقت اكون فيه ، قد ذهلت عن حاجتي ، ونسيتها . . فتستدعيني «ماري لويز» اليها ، فجأة ، لغير ما سبب ، وتعطيني حبها ، وهداياها . .

ومثل أي محب ، كان لابد أن تفتضح محبتي «لماري لويز» ، بين أهلي : يتندرون بها تارة ، ويبزونني بها أخرى ، وانتقل الأمر الى اولاد المحلة ، فصاروا يشتمون «ماري لويز» ، حين يضيقون بي ، كيداً وشماتة . . .

ولقد كنت استجيب لكل ذلك ، تماماً ، كما يستجيب المحبون ، فأخجل أو أخضع للأبتزاز ، أو أنفجر غضباً . . . بل لقد كنت احياناً ، انكر محبتي ، أو اتظاهر بعكسها ، بل لقد بلغ بي ارتباكي مرة ، أنني في غمرة من انفعالي شتمت «ماري لويز» ، على ملأ من أهلي جميعاً . . ثم انخرطت في البكاء . . .

كان بكائي في الوهلة الاولى ، ناجماً عن الضغط الذي عانيته ، والذي قادني على غير وعي مني لأمر لم أكن اجرؤ على التفكير به . . ثم فجأة وبينما أنا ابكي ، امتلأت رعباً ، فقد ايقنت أن خبر هذا الذي ارتكبته لابد سيبلغ الراهبة . . .

كيف يعقل الا يبلغها ، وثمة اولئك العصافير ، وقد انبثوا في كل مكان . وبيني وبينهم ، ثأر وشماتة ، من يوم حل العقاب بذاك العصفور ، الذي وشى بي ظلماً وبهتاناً ؟ بل أن بيني وبين هؤلاء المخلوقات الحاقدة ، حسداً متبادلاً ، لا يخفف من وطأته ، أنه صامت وغير معلن ، فهم ينفسون عليَّ ، أن أحب «ماري لويز» كل هذا الحب ، وأن تحبني ، هي أيضاً ، كل هذا

الحب . . وأنا امتلىء لهم حسداً ، أن يكونوا قريبين منها ، وقريبة منهم ، تعتمد عليهم ، دون الجميع ، يرون ماري لويز ، في وقت لا يمكن لنا فيه ، أن نراها . . في تلك الخلوة المعتمة ، عندما يبدأ الماء بالسقوط على المدينة ، وتقدم العصافير تقاريرها الرهيبة . . .

كنت افكر في هذا كله ، وازداد بكاءً ، يملأني شعور قاس بالاثم ، والخوف ، من نتيجة كنت اراها بوضوح ، داخل جفني المحمرّين والمبللين بالدموع : حين سأحتل مكاني في القاعة وأرى الى ماري لويز . جالسة فوق كرسيها ، ويدق قلبي هلعاً ، في ذاك الصمت ، وأنا انتظر اللحظة الفاجعة التي ستناديني فيها ، وتعلن أمام الجميع فضيحتي . . .

واذا كنت ، ازداد ، لحظة بعد أخرى ، قناعة ، بأنني سأواجه . الجزاء الرهيب الذي لا مناص منه ، فقد راح احساسي المبهم ، بالظلم يتورم في صدري . . . احساس لا يمكن ايضاحه ، ولا التعبير عنه : بأنني غير مسؤول عن اثمي . . . بل لقد دفعت اليه دفعاً فصدر هذا الذي صدر عني ، بغير ارادتي . .

كنت يائساً في دموعي الى حد بعيد ، وفي غمرة من هذا اليأس ، ما كنت املك غير خلاص واحد ، هو في أن اتخذ قراري الصغير ، بالهرب . . . «لن اذهب غداً الى الآزيل . . لن اذهب . .» . فاحتمال الحرمان من ماري لويز ، كان أهون من مواجهة لومها ، أو غضبها . . . بل حتى عقابها . . .

لم يفهم أهلي ما أعانيه . . بل طابت لهم زلتي . فجعلوا منها دعابة ؛ وراحوا يلاحقونني من غير غير رحمة :

قالت امي :

– تشتم «ماري لويز» ؟ ما تخاف الله ؟ عيب ابني . . عيب ! ! قالت الخادمة القروية ؛ وهي تضحك :

– لماذا ؟ . . لماذا ؟ هذا جزاء ما اعطته لك من هدايا ؟

وقالت اختي ، وكأنها تغني :

– يا عيني . . يا عيني . . وغداً اذهب لماري لويز . . وأقول لها . . .

صرخت مفزعاً :

– لا . . . لا . . .

واذا كانت صرختي مليئة بالرعب . . فقد اثارت الحنق عند عمتي السمينة ، فسمعتها تنتهر اختي . . . . ثم تأتي فتأخذني اليها . . .

– لا تبك يا ولد . . . ملعون ابو «ماري لويز» . . اشتمها ولا تخف . . ليست هي العذراء القديسة . . . قبل سنوات كانت تجلس في بيت اهلها امام الطست وتغسل الملابس ! !



آه لعمتي القاسية ، كيف كسرت وعاء خيالي . . .

آه لها . . كيف كانت تحاول ، ببساطة ، أن تسلب قدّيستي هالتها ، وازارها ، وسحرها اخذته منها :

قالت لي أن ماري لويز ، كان اسمها «وردة» قبل أن تصبح راهبة . . وأنها كانت تغسل الملابس لاهل المحلة . . وأنها حين تقدم بها العمر ، ولم يطلبها أحد للزواج ، صارت راهبة ! .
واذ حاولت أمي أن تعترضها ، فقد استشاطت غضباً . . . وصاحت بها :

* اسكتي أنت . . . لقد قتل الولد نفسه بكاء لانه شتم وردة بنت الاحدب . . . ملعون أبوها وأبو أبيها . . .

وهمست لي مسترضية :

– كف عن البكاء . . وتعال معي ، فاعطيك «الملّبس» . . .

أكلت الملبس وأنا ما أزال ابكي . . كان بكائي هذه المرة لخيبتي . . ولانني لم استطع أن أقول كلمة دفاع ، عن «ماري لويز» . . عن وردة بنت الاحدب . . وفي الليل عاقبني الله ، بأحلام مريعة . . ولعلي كنت اهذي ، وأنا ادافع عن نفسي العصافير التي كنت اراها تنقر اصابعي . . . ولعلي كنت خائفاً ، حين رأيت في حلمي ، «ماري لويز» ، تسير في الكنيسة حافية القدمين ، محلوقة الشعر . . . ثم خيل لي أنها تنام معي في فراشي ، وأنني اشم فيها رائحة أمي . . . واسمع صوتها ، وهي تربت على كتفي ، لا تخف . . يا حبيبي . . أنا الى جانبك يا ولدي . . .» ، وعند ذاك فتحت عيني ، ورأيت أمي الى جانبي . . وهي تنشف العرق الذي كان يبلل صدري ووجهي وجبيني . . . لم اذهب في اليوم التالي الى المدرسة . . .

لقد افقت مصابا بالحمى . . . ولم انقطع عن الهذيان . . وكنت لا أنفك أردد تلك المحفوظة التي علمتني اياها ماري لويز لا قرأها ليلة رأس السنة امام عمي . . .

ها أنا ولد صغير . . . . ولكن أهلي يريدون أن يحبسوني في القفص . . . اخذوني الى المدرسة . . . . وارادوا أن يعلموني القراءة والديانة والحساب . . . عشرة بعشرتين . . . وبقدر ذلك مرتين . . الى خمسة وثلاثة واثنين . . يساوي مئة . . يساوي مئة . . . يساوي مئة . . .» .

واسمع أصوات الاعجاب والتصفيق . .


مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الخامس

الامير




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الخامس
الاميـر

الان سينتهي المنشد ، من ادائه الحزين . . . وستعلق عيناي بزاوية المذبح ، الى اليسار . . وسأرى اليه . ذاك الامير ، ينبثق من موضع ما ، مبهم ، اشبه مايكون بتمثال وسيم ، يغادر منصته حاسر الرأس ، مضيئ الملامح . . فارعاً . . . وقوراً ، بجبته السوداء ، وحواشيها ذات اللون البنفسجي . . .

يتخطى الحشد . . . وينحدر الى الصحن ، الى منبر وهمي ، فإذا أوفى السياج الحديدي توقف وحدق ملياً بالمصلين متفحصاً سطوته ، وقدرة حضوره السحري . .

وتخفت الهمهات ويبدأ صمت ورع بالطواف على الجدران ، والصور المغلفة بالجدار ، والشموع المطفأة والرخام والحزن المعتق . . وانه لصمت مستسلم ، وخشوع متفق عليه ، واستجابة ذات أنوثة . . . فلقد سبق ، وجرب هذا الحشد ، سحر الكاهن المنتصب ، وسط الكنيسة ، وذاقوا وقع صوته ، وحرارة عينيه الشهباوين . . إن انتظارهم الحزين لذيذ فيه عذوبة القبول بالاستشهاد وحيرته الرهيبة . . .

الكل خاشع والأمير في مكانه . . . يستوعب إرادة مئات المصلين ، وشهوة موتهم المبيتة . . . وإنه ليرفع الان كفه اليمنى فيلمس جبينه ، ثم يهبط بها الى موضع القلب ، ومع حركة يده ، وهي ترسم على الجسد علامة الصليب يتناهى صوته ، في نبرة أقرب للهمس :

— بسم الاب . . . والابن . . . وروح القدس . . .

وتتحرك أيدي الحشد ، بالحركة نفسها ، وتعلو الهمهمة ، وهي تعيد الجملة نفسها . . . وتبدأ موعظة «الجمعة العظيمة»

كان اميراً . . . سحره في عينيه . . .

عينان حارتان واسعتان . . يقظتان . .

وكانت كهولته المبكرة . تؤطر له وجهه بأمائر فضية فتزيد من وداعة ملامحه المصنوعة من الخمرة والبخور والقمح . .

ومرة أخرى كان أميراً : جسده المبني بناء تمثال أشوري . . واعتداد روحه بقامته . . وايقاع حضوره السيدّ . . .

أما أنا . فكنت أتبين الأمارة . في كلماته وهي تقدم نبرة المزامير ومذاقها اللاذع ، الذي



اكتشفت فيه أول الشعر . .

ولهذا . فكل موعظة . من مواعظ هذا الكاهن هي عندي موسم ، وكل قصاصة من أوراقه السرية ، دهشة . .

وهي «الجمعة العظيمة» . .

الصليب الاسود . والمسوح . . والأناشيد المأتمية ، واستعداد الدموع ، ولذة الحزن المطهرة . . وهذا الأمير يمشي منذ ساعة مع المسيح في خطواته الاخيرة . .

جاء شماس ، قبل قليل ورفع الملاءة السوداء ، عن جسد المصلوب ، فبان هيكله العاري عاجياً على الخشب الاسود . . . وانكشفت جروحه ، وفاح منها شذى سري . . . واشرأبت أمام الصليب المرفوع أعناق متشنجة ، قد أوقظ فيها تلذذ الحزن والندم . . وبين الصليب والحشد يتوسط الامير ، بملابسه السود ، وجبينه يتصبب عرقاً ، كأنه بطريقة ما ، يستعد لصلب نفسه ، أو للموت على صليب شعره وكلماته : فهو يصلي . . ويستجد . . ويبارك . . . ويغفر ، ويتوسل موزعاً وعيه ، وحرارته ، وحرمانه ، مستغرقاً في امتلاك عفاف لغته وسطوتها الجسدية .

كان أميراً . . .

وكانت له غرفة . أعلى البيت . تشرف على الدنيا ، مثل برج حارس غريب . . . غرفة صغيرة ، مؤثثة بالكتب والايقونات ، وبذاك السرير المتقشف والمكتب الكبير الذي تكدست عليه الاوراق . . ولاشيئ سوى ذلك ، وعاء للماء . . ومدفأة . . واريكة ذات حشايا قرمزية . . .

تلك الغرفة الممنوعة . . . فهي أشبه بأمرأة سرية ، وغير مكتشفة ولامعلنة ، حتى لقد خطر لي أن غرفة هذا الامير هي زوجته فالكهنة الكاثوليك لايتزوجون . . . .

تنتهي الموعظة . . . ويتنهد الجميع كمن خرج من حلم ثقيل . .

والان اصبح ميسوراً ان تستطرد الطقوس وأن يكون مفهوماً ومقنعاً كل الذي يجري . . فسحر الكلمات سيظل ملتصقاً بالجلود والجدران ، يصدر بخوراً مولماً . . . لامناص منه . .

أما الامير ، الذي انتهى قبل قليل من معجزته ، فقد انسحب ، وانزوى في معتكف وسجد على يسار القربان وصلى صلاة قصيرة ، و لن يلبث أن ينهض ويتلفع بشال أسود ويرتدي عمامته . وينسحب بتواضع الى البيت . . ماراه احد ، وماكان يصح أن يراه أحد – هذا ماكان يبدو لي – فهو مايزال متوهجاً بسورة سحره ، وطغيان موته الجميل . .

في البيت ، تكون عمتي الكبيرة قد سبقته ، واعدت له شراباً ساخناً ، وملابس دافئة . . . ولن تمضي سوى دقائق حتى ينحدر الامير من غرفته ، فيدخل الغرفة الكبيرة ، ويتخذ مكانه



المعهود عند الزاوية ، صامتاً مورد الخدين ، ملتمع العينين كأنه يستريح من لحظات حب غريبة .

ورويداً رويداً يعتم الليل . .

والكنيسة الآن خاوية ومهجورة . فقد اكتملت «الجمعة العظيمة» والمسيح قد «أمال رأسه وأسلم الروح» . . . وكل ماحدث خلال ذلك ، طريق الآلام ، ومحكمة «بيلاطس» وخيانة يهوذا . . . والقميص الذي اقترع عليه الجنود . . وذاك الذي طعن المسيح في صدره (فخرج للوقت ، من الجرح ، دم وماء) . . . والصرخة الأخيرة : «ها قد تم . .» . . كل ذلك أصبح الان يتخذ في الذهن وقاراً يمكن احتماله . . . فهو غريب وحنون . . . وأنيس الى حد بعيد . .

ولسوف تمتد الطقوس . . .

كل طقس يستدعى المزيد من اللغة ، والاناشيد ، والشذى والالوان . . . والخل ممزوجاً بالمرارة ، والأبنوس بالفضة والأرجوان بالذهب . . وتستطرد أيام وأسماء ، كل اسم هو كناية عن مأساة أو ما يجاور المأساة : أربعاء الرماد ، وأحد القيامة ، وسبت النور ، وجمعة الالام . . وخميس الفصح . .

في ذاك الخميس ، كانوا قد اختاروني للعشاء السري . . ففي اليوم الذي يسبق «الجمعة العظيمة» ، تشهد الكنيسة كل عام ، استرجاعاً لذاك العشاء ، الذي ودع فيه المسيح تلاميذه . . اثناعشر ولداً تختارهم المدرسة ، ليمثلوا تلاميذ المسيح ، ثم تضعهم أمام الهيكل ويأتي كاهن ، فيتقمص دور المسيح ويغسل أقدام حوارييه . . .

في ذاك العام الذي اختاروني فيه ، كان الأمير يجلس على عرشه أمام الهيكل . . . وإلى جانبه مائدة كبيرة ، صُفت عليها لوازم «العشاء الاخير» : حق من زيت ، وكأس خمر ، وشموع ، وايقونات . . . ثم ابريق ومغسلة نحاسية . .

ولقد سمعت بقلق صوت الناقوس ورفعني فوق قلقي ، حنين المنشدين وهم يرددون : «كما يشتاق الأيل الى بنابيع المياه . . . كذلك اشتاقت نفسي اليك ياالله . . .» . . . وكان قميص أبيض يسربلني من العنق حتى القدمين . . وابتدأ الفصح ، وخيل لي أنني اسمع صوت المسيح وهو يقول «شهوة اشتهيت» ، أني اكل الفصح مع تلاميذي ، ثم انتبهت فإذا هو الأمير . فإذا به صوتي : يقرأ الانجيل ، ثم انتبهت مرة أخرى :

لعشاء سري أدعو . .
وبخمر الفصح ومائي . .
أغسل أقدام أحبائي
وأقول : وداعاً



الليلة يسلمني أحد منكم للموت ! .
لصديق يقتلني . . . أولى
والمدية في كف حبيب غفران . .
أما أنت فتنكرني قبل صياح الديك
ويقتلني النكران . . . وأغفر . . .»
١٩٧٣

ولم البث أن فتحت من جديد عيني :
ورأيت الامير يقرأ في الانجيل . وجملة
جملة ، كان العشاء الحزين يكتمل . . .
حتى يكاد يشرف على نهايته ، وعند ذاك
ينزع الامير حلته ويتزر بمئزرة ويخف اليه شماسان يحمل أحداهما ابريقاً والأخر وعاء . من نحاس . . . ثم يبدأ المسيح ، يغسل اقدام تلاميذه .

يركع الامير . على احدى ركبته بين قدمي كل صبي من هؤلاء الاثني عشر ، ويأخذ بلطف ، ومهانة عذبة ، قدمه اليسرى ويروح يغسلها ثم ينشفها بمنديل . . . ولايكتفي . . . بل ينحني بثقل وقاره ومحبته ، ويروح يقبلها ، مردداً قول المسيح : «من أراد أن يكون بينكم سيداً ، فليكن لكم خادماً . . .»

كنت أتطلع اليه ، وانتظر دوري وبي موت من الغرابة والخذلان . . . حتى وجدته يركع امامي . . ومست أصابعه قدمي ثم اختلطت مع الماء . ثم كما في الحلم ، احسست شفتيه على قدمي . . .

وفجأة بدا لي أنني صرت مقدساً ، وصارت قدمي التي غسلها الامير ، ووضع عليها قبلته ، تؤلمني .

ذاك الامير . . عمي . .
الرابع بين اخوته أصغر من أبي عشر سنوات أو اكثر ، وقد سحرني في أول طفولتي وفتح لي أول طلاسم الشعر ، وأعطاني أول هبات الغرابة ، فحاولت بكل طاقتي أن أكون مثله . . في صوته . . ونبرته . . ومشيته ومسوحه . . وكان ذلك يبدو لي غير ممكن الا بأن أحلم أن اصير أنا ايضاً كاهناً . . .

كان هذا الحلم اسراً في تلك السنوات المبكرة . . بحيث ملكني حتى في يقظتي واستحوذ على لعبي . فرحت «ألعب» دور كاهن وكانت المفارقة هي عمري ، وحماستي التي تثير الضحك عند الأخرين . . حتى تعبت من حلمي وأنا يومذاك مراهق في المدرسة المتوسطة . . . وايقنت أنني



لن أكون كاهناً ، ولن يتاح لي ، حتى لو أردت ذلك أن أكون . . . في ساعات من ولعي كنت الاحظ أي رعب وحزن يسيطران على أمي وعمتي ، حين تريانني مستغرقاً في حماستي . . وتتبينان قدراً من الجد في رغبتي . . . كانت امي عند ذاك تأخذني اليها ، فاحس رائحة دموع مكتومة . وتهمس في اذني :

– لاياولدي . . أنت وحيدي . .

وماكنت أدرك يومذاك . العلاقة بين أن أكون وحيدها ، وبين رغبتي الضارية ، في أن أشبه عمي . . واذ تراني مرتبكاً ، تروح تستطرد :

– بل تكبر . . ونفرح بزفافك . . .

وما كان لي . مرة أخرى . أن افهم العلاقة بين أن أكون كاهناً ، وبين أن تفرح امي بزفافي . . . حتى جاء يوم . ادركت فيه كل هذه العلاقات ، وعند ذاك تعمق أحساسي بذاك الحرمان الصعب . الذي اختاره الامير يوم نذر نفسه للكنيسة . .

ولوهلة خيل لي . ان رغبتي في أن اشبه عمي غدت مستحيلة . . وقرَّ في روحي أن سحره نابع من حرمانه ويتوليته . . . . وفي عمق قناعتي تلك قلت لروحي إنني سأنذر للحرمان . . . حتى وان لم يتح لي أن أصير كاهناً . . . . ولكن لم تمض أيام على نذري ، حتى وقعت على رداءتي . . . فقد كانت الخطيئة أقوى مني . . .

ماذا تبقى اذن ؟

أنا هنا في قلقي . . . وهو في عليته ، بأعلى البيت ، وحيد مغلق على كتبه ومزاجه وأسراره . . . حتى لقد خيل لي ذات يوم ، أن سحره يأتي من غرفته المتوحدة تلك . . . من منضدته ذات الادراج . وقد امتلأت بالرسائل والاوراق والقصاصات . . .

ولقد كان الوقت عصراً . . .

والبيت خال تماماً . . . ورحت أرتقي الطريق الى تلك الغرفة المسحورة . . كنت اعرف أن الامير يضع مفتاح غرفته فوق ثنية الرخام أعلى الباب . . . وهكذا مددت يدي ، بصعوبة على قدر ماتسمح لي به قامتي وأنا أصغي الى نبض لهفتي وخوفي ، وجيشان حمى شديدة الشذوذ . .

وبيد مرتعشة ادرت القطعة الحديدية ودفعت الباب . ومباشرة بادهني شذى خفيف يشبه البخور والمسك والمنبعث من عسل النحل . . مختلطاً برائحة ورد وسفرجل . . .

وقفت مذهولاً في تلك العتمة المبكرة .

وطافت عيناي على السرير الممهد بعناية وعلى المشجب الذي يحمل ملابسه . . . ثم على الاريكة ذات المتكأ القرمزي . واخيراً توقفت عند المكتب الذي في الزاوية . . . كان ثمة ضياء من شعاع شمس توشك على المغيب ، يتسلل خلل الستارة ، فيضفي على المكان حساً اسطورياً



يبعث على الخوف والخشوع . . .

استندت الى المكتب بيد مرتعشة . . . وسمعت صوت لهاثي . . . كان يبدو لي أنني مقبل على ارتكاب خطيئة من نوع غريب . . ولقد كان احساسي هذا مفعماً بتلذذ مؤلم لافكاك منه .

بقيت برهة جامداً ، وأنا استروح وجودي داخل هذا العالم الممنوع ، الذي طالما اشتقت اليه . ثم بقدسية ورهبة ، مددت أصابعي وتلمست الخشب القديم بحذر . . . وكأنني أخشى أن تترك أناملي أثراً على جسدٍ حي . . . . عري امرأة نائمة . . . قد تستيقظ للمساتي في أيما لحظة . . .

ومرت لحظات . . .

وإذ لم تستيقظ المرأة النائمة فقد وافتني شجاعتي ، فأزحت النظارتين عن محفظة الاوراق وقلبت الغلاف ورحت أقرأ على قدر ما تسعفني عيناي ومعرفتي . . تلك السطور المكتوبة بخط كنت اعشقه وأحرص على تقليده . .

ولم يكن ثمة متسع . . .

وكنت اسمع الادراج تناديني ، فرحت أفتحها واحداً واحداً . . .

أوراق . . ورسائل . . . وأغلفة . . . بعضها مشدود ، وبعضها منفرط . . . وكنت اسمع صوت الأسرار الحار ، على دقات قلبي :

رزمة صغيرة ، ملفوفة بشريط أزرق ،

واوراق قد حال بياضها بفعل الزمن . . . .

بيد مرتعشة حللت الشريط . . . ولفرط ارتباكي ، سقطت الرزمة من يدي واذ أنحنيت ملتاعاً لألتقطها ، رأيت على الأرض زهرة قرنفل حمراء ، يابسة ، وقد اسود دمها القديم . . . مددت يدي الى الزهرة بخشوع وخوف . كانت لفرط ما انسحب عليها من زمن . رقيقة مثل جنح فراشة . وحين أخذتها برفق بين أبهامي وسبابتي تفتتت بعض أوراقها . . . وسقط ترابها الأحمر على الارض . . .

كيف تدبرت حمل تلك الاشلاء ؟

كيف جهدت في أن أمسح بقاياها على الارض ؟

كيف اعدت الرزمة الى مكانها . . . وهربت أحمل احساساً بالذنب والاثم والخطيئة . . . ؟

لسنوات ظل ملمس القرنفلة اليابسة يحرقني . . كان يخيل لي أنني أتعذب بسر الامارة وحدي . . . .

وتحكي عمتي كيف أن الامير تذوق يتمه . . وهو صغير . مات ابوه وهو ابن بضع سنوات ،



ثم لم تلبث أن ماتت امه ، فاتقدت عيناه بالاسرار منذ ذلك الحين . . وأخذه يتمه الى الحرمان . . . ولم تمض عشر سنوات الا وكان قد ارتدى مسوحه ..

تحكي عمتي الكبيرة ذلك ، وتدمع عيناها . . . أما أنا فكانت روحي تتوهج بفعل نار هي مزيج من غيرة وحزن ، ويخيل لي أنني استعيد صوت «عمرو» وهو يصرخ في مسرحية «الزباء» :

«أواه خالي . . لقد فقدت أبي وأمي . . . ولم يبق لى في الحياة سواك» . . . ثم يخيم على المسرح ظلام مرير ، وتعبر اشباح ، ويسمع صوت أمي يغني :

ظلام الـــــــــــيـــــــــــل قــــــــــد جن
وبوق الهم قـــــــــــــــــــــــــــــــد رنَ
فنم يـــــــــاطــــــــــفــــــــــل لن يهنــــــــا
الا يـــــاهــــــم يـــــكـــــفـــــيـــــنـــــا
لـــــقــــد جــــفت مـــــآقــــيـــــنـــــا
لو أن الــــــــدمـــــــع يـــــغـــــدونـــــا
أكـــــلــــنـــــا بـــــعض بـــــلوانـــــا
وتلتبس الاصوات . . . .

كان أميراً ، سحره في روحه . . . وبين شفتيه . .

واحسبني كنت في السادس الابتدائي حين نضج ذلك الموسم ، وامتلأت كرمته بالخمرة على غير ميعاد . .

حبس الأمير نفسه أياماً يترجم مسرحية اسمها «هوراس» عن الفرنسية . . . ومباشرة عرفت ساحراً أخر ، اسمه «كورنيه» وسحراً لاذعاً اسمه المسرح . .

لقد تقطع على ذلك الزمن الحميم زمن يقارب الاربعين عاماً ، ومازلت حتى الساعة استطيع أن أتبين اصوات الممثلين يعلو بينها صوت «كاميل» وهي تواجه أخاها الذي قتل حبيبها من أجل روما . .

روما ؟

روما التي من أجلها ذبحت الحبيب ؟
روما هذه ، اكرهها كل الكره . . . ليت
الصواعق تنقض عليها . . ليتني أرى أخر



روماني صريعاً على الارض يتخبط
بدمه . . . آه . . هل تستجيب السماء
لدعائي ، لكي أنام ناعمة البال ؟»
أخرجني المسرح من طفولتي . . .
في ذاك الصيف فتحت المدرسة أبوابها ، ياللغرابة . . .
وتوافد اليها شباب . . . ولم يلبث أن جاء الامير ، يحمل مسودة المسرحية التي ترجمها . . .
ويقرأ أحدهم بصوت مرتفع . . . ويتدخل الامير ، فيعلق على القراءة ويشرح النص . . .
ثم توزع الادوار . . . وتبدأ التمرينات . . .
يومياً من الصباح حتى الضحى العالي . . . والشباب يتدربون . . . والامير واقف عن كثب يكتفي بأن يؤمى وأن يقول . . .
– هكذا . . . وليس هكذا . . .
ويعاد الدور . . . وأنا من مكان مهمل ، أصغي ، وأعيد الاصغاء وأفهم ولا أفهم . . .
فقد كانت حمى من نوع جديد ، تدشن السنة الاولى من مراهقتي . . . فلا أكاد اتبين كيف تتصارع أنواع الحب . . . وكيف تلتبس . . ولاول مرة يأتيني صوت واضح ، ينبض بحب الوطن . . وهو «هوراس» الابن ، يواجه «كورياس» بعبادته لوطنه :
– خنقتُ في . . . فأختنق فيك الشعور ، قدس حقوق الوطن . . وقطع أوصال الأمال . .
الالب اختارك ؟ ولست عارفك بعد اليوم . .
– أما أنا . . فأعرفك . . . وذاك ما يقتلني ، هوراس . هذه الفضيلة القاسية لم تكن في حسابي . لقد قضت علي قضاء مبرماً ، ثق انني اقدسها تقديساً ولكنني احير في تنفيذها . . .
أجل . . الحيرة .
فاذا كان الشعر ، قد قدم بالحدس وحده ، لذة التعبير عن شيئ ما ، غير واضح ولا صالح للكلمات . . . فان المسرح قدم لي ، مبكراً عذاب الحيرة حين تصطدم عاطفة بأخرى . . . وحين يلتبس الاسود بالابيض . . .
وما كادت التمرينات تنتهي حتى كنت قد حفظت المسرحية كاملة . . . واذ اكتشفوا ذلك ، واذ انتبه اليه الامير ، فقد دوخني ثناؤهم عليّ ، وتمنيت من كل قلبي أن يقبلوني وأن يعطو لي مكاناً في اسرتهم السعيدة . . . ولكنني كنت صغيراً . . . أصغر من أي دور في هذه المسرحية . . . ولهذا دمعت عيناي على وسادتي . . . ولعنت صغر جسمي . . . حتى لقد تمنيت في ساعة يأسي الموت . . . ثم انقذني الرسم . .
الشعر . . والمسرح . . والرسم فوق ذلك . .



ففي يوم من أيامِ ذاك الصيف ابتدأ رجل اسمه «صبيح نعامة» عمله . . . فراح يرسم كواليس المسرحية . .

كان طويل القامة ، اسمر الملامح غريبها . وكان له مثل أبي ، وعمي ، وكل السحرة ، اصابعه التي تصنع المعجزات . . . وانكفت في روحي شمس ذاك اليتيم الهندي ، «لويس رومانوس» . . . وقررت بصبر وتواضع أن أختار عبوديتي الجديدة ، فتعلقت «بصبيح نعامة» تبعته حين ذهب . فا ابتاع قماش الكواليس .

وصحبته حين ذهب الى سوق غريب . لعله سوق العطارين وأبتاع : مساحيق عجيبة تماماً . كما يفعل السحرة . .

واحتوتنا قاعة كبيرة في مكان اسمه «السمينر» حيث يتعلم القسس الصغار... وجيءْ بأوعية . . . وبأدوات الرسم . .

وحين عدت ليلاً الى مكاني تحت نجوم الصيف كنت مأخوذاً بكل تلك المعجزات . . .

لقد حاصرني السحر من كل الجهات فبدأ لي أنني أوشك أن اقتل نفسي قلقاً وحيرة . . .

كنت لاعرف ماذا اريد . . .

وحين كنت اكاد اريد . . . ماكنت اجدني استطيع ارادتي . . . فها أنذا الساعة ، تحت نجوم الصيف . . . لم اتدبر أن اصير كاهناً ولا شاعراً ولا ممثلاً . . . ولا رساماً . . . بل مجرد ولد مراهق في عالم ممتلئ بالسحرة . . .

اكتمل كل شيءْ . . . وأخذ انسجامه . . . .

اختلط الشعر بالموسيقى واختلطا معاً بالرسم . . . فهو مسرح تفوح فيه روائح شاذة يختلط فيها «الايثر» الذي استعمله صبيح في المكياج بشذى مساحيقه المصنوعة من صبغة (الستامبر) . . بعطر النفتالين الصادر عن السجاد القديم . . . بعرق الرجال . . . وعرق «كاميل» وكان يؤدي دورها فتى حوله «صبيح نعامة» الى فتاة ! !

أما أنا فكنت أتحول الى مجنون . . .

ومع هذا فلم يكن ثمة من هو أسعد مني . . . وتطلعت من زاوية بين الكواليس سمح لي أن اختبئ فيها . فوجدت الحياة متوترة : . . . الهواء والاضواء . . . والعيون والكواليس . . وحبل الستارة الذي اوكلوا لي أن اسحبه في اللحظة الاخيرة . .

. . . أطفئ الضياء في الساحة الكبيرة .

ويأذن من اشارة حاسمة . صدرت من مكان مبهم ارتفع صوت الموسيقى . طاغياً ، معلناً انتصار الوهم الجميل . . ومن مكاني رأيت النور يسطع داخل ذاك العالم الجديد . . . وكان عليّ أن أسحب الحبل . معلناً انتصار حقيقة جديدة . اعرفها جيداً . واتقنها ، وأقبل أن أكون



المخدوع بها ، حتى قرارة نفسي . .

ساد الصمت . .

ومن مكاني كنت أرى «كاميل» واعجب بجمالها وأفهم محنتها وأشتهيها . . اشتهي حيرتها بين حبيبها وأخيها بين وطنها ووطن الذي تحب . . بين الألب وروما . . فهي تلخص تلك الحيرة ، اذ ترد على صديقتها :

- تريدك ان تكلمني ؟ انها على خطأ ! . . . وهل تراني أقل ألماً منها ، فلا تحسبني أذرف الدمع السخين لنصيبي من هذه الويلات ؟ الخطب جسيم يخيفني في كلا الفريقين . . ارى خطيبي ، وأملي الوحيد مهدداً بالموت ، كما الحظ الخطر المحدق بأخي العزيز . . . ذهبت عند العراف – ذاك اليوناني هاتف الغيب ، المقيم في منحدر «الافانتين» وهاك ما قاله بحروفه : «الألب وروما غداً يأخذان وجهاً جديداً وستبلغين من الأمال حظاً سعيداً . . وينشد لك «كورباس» في الحب نشيداً . . . يدوم عهده خالداً سعيداً ، كانت (كاميل) تتحدث أما أنا فكنت أرى روما والألب تولدان في روحي واذني على صوت (كاميل) وشفتاي ترددان الكلمات نفسها :

-- علقت على هذا الفأل أملاً كبيراً . . .

وارتاحت نفسي لأنفراج هذه الكارثة

ولكن . . حل الليل وحجب عني هذه

الامال الجميلة . . هاجمتني احلام

مفزعة . . مذابح . . مجازر . . وأهوال

غاب عني طيف الامل وحل الرعب

محله . .

تقطعت ساعتان معجزتان . . . لم أكن وحدي المصاب خلالها بالسحر ، بل كانت البناية نفسها والخشب والزجاج والاحجار . . والزمن ، وكما في «الجمعة العظيمة» كان لابد أن ينتهي ذاك العمر المتوتر ويخيم الصمت على المدرسة التي اقيم فيها ذاك المسرح الغريب ، وأن ننسحب جميعاً ، الى ذواتنا ، نفكر في الخشبة التي حولها السحر الى عالم ، والعود الذي صيـــرّه صليبـــاً . . . . والولد الذي اتخذ دور أنثى يستدر حزنها الدموع . .

وكما يعودُ الامير من موعظة الجمعة العظيمة ، عاد عمي تلك الليلة متشحاً بمجده الوقور . . . ساهماً . . . ملتمع الخدين وتقدم الليل . . .

والان هوذا ولد مراهق . .

والحرب العالمية الثانية ، التي لن تلبث بعد قليل ، أن تطفئ نيرانها فتقرع الاجراس ، والنواقيس . . وأنا مضطرب لأجراسي الصامتة وروحي المعذب . . . كان جسدي يؤلمني لفرط



ماتحرقه رغباته . . . وفي وحدته كنت اتحسس ذاك التحول الصارم الذي بدأ يصيب عظام فكي وتخلع ترقوتي . . .

وضاقت عليّ ملابسي . . . . والتبس على جسمي لون قميصي . . فلا أنا ولد . . . ولا رجل . . .

لا كاهن . . . ولاشاعر . . . ولاممثل . . . ولارسام . . . ولا عازف . . . في عالم مضطرب مليئ بالسحرة ، وأصحاب المعجزات . . .

وبين كل هؤلاء ظل الأمير لسنوات يتمسك بامارته . . وكنت ادرك بذهول ، أنه يفعل ذلك بصعوبة . . . وأن دفاعه عن مجده صعب ومؤلم . . . وأن اشتراكي معه في هذا الدفاع عبث . . . فقد كانت تزاحمه في روحي الاسماء والملامح وحرارة الكلمات . . . .

وفي كل ليلة كنت أصغي اليه ، في وحدته ، وهو يردد ذاك الصراخ الحار «أين شوكتك ياموت ؟ وأين غلبتك ياجحيم ؟ . .»

لاموت . . . ولا غلبة . . .

فسوف يبرد السحر . . . وتصبح تلك الهامة مكللة بالفضة ويتبدل لون الوشاح فيتخذ ضراوة الدم والاحزان . . . ويصبح الصراخ في الليل هكذا «من ذاك الجبار القوي الذي لايرى الموت ؟»

في ذلك المساء كنت قد تجاوزت الثلاثين . .

وكان النعش يمشي على مهل وكان الشمامسة الذين بعمر أبي ينشدون للأمير المسجى في تابوته «ان الكنيسة تودعك بسلام . . .»

وعند الضريح الذي اعدوه في «بيت العماذ» وجدت المدينة التي كتبت لها تاريخها «ويزداندوخت» تلك الشريفة الاربيلية . . . والزباء . . . ويوسف الصديق . . . والامير الحمداني . . . . وسميراميس . . . وذاك الذي رأينا نجمه في المشرق . . والكاهن الذي يحمل تاج الامير الراحل وصولجانه . . . ووجدت أبي واعمامي . . . واهلي . . . ووراء هذا الموكب كنت ارى طفلة . . . تحمل بين اصابعها قرنفلة يابسة .




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل السادس

المدرسة




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل السادس
المدرســة

كانت تقع يسار بيتنا،لا يفصلها عنه ، سوى بيت «المجنون» ، ثم بيت اختي الكبيرة .

بابها كبير ، واسوارها عالية . . وفناؤها يعج بالاولاد . . وبين حين وآخر ، يسمع صوت ذاك الناقوس ، معلنا بدء الدروس أو انتهاءها . . مذكراً ربات البيوت في المحلة . أن الوقت قد تقدم . . ولن يلبث الاولاد أن ينصرفوا لموعد الغداء . .

يسار بيتنا .

ونحن نسمع كل صباح الحرس الاول ، وندرك أن الاولاد لابد قد اصطفوا الان في ساحة المدرسة ، وأنهم لن يلبثوا ان يرفعوا أصواتهم بتلك الاناشيد التي غدت لفرط تكرارها جزءاً من ذاكرة المحلة ، بحيث حفظها الجميع ، كما تحفظ الصلوات . . اناشيد عن الوطن والامة والملك ، تترادف كلماتها في اللحن غامضة احياناً . . ولكنها في سياق الذاكرة تتناسق وتعتق معانيها في ايما غرابة أو شذوذ . . .

ويستمر هذا المهرجان ، عشر دقائق او أقل . . ثم يأتي ذاك النشيد الختامي أقرب ما يكون الى صلاة الصبح :

«في حفظكِ . . يا أمنا . .

نستودعك . . قلبنا . .

ورجانا . . يا أم . .

أن تصونيه آمناً . . .»

ثم يخيم الصمت ، ويرتفع صوت معلم الرياضة آمراً :

– مدرسة . . استرح استعد . . يساراً أو يميناً در . . الى الصفوف سرْ . . .

ويبدأ الدوام . . ولساعات تظل طقوس الدروس ، وصوت الناقوس ، وترديد الطلبة لأقوال المعلمين – يظل كل ذلك يشكل في وعي المحلة احساساً بالطمأنينة والسلام . . حتى يقرع الجرس الاخير ، ويعلو إثره زعيق الاولاد ووقع اقدامهم وهي تهرول في الطريق . . ويعرف الجميع ان الدوام قد أنتهى وحان موعد الغداء . . .

*

يسار بيتنا . . لها طعم الجيرة ، ونكهة القرابة . .



وأظل اسأل امي وعمتي ، عن الوقت الذي سيبعثون بي فيه الى المدرسة . . أسأل . . واعرف الجواب مقدماً :

فلقد اعتادت أمي أن تبتسم لي ، وتمسح على شعري قائلة بنبرتها الحنون : «عندما تكبر ياعزيزي . .» وأسألها : «متى ؟ ، .متى أكبر؟» فترد عمتي من مكانها : «ستكبر ياولد . . . . ستكبر . . لماذا أنت على عجلة من أمرك ؟»

الله . . . كم شغلني هاجس أن أكبر . . . فكل المواعيد . . كل الاشياء الجميلة . . . كل الامور التي اردتها . . وتمنيتها . . وحملت بها . . كل ذاك كان مرهوناً بهذه المعجزة – معجزة أن أكبر . . وما كنت أكبر ! . كل يوم كنت اتلمس نفسي ، ولا جد في جسدي أيما علامة على أنني اكبر حقاً . . وما كان ثمة سوى علامات مبهمة . . ويا لها مفارقة أنني حين كبرت حقاً ، كنت اسمع دائماً من يقول لي :

– انظر الى نفسك ، لقد غدوت رجلاً . وما زلت تسلك مثل الاطفال ! . .

كنت اريد ان اكبر ، لانني أدركت مبكراً ، أن تلك هي الوسيلة الوحيدة لا تحرر من الكبار وليس من طفولتي.. أو فضولي . . أو شراهتي . . أو من براءتي . . .

وما كان ينبغي ان اكون على عجلة من امري تماماً ، كما نصحتني عمتي الكبيرة . . ولكنها سنة واحدة كما وعدوني . . سنة تمضي ، «وعند ذاك سنبعث بك الى المدرسة . .» هذا ما قاله لي أبي . . وأبي لا يكذب . . .

ولكن ما أطول السنة في روح صبي لجوج ، كم يوم ، وكم ليلة . . وكم فطور ، وكم عشاء . . . ولقد كان يزيد من ثقل الانتظار ، انها هذه المدرسة ، تقع يسار بيننا ، واني لأمرّ بها يومياً . وأنا في طريقي . الى دكان «رزوقي البقال» لا بتاع حلواي ، وأتوقف عند بابها الكبير ، اتطلع الى الفناء الحاشد بالاولاد . . . وينتهرني يوسف البواب ، ملوحاً بذراعه الطويلة :

– رح الى البيت ياولد . . . إمش من هنا ! ! ثم لا تمضي بضعة شهور حتى ينقلب الحال . . سأكون أنا داخل المدرسة عند ذاك ، قرب الباب ، ابكي ، اريد الخروج ويوسف البواب ينتهرني ملوحاً بذراعه الطويلة . . .

– ادخل الى الساحة ياولد . . أمش من هنا . . . وتخنقني دموعي . . فأنسحب الى الجدار الذي يلاصق بيت اختي الكبيرة ، علها تطل من تلك الكوة المفتوحة على حوش المدرسة ، فتراني . . وترثي لحالي ، وليس اكثر من ذلك . . ولا تطل اختي ، ولا يرثي لي أحد . . بل انا الذي ارثي لنفسي ، واذكر الاخت «ماري لويز» ، وعصافيرها المحبوبة ، وشجرة التوت العجوز ورائحة ملابسها الحنون .

في البيت . تكتشف عمتي الكبيرة بعينها الحولاء ، عيني المحمرتين . . فتأخذني الى حضنها



وتستجوبني :

– لماذا بكيت ياولد ؟ . . ضربك المعلم ؟ .

ويضايقني اكتشافها لبكائي . . يضايقني استجوابها . . وأضيق بضعفي ، لاني ادرك انني وأنا بين احضانها ، اوشك أن ابكي من جديد ، واتعرض لتقريعها لي، على عادتها : «يبكي مثل بنت . . اما تستحي ؟ . أنت رجل . .» وتعود فتسألني :

– ضربك الاولاد ؟

– لا . . .

– لماذا بكيت اذن ؟

– لم ابك . . .

– كذاب . . . قل . من اعتدى عليك ؟ . . .

– لا أحد . . لا أحد . . .

ولا تصدقني . انها بحاجة ماسة لان اعترف لها بأن احداً اعتدى عليّ ، فتعيد علي وصاياها الازلية : «اذا اعتدى أحد عليك فاعتد عليه أنت ايضاً . . . يضربك . . اضربه . . يبصق عليك . . ابصق عليه . . يشتمك ، اشتمه . , أتسمعني ؟ .» وعبثاً تعترض امي . بل عبثاً يعترض أبي لانها ستصبح بهم :

– تريدون ان يكون مخنثاً ؟ . . تقول كلمة «مخنث» باحتقار قاس . يجعلني حقاً اكره أن أكون «مخنثاً» رغم أنني لم أكن أفهم معنى الكلمة . . .

ولا تكف عمتي عني ؟

– إذن قل . . لماذا بكيت ؟ ولا أجد مناصاً من الاعتراف لانني اعرف أنها لن تكف عني ، ولانني بالتالي محتاج لان اعرف حكمها ، عما ان كنت في سلوكي «مخنثاً» . .

همت لها :

– المدير . .

– هو الذي ضربك ؟ . .

– لا . .

– ماذا فعل اذن ؟

– قال لي «تعالي . . . تعالي . . .» نادى عليّ . . وقال : «تعالي . .»

– وماذا يعني اذا قال لك «تعالي . . تعالي . .» ؟ لا يعرف العربي جيداً . . صار له عشرين سنة هنا وما يعرف الفرق بين المذكر والمؤنث . .

– لقد جعل الاولاد يضحكون مني . . .



— كانوا يضحكون منه . . أما انت فبكيت بدون داع ، وصرت مهزلة . . لو ضحكت معهم ، لما ضحكوا منك . .

كانت عمتي الحكيمة على حق . فانا حين ناداني ذلك المدير ، وقال لي «تعالي . . . تعالي . .» لم يخطر لي قط أن اضحك . . بل على العكس انتابني خجل عميق ، واصابني الحصر . لانه خاطبني كما يخاطب بنتاً . وقد حدس الاولاد ذلك فظلوا لايام ينادونني ضاحكين : «تعالي . . تعالي . .»

تركتْ شعري يطول ، حتى اصبحت في الرابعة من عمري وكانت تمشطه وتغني له ، شأن الاولاد المدللين فانا وحيدها . . وكانت تراني أجمل الاولاد . . وتتباهي بي حين تأخذني معها ، وقد البستني الحلة التي صنعتها بنفسها ، وتطرب . . وتلتمع عيناها ، حين يتطلع الناس اليّ ، ويسألونها :

— ولد أم بنت ؟

فتبتسم بزهو ، وتقول لهم :

— احزروا .

وما كانوا يخيبون لها ظنها ، فيحزرون أنني بنت ، واذاك ، حسب ، تروح تكشف لهم معجزة وحيـــدها (الحسيني) مثل بنت ، وتطلب منهم ، أن يدقوا على الخشب ، وتروح في سرها ، تصلي ، أن يكف الله عني عيون الحاسدين . . .

ولكنني كنت اكبر . . وصار شعري يضايقني . . وعافت نفسي الملابس التي تصنعها لي بيديها الحانيتين، ورحت أصغي الى تحريض عمتي بأنني صرت رجلاً . . . والى سخرية الاولاد الذين في الجوار ، من شعري . . وفساتيني . . .

كان اولاد المدرسة يسمون المدير «شكري جوخ» لكثرة ما كان يردد كلمة «جوخ» التركية في حديثه . أولانهم ما كانوا يعرفون معناها ولقد شاع هذا اللقب ، فانتقل من المدرسة الى الناس . فما عاد أحد يعرف مدير المدرسة الا باسم «شكري جوخ» . . . حتى ان ابنه ، وكان معنا في الصف راح يستعمل التسمية نفسها . . . في تلك السنوات كان «شكري جوخ» قد جاوز الخمسين وكان مسؤولاً عن عائلته كبيرة ، تعيش جميعها ، محشورة في بيت صغير من بيوت الوقف ، وفضلاً عن انه بالاصل ذو مزاج حاد ، كانت مسؤولياته في البيت والمدرسة ، تزيد من حدة مزاجه . فما اسرع أن تجحظ عيناه ، ويحمر وجهه ، ويتهدج صوته ، ويغُدو كلامه مزيجاً من العربية والتركية تتخللها مفردات مفاجئة ، لا إتنتمي الى ايما لغة من اللغات . . وفي حالات كهذه كان السدير يثير فينا احساسين متناقضين من السخرية والخوف . .

ولكن المدير «شكري جوخ» كان في أقصى حالات انفعاله يظل حكيماً . . وكان وهو في



سورة غضبه . لا يفقد قدرته على التمييز . وقابليته في الحكم على المعضلات التي تواجههُ وما المعضلات التي تواجهه سوانا نحن الاولاد الذين يقارب عددنا ، الخمسمئة بيننا الفقير والغني . . وابن المتنفذ وابن الذي لا نفوذ له. وابن القروي وابن المدينة . . ؟

على ضوء ذلك ، كان المدير يتقن اختيار ضحاياه لذاك النوع المبتكر من العقاب العلني الذي احسن اختراعه واحسن اداءه فصار بعد عدة سنوات من «الادارة» موسماً ينتظره الجميع ويخافونه في آن واحد . .

في الفرصة الكبيرة التي تفصل بين الدرس الثاني والثالث كنا بين حين وأخر نفاجأ بتلك المراسيم ، التي تشبه في طابعها الاحتفالي مراسيم عقوبة الاعدام :

يقرع الجرس . قبيل انتهاء الدرس ببضع دقائق ويسوقنا المعلمون ، فنصطف في الساحة ، قلقين منبهرين . . ويقف المعلمون صفاً واحداً ، يدارون حرجهم بابتسامة ركيكة ، ثم يصدر معلم الرياضة ايعازه بان نستعد . ونرى عند ذاك المدير يخرج من غرفته ويمشي الى وسط الساحة متعثراً بعوائق وهمية يسببها قلقة الداخلي من ان يكون قد أخطأ التقدير . . فاذا استقر في مكانه ، نادى معلم الرياضة على الولد : «فلان بن فلان» فيخرج «فلان بن فلان» من مكانه مبهم ، ويقف أمام الحشد . ممتلئاً بدوره : فارساً من الفرسان وصعلوكاً من الصعاليك . . ويسود الساحة صمت موحش . يعكره صوت «شكري جوخ» وهو يتمتع بسرد وقائع الجريمة ، التي اقترفها فلان بن فلان . . بلغة مبهمة لا تؤدي سوى نصف وظيفتها ، فاذا انتهى من ذلك ، صرخ صرخته الشهيرة مخاطباً البواب ، بولص الجبلي :

— بولص . . امسكيه ! ! .

ويصدع بولص البواب بالامر الصادر اليه ، وينهض له ، بحذق ناجم عن خبرة عشرات السنين يمسك بالضحية . ويضع الراس تحت ابطه اليمين ، ثم بذراعه ويده اليسرى ، يجمع قدميها . . واذا بالولد قد التف حول جسد البواب مثل دودة وبرزت مؤخرته بشكل ظاهر . . وغدا مؤهلاً تماماً للعقاب . . .

عند ذاك يشهر المدير عصاه . التي هي اقرب شبهاً بالخيزرانة ، من ردن ذراعه ، ثم يلوح لنا بها . ويجرب لعدة مرات ، موقع خيزرانته بحركة وهمية ثم يهوى بها بطريقة محسوبة على مؤخرة ذلك الولد الذي جعله بولص البواب دودة . . . يهوي بها . . . مرة . . مرتين . . خمساً . . لا بد بعدها ان نسمع صوت الضحية . . لان بولص نفسه عند ذاك كفيل بأن يوحي لها ، بأن تصرخ . . عن طبيعة أو عن دهاء . . وسيكفي الصراخ مدير المدرسة ، عناء الاشمئزاز . . . فيكف عن الضرب منتصرا وينسحبُ رويداً وقد تشعث شعره وسال العرق على جبينه وراح يلهث هنيهة من الانفعال . . ثم يحيل البواب الضحية الى مكان مجهول . . ويصدر لنا الامر بان

نتوجه الى الصفوف ، ننتظر انتهاء الدوام . نتحدث عن الحدث الجلل الذي شهدته المدرسة ، موزعين بين الخوف والفكاهة المريرة وكل منا يردد لصاحبه :

— بولص . . امسكيه . . .

ولكن حدث ذات يوم ما جعل هذه المراسيم ترتبك . . وتخرج عن مألوفها الاحتفالي . .

لعلي كنت آنذاك في الصف الثالث «باء» . . واذكر ان الساحة كانت صامتة ، نتابع حفل العقوبة العلنية . وهو يتخذ تفاصيله فقرة فقرة . . .

نودي على «فلان بن فلان» فاذا به ذلك الولد «صبري» ابن عامل البلدية . . وهو ولد جسور . . طويل القامة ، رسب في الصف الخامس سنتين متواليتين .

وخرج المدير من غرفته . . ووقف في الساحة والقى قرار التجريم بايجاز ، مكتفياً بأن يصف «صبري حنا» بانه ولد «ادب سز . .» وسيطرد قريباً من المدرسة . . وهكذا لم يتح لنا ان نعرف ما الذي ارتكبه «صبري» . . هل دخن سيكارة في مراحيض المدرسة ؟ هل شتم أحد المعلمين . . أو معلم الدين ؟ هل سرق أحد الاولاد ؟ أم . . .

ذات يوم . وكان الوقت صيفاً رأى اثنان من الاولاد «صبري ابن عامل البلدية» يأخذ معه جميل ابن الخياطة ، ويختفيان في خربة بيت الجلبي..قال أحدهما أن صبري وصاحبه اختفيا في سرداب الخربة . . . وانه سمع صوت جميل يبكي ويقول «ما أريد . . ما اريد . .» . أما الثاني فقد ظل يردد انه لم ير شيئاً ، ولم يسمع جميل يبكي . . وحين احتلنا عليه بأن يتحدث بما سمعه ورآه . وبعد الحاح شديد اكتفى بأن قال : ان صبري هذا ادب سز» . . ولم نفهم شيئاً . .

صاح المدير ببولص البواب ، صيحته الشهيرة :

— بولص . امسكيه . .

وهجم بولص على صبري ولكن صبري قاومه . . وحاول بولص مرة أخرى ولكنه كان يجد صعوبة في ان يخضع هذا الولد الكبير ، ولم يفلح الا في أن يضع رأس صبري تحت ابطه . . وكان الموقف حرجاً جداً ، فلم يسبق ان شهدت المدرسة تمرداً كهذا . . وما كنا ندري ، ان كان يصح أن نضحك أو نبكي من الخوف . .

مرت لحظات وبدا واضحاً أن بولص الجبلي ، عاجز عن تأدية مهمته ، ولقد أدرك المدير ذلك فاختصر المراسيم ، وراح ينهال بخيزرانته على مؤخرة صبري ، لكنه ، كان يخطي فتقع الضربات كلها على جسم بولص البواب . . . وكان المدير يزداد لذلك غضباً . . . حتى ادركه التعب فوقف يلهث في حين تملص صبري من البواب ، أو لعل البواب ، أطلق سراحة ، فانفلت رافع الراس . . ورأيناه يتوجه الى الباب . . . ويغادر المدرسة . . . ولم يعد الى الدوام بعد ذلك قط . . .



يسار بيتنا . . . عالية الاسوار ، مهيبة النوافذ يحرس بابها بولص الجبلي ، ويوسف البواب . احياناً كنت اقارنها بكنيسة . . واخرى كنت اشبهها بدير . . . وكنت اقول لنفسي : المعلمون اشبه بالكهنة والدروس هي الصلوات . . . اما الدينونة فهي ذاك الامتحان الرهيب ، الذي يجري كل عام ، حيث يكون على الراعي أن «يفصل الخراف عن الجداء» . . ثم تغلق المدرسة ابوابها . وتغدو موحشة يسكنها الحر والغبار والاهمال . . . وصور اولئك «القديسين» المعلقة في صدر كل صف فوق السبورة :

حضرة صاحب الجلالة . . وصاحب السمو . . . كان معلم الرياضة ، قد أخذنا الى سطح المدرسة ، وكنا سعداء باللعب . . ثم فجأة سمعنا ناقوس المدرسة يقرع بطريقة غريبة . . وتناهت الينا من الفناء اصوات تصيح . . اعقبها لغط ، ونداءات غير مفهومة . وقال لنا المعلم : «انزلوا بسرعة . .» ، ورأينا المدير واقفاً وسط الساحة ، وقد فقد هيبته . . وكان المعلمون مرتبكين . . وعند الباب وجدنا عدداً من الشباب الغرباء ، يبكون ويضربون رؤوسهم . واذ كنا نرتدي ملابسنا في الصف ، جاء بولص البواب ، شاحب الوجه وقال لنا «هيا . . . كل يذهب الى بيته . .» ولم تمض بضع دقائق حتى انصرف الجميع ، واغلقت ابواب المدرسة على عجل .

في البيت وجدت عيني عمتي الكبيرة دامعتين . وسمعت امي تندب حظ ذاك الولد الذي صار يتيماً بعد ان قتلوا أباه . ثم لم يلبث أبي أن عاد مبكراً وقال لعمتي ان عدداً من الشباب قد قتلوا القنصل الانكليزي . واذ وجدتني عمتي ، وحيداً وخائفاً . فقد اخذتني اليها ، وحكت لي ان الانكليز قتلوا الملك غازي . . .

لسنة أو سنتين ظلت صورة الملك غازي معلقة في الصف . . وكنت بين حين وآخر احدق بها كما اعتدت التحديق بصورة القديسين متسائلاً ان . كان الانكليز قد قتلوا بالطريقة نفسها التي قتل بها قطاع الطرق «الربان هرمز» بسبب ايمانه . . . وحين يأخذني الضيق ، كنت اهرب من صورة الملك غازي ، الى صورة ابنه ، التي وضعوها الى جانب صورته وكتبوا تحتها «حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل الثاني المفدى» وما كنت اعرف معنى المفدى . . وما كنت استطيع ان افهم كيف يمكن لولد اصغر مني ان يكون ملكاً . . وهو لا بد يلعب ويبكي . . والملوك لا يبكون ولا يلعبون . . ثم جاء معلم النشيد يوماً ولقننا نشيداً جديداً :

أقــــبــــل الســـعـــد ووافـــانـــا السرورْ
وتجلت طـــلـــعـــة الـــيوم الســـعـــيـــدْ
وتلا هـــارون من خـــلـــف الـــدهـورْ
صـــفـــحـــات الـــعـــز والمجد الـــتـــلـــيـــدْ
يوم ميلاد الملك



ثم جاء معلم آخر ولقننا نشيداً آخر :

عبد الاله . .
ياعظيم الصفات
يا أمير المكرمات
دمت للعلي
دمت للثبات . . .
دمت للمعالي
دمت للعوالي . .

ياوصي فيصل
أنت خير موئل
دمت للمستقبل
رافع العماد . . . !

آنذاك كانوا قد رفعوا صورة الملك غازي من مكانها ، ووضعوا بدلاً عنها ، صورة رجل ، يشبه ابن خالة امي الذي يعيش في لبنان ، وكان مكتوباً تحت الصورة بالخط الديواني ، «حضرة صاحب السمو الملكي الامير عبد الاله الوصي على عرش العراق وولي العهد المعظم» . .

في المعسكر الذي اقيم لنا – نحن طلبة الكليات – في قرية سكرين قرب مصيف سرسنك حدثنا بعض الطلبة قائلين «أن الوصي جاء الى المعسكر يقود سيارة (سبورت) مكشوفة . . توقف وتحدث اليهم . وأن احدهم ، سأله ، ان كانت سيارته التي يقودها تعمل بالبانزين أم بالكوكا كولا . . . في اليوم التالي جمعنا آمر الفوج في ساحة الاستعراض وخطب فينا موبخا لاننا لم نحسن الحديث الى «سيدنا الوصي» . . وعاقبنا بالوقوف ساعة تحت شمس تموز الحارة . .

بعد ثلاثة أيام . .

حين كنا – أنا وبعض لطلبة – نستريح قرب العين في مصيف سرسنك ، مر الوصي . وسلم ثم جلس وايانا يحيط به مرافقوه وراح يسأل كلاً منا عن كليته . . وعن هواياته . . .

بعد سنوات عاد صديق من بغداد يحمل صورة الوصي ، وهو معلق بحبل عند باب المعظم» . . .

ثم يأتي يوم الخميس . . . وفي الفرصة بين الدرس الثاني والثالث كانت تجري مراسيم تحية العلم . . . كانت السارية تنتصب في الساحة ، وعند قاعدتها ركب العلم وشد بالحبل بطريقة بارعة . . . ونصطف جميعاً . . ويتقدم ثلاثة من طلاب الصف السادس يرتدون ملابس الفتوة



ويعطي معلم الرياضة الايعاز بأن نستعد . . ويتقدم الطالب الاكبر ، ويرفع العلم بهدوء فنرنو ، اليه . وهو يصعد في اذهاننا ، وما يلبث أن يخفق . . وعيوننا شاخصة اليه . . حتى يعود الطالب الى مكانة بين زميليه ، ويؤدي الجميع التحية . . ويهتف بنا معلم الرياضة ان نستريح . . ثم يتقدم طالب آخر ويروح يقرأ بصوت حاد ، ومرتفع :

عش هــــكـــــذا في عــــلـو أيها الـــــعــــلـــــمُ
فـــــانـــــا بك – بـــعـــــد الله – نـــعــــتصـــمُ

واحس رهبة وخشوعاً . . وافكر باليوم الذي سيتاح لي فيه أن اقف الموقف نفسه ، وأن اقرأ تلك القصيدة التي احفظها جيداً . دون ان افهم الكثير من كلماتها . . .

يعقب القصيدة ، نشيد ، يتلوه طالب ذو صوت رخيم :

عـــــــــــلــــــيك مني السلام
يـــــــاأرض اجــــــــداد
فـــــــفـــــيك طـــــاب المقــــــامْ
وطـــــــاب انشـــــــادي . . .

ويرتبــط في ذهنــي معنى العلم «بارض اجدادي» . . وانخيل سهولاً خضراء تمتد مع البصر ، وتلالاً وادعة . . وناعوراً . . وشجرة تين . . تماماً ، كتلك السهول التي كنا نمر بها ونحن في طريقنا الى «دير السيدة» . .

ثم من جديد ، يصرخ بنا معلم الرياضة : الى الصفوف سرْ . . .

وهناك : تكون في انتظارنا أبداً ، تلك الرحلات الخشبية ، التي مرّت بها قبلنا اجيال من الاولاد ، ثم غادروها ولم يبق منهم سوى علامات لا تكاد تبين ، بعضهم كان يجهد ان يعطيها شكل حرف محفور على الخشب أو زهرة مرسومة بقلم الحبر . . .

وما أن يستقر كل في مكانه ، حتى يقبل المعلمون ويصيح المراقب «قيام» فننهض جميعاً ، متطلعين الى رجل أصلع ، ذي أنف معقوف وعينين كبيرتين ، يقف امام السبورة ، مقطباً ، ويقول بصوت متعب «جلوس» ويبتدئ الدرس . . .

درس القرأة . . ودرس الحساب . . ودرس الدين . . ودرس النشيد .

كل درس له نكهته بقدر ما كان يثير فينا من متعة ويبعث في رؤوسنا من أحلام . . . وكل معلم له قربة من الروح ، وسطوته في الذهن بقدر ما كان يفلح في ان يجعل الدرس مهيباً وحبيباً الى النفس في آن واحد . . .



ولئن كنت قد أضعت في ذاكرتي تفاصيل الدروس الاولى ، والسنة الاولى في المدرسة . . انني . لن استطيع ان أنسى تلك الجمل التي كنا نرددها في درس القراءة : جملاً قصيرة وغريبة . تستفز خيالي ، فانتقل معها الى عالم اسطوري حميم . . فهي ذات وقع أقرب الى الشعر ، ما زالت عالقة في روحي حتى الساعة بعد ان تجاوز عمري الخمسين . . .

من دق بابنا ؟

من رأى ربابي ؟

من طوى ردائي ؟

أين ينام أبو أيوب ؟

ولقد كان (ابو أيوب) في ذهني لغير ما سبب معروف ، رجلاً ممتلئ الجسم فارع الطول ، يحمل بندقية صيد وينطلق على حصانه يصطاد الخنازير . . . وكنت اراه ، وأنا في الصف جالس على رحلتي الخشبية والمطر يسقط في الساحة مدراراً . . كنت اراه عائدا من الصيد متعباً تبللت ملابسه ، وجبيته ، والتمعت بندقيته على كتفه . . . وها هو يتوقف عند بابنا ، ويترجل من حصانه . ويدق عليه ، بتلك المطرقة الكبيرة التي من حديد . . .

ويأتي صوت امي :

«من دق بابنا ؟ . . .»

ويقاطع احلامي صوت المعلم ، وهو يصيح :

«الى متى نبقى على التل ؟ ، . .»

وللتوّ ، تأخذني خبرتي الى تلك التلال الموحشة التي تحيط بدير «ما ركوركس» . . . «تل البسمة» الذي على يمين الدير . «وتل أبو قرنين» الذي يواجهة . . . وتل «عين غزال» الذي على يساره . . . وأراني بين اهلي ، فوق «تل البسمة» . . والوقت قبيل الغروب ، وريح نشطة تعبث بشعر اختي وضفائر امي . . . وفي ذهني خوف من ذئب أصفر ، قتله الراهب في العام الماضي . . ورهبة من فارس ذي عينين واسعتين على حصان أبيض . . . ورويداً يهبط الظلام واسمع صوت اختي تهمس «الى متى نبقى على التل . .» ويظل السؤال عالقاً في حنجرني فما ان استبطئ ، مكوثاً . . أو أحسى بثقل الزمن ينبع من جديد اشبه ما يكون بمثل أو حكمة : «الى متى . . الى متى نبقى على التل . .»

تنقضي سنة ، مثل وهم . . فهو اول الصيف . . ويكون كتاب «القراءة الخلدونية» قد انتقل الى اجسادنا ، فصار قصائد نتلوها وصار أناشيد . . أما هو فتمزقت اوراقه واتسخت . . . ويقيم المعلم لنا نحن الملائكة دينونة جميلة . . . فامتحن بعد عذاب طويل من لمن الانتظار ، ما كنت تلك الايام ، اعرف ان سببه هو اسمي الذي يبدأ بحرف «الياء» . . فهو في الجدول آخر



الاسماء . . . أجيب على اسئلة المعلم الذي جلس في الرواق على رحلة صغيرة فبدا مضحكاً ومخيفاً بصلعته الكبيرة وأنفه المعقوف . . ارد على اسئلته(مثل البلبل) . . . وانجح . . «وأطلع الاول مكرر . .) كانت تقع يسار بيتنا . . وما تزال . .

أما بيتنا الذي كان الى اليمين فلم يعد بيتنا . . .

ونحن الذين كنا صغاراً ، كبرنا ، وتغيرنا . . وما عدنا نصلح لذاك الفرح ، ولا لذاك العذاب . . . والان عبثاً نبحث عن طفولتنا تلك حتى بافتراض أن نعود اطفالاً . . فبراءتنا ، كانت جزءاً من براءة جيل مضى من الاولاد . . . وكل ما تبقى : اسئلة نتداولها بالتذكر . . أو بالحنين . .

ما الذي يمكن ان يكون قد حل بذاك المدير وعائلته الكبيرة . . واين اولئك المعلمون الذين ، كانوا موكلين بدون تفويض رصين ، باخلاقنا واذهاننا وعواطفنا ؟ . . ويوسف البواب ؟ . . وبولص الجبلي ؟ ثم كل اولئك الاولاد الذين قد نلتقيهم ، بين سنة واخرى ، فلا نصدق انهم كبروا الى هذا الحد ، ولا يصدقون اننا تغيرنا . . فنظل لدقائق متشبثين بالاسئلة والاسترجاع . . ثم سرعان ما نمل من هذه المحاولة التي لا طائل وراءها في استعادة ولو مقدار ذرة من زمن مهدور . .

احياناً يكفي شئ من الحزن . . أو قليل من اللامبالاة . . احياناً يصير النسيان مريحاً . . .

كان اسمه حكمت بن الصباغة . . وكان بيتهم قريباً من بيتنا في ذاك الزقاق الضيق الذي يقع وراء بيت عثمان . . أقف عند الباب وانادي عليه فتخرج امه شاحبة ، وتدعوني الى الدخول لألعب مع حكمت . . ونلعب . . واذ نلعب ، نكبر ، ويزداد هو طيبة ، ووداعة في عيني . . وأظل انادي عليه فتخرج تلك السيدة ، وتدعوني لأن اتغدى مع حكمت . . . أو اشرب الشاي . . أو اذوق حلوى العيد . . وفي كل ذاك نكبر جميعاً . . . وندرس . . ونمتحن وندخل المدرسة المتوسطة . . ونفترق . . ثم نلتقي ونفترق . . . وأكاد احياناً أنسى وجه حكمت . . . . . وملامح تلك السيدة التي تدعوني لان العب مع ابنها حتى يجئ حكمت ذات يوم ، مرتديا حله ضابط طيار . . . وابتسامته الكريمة تلتمع تحت شاربين اسودين . . ورجولته في روحه المفعمة . . . ونخرج معاً ، كأنما لنلعب كما في الايام الماضية ، ونقول اشياء لم نكن نقولها قبل . . ويحدثني عن طيارته . . وعن فتاة يحبها . . واحدثه عن نفسي وعن فتاة كانت تحبني . . ولا نتحدث عن ايامنا الماضية الا قليلاً فلكل منا الكثير الذي ينبغي أن يتحدث به عن أيام مقبلة . . . ثم . . فجأة . . تسقط طائرة حكمت . . ويموت ! . فيقدم موته لوهلة احساساً فاجعاً بالقدر ثم للوهلة التالية احساساً غامراً بالحياة . . واكتب قصيدة لا ألبث بعد عام ان

انشرها في «قصائد غير صالحة للنشر . .»

ست سنوات . . .

كنت قد تجاوزت الخامسة . عندما ألبستني امي حلتي الجديدة ، واعطتني الرسالة التي كتبها عمي للمدير ، ليقبلني في الصف الاول ، في «مدرسة شمعون الصفا الابتدائية للبنين . . ثم حين أخذت نتيجة الامتحان الوزاري ، كانت مراهقتي قد ابتدأت تملأ ملابسي . . وكنت اقارب الثانية عشرة . . احب الرسم واللغة العربية والمسرح . . وضعيف في الحساب . . ما أزال ارتبك امام جدول الضرب . . . وحين تضايقني الدروس . . اذهب الى الكنيسة وأصلي من كل قلبي من أجل ان انجح في الامتحان . . واظل اردد في روحي «اغفر لي يا الهي . . اغفر لي خطاياي الكثيرة العظيمة . .» ولقد كان الله يغفر لي دائماً . . علامة ذاك أنني في ساعة ضيق عند امتحان الحساب . امام ذلك المعلم القاسي الذي اسمه «صموئيل» والذي يمت الى والدتي بقرابة في تلك الساعة الظالمة كنت اجد العون فاعرف نتيجة ضرب تسعة في تسعة . . وسبعة في ثمانية . . .

ست سنوات

والان – وانا اكتب هذه الكلمات – انتبه فجأة الى ان أهلي بعثوا بي الى المدرسة في السنة التي ابتدأت بها الحرب العالمية الثانية . . والى انني حين غادرت «مدرسة شمعون الصفا» كانت تلك الحرب تطوي آخر صفحاتها . .

وفي ضحى هادئ سمعنا ناقوس الكنيسة يقرع كما في عيد القيامة وبقينا نصغي الى الرنين المعدني ، وهو يهدر قبيل الظهر ، محاولين ان ندرك معنى انتهاء حرب عالمية أخذت منا ، دون أن ندري جانباً من طفولتنا البريئة . .



الفصل السابع
جدول الضرب



الفصل السابع
جدول الضرب

في الصف الثالث . ضربني المعلم الغريب بالعصا . .

لم يكن أحد . قد ضربني قبل ذلك . . . وابتداء من العصا الاولى التي وقعت على كتفي ، سمعت عمتي الكبيرة . تعيد عليَّ حكمتها الصارمة : »من يضربك فأضربه . . . ومن يشتمك فأشتمه . . من يبصق عليك فابصق عليه . .» . . ثم بعد ذاك مباشرة سمعت صوت نفسي وهي تقول لي أنني مظلوم . وأن هذا المعلم الغريب ، يعتدي من غير داعٍ . . فلست أنا الذي ضرب السبورة بقطعة الطباشير ، حين كان المعلم الغريب ، يكتب على السبورة كلمات النشيد . .

كان الاحساس بالظلم . هو الذي امتلكني . وليس صوت عمتي . وكنت على غير وعي مني ، وببديهة الطفولة . أعيد صياغة مبادىء تلك الارملة الحكيمة ، فأستمد شجاعتي . من مجرد احساسي بالظلم . هذا الاحساس ، الذي حماني من ايما شعور بالأذى ، لتلك العصى التي راحت تسقط على جسمي من كل جانب . . . يضربني . . .فأشتمه . .

ثم يضربني . . فأبصق عليه . .

وثالثة . . فأجرب أن أضربه . . . وأكاد أسقط حين تطيش قدمي الصغيرة في الهواء . .

كم استمرت تلك المعركة القاسية . . في ذلك الصف الذي يقع فوق قبو المدرسة – الصف الثالث (باء) ؟ . . أي صمت ران على الصف ؟ . . أي جنون ، أخذني إلى هذا الضرب من التحدي ، أشق به لأول مرة في حياتي ، وأتلذذ ؟ . . أي خيال سحب المعلم الغريب من وقاره . . فهو يلحقني . يحاول الامساك بي . وأنا أجري خارج الصف ، شاتماً صائحاً خارج وعيي وإرادتي . . . ؟ !

لابد أني قطعت الممر الطويل . واجتزت ثلاثة صفوف ثم انحدرت على الدرج المجاور لغرفة المعلمين..ولعله–ادرك المعلم الغريب ،الذي جاءوا به ليعلمنا–نحن فرقة النشيد–نشيدا جديداً لعله ظل يجري ورائي–أمام المعلمين والطلبة..حتى التقينا.أنا وهو لاهثيين أمام المدير..

عند ذاك ، حين صرت أمام المدير . . وفي حماه ، كما لو أنني صرت أمام الله . . . صار إحساسي المجنون بالظلم ، حزناً ثقيلاً ، فرحت أبكي ، وأعدل من كرامة بكائي بالشتائم . . .

شتائم فجّة ومحدودة ، تعبتُ من كثرة ما رددّتها طوال المعركة . . «كلب بن كلب . . ألعن أباك وأباء الذين خلفوك . . .» وليس سوى ذلك . . . وينبغي ان أقر أن تاريخ المدرسة ، لم



يشهد ، من قبل ، ولداً يشتم المعلم ، كما شتمت ذاك المعلم الغريب ، وبصقت عليه . . . مواجهة . . . وبأصرار . . . وبصوت عالٍ . . وغضب صريح . . .

وقف المدير بيني وبين غريمي . .

واذ كنت أحسست . لوهلة أن المدير يمكن لاسباب عديدة ، أن ينحاز للمعلم ، فقد وطنت نفسي ، أن أشتمه هو أيضاً ، إن هو خذلني ، وأن اهرب من المدرسة الى البيت ، حاملاً ظلامتي ، إلى عمتي ، وأمي ، وأبي ، وعمي . . . فإذا لم يكن . . فالى الله العادل الذي ينتظرني دائماً ، في الكنيسة المجاورة . .

لابد أن المدير ، استطاع أن يستوعب ما يجري ، بسرعة . . فأدرك قبل كل شيء ، طبيعة المفارقة التي أمامه : ولد لم يكد يتجاوز الثامنة يركض في المدرسة صارخاً ، دامي الأنف ، ومن خلفه المعلم – وهو معلم غريب ، جئنا به من مدرسة أخرى ليعلم النشيد – بعمره وقد كان انذاك – في حدود الثلاثين – يركض ، لاهثاً مشعت الشعر ، ملوحاً بعصاه . . . مصراً حتى بعد أن صار أمام المدير أن يمسك بضحيته . ليوقع فيها انتقامه . .

وعلام كل هذا . . ولماذ ؟ والمدرسة الان ، تتطلع من النوافذ والمعلمون على الابواب . . .

سمعت المدير يقول ، وهو يحميني وراءه .

– على مهلك يا «البير» افندي . . ماذا جرى ؟ . .

هجم عليّ «البير» افندي . . . فصرخ المدير . . وسمعت المدرسة كلها صرخته . . ومن بعيد رأيت «يوسف» البواب ، «بولص» الجبلي ، ومن غرفة المعلمين خرج «عبدالكريم» افندي معلم الجغرافية ، بنظارتيه السوداوين ، مقطب الوجه . . . وسمعته يقول :

– تعال «يا البير» افندي . . عيب . . . تعال معي . .

وجاء معلم الرياضة «جميل» افندي من الصف الاول راكضاً . . . و . .

كنت في غرفة المدير أبكي بدموع كبيرة . وكان المدير ، لايفتأ يقول لي :

– أهدا يا ولدي . . . وأحك لي ماذا جرى . . .

وأذ كنت أسمع صوت المدير الوقور والحنون . كان حزني يزداد ، وكان شعوري بالألم يتضح لفرط ما سقط من العصي على جسدي . . . وللدم الذي كان مايزال يسيل من جرح فوق أرنبة أنفي . . وكنت أريد من كل قلبي . أن احكي للمدير . أنني مظلوم . وأنني لست الذي ضرب السبورة بالطباشير . . . وعزَّ علي ذلك . . .

كانت رئتاي مملوءتين بالظلم . . . فهي كلمات متقطع ، مبقعة ، بالأذى والدم والشتائم . . ومع هذا فقد ، فهم المدير كل شيء . . بينما كان «بولص» الجبلي يغسل وجهي ، ومعلم الرياضة يضمد الجرح على أرنبة أنفي . .



فهم المدير . .

ولعله لم يكن بحاجة الى أن أحكي له لكي يفهم . . . فأنا ولد «عاقل» . . . يشهد له الجميع . بهدوئه ، واجتهاده وطاعته ، وحبه للصلاة والكنيسة . ولم يسبق أن شكا منه أحد ، معلماً كان أو تلميذاً أو فراشاً . . .

ولد «وأبن أوادم» . . وتلك قضية اخرى . . .

عمه كاهن ، وأبوه رئيس الشماسين ، وخالته راهبة . . . وهو وحيد أمه والمدلل ، الذي تخاف عليه من عين الحسود . . .

ومرة أخرى . كما في الحلم . حين قدم لي معلم الرياضة ، وكنت أحبه ، قدح الماء ، سمعت صوت أمي تتظلم :

– ضربه الذي ما يخاف الله . . . ما ضربه أبوه . ولا عمه ، ولا أنا رفعت يدي يوماً عليه . . ولد عاقل – خرب عمري عليه – لا يعض ولا يخمش . . .

ثم يأتي صوت عمتي من المطبخ :

– نشتكي عليه عند الحكومة . . لم يستح هو ، وطوله ، وشارباه . . . فخلّى عقله مع ولد بطول رجله . . «ألبير» افندي ابن الخياط أبو القمل . . .

بقيت في غرفة المدير جالساً على تلك الأريكة المخصصة للقس عما نوئيل معلم الدين . وقد جهد المدير . في أن يضع حداً لبكائي . . . وجهدت معه . . حتى قرع الجرس ، وجاء المعلمون ونظروا الي ، وهزوا رؤوسهم ، وتهامسوا . . في حين كان جسمي بأسره يؤلمني . . . . وقلت :

– اريد أن اذهب للبيت . . .

– لماذا ؟ . . .

– اريد أن اذهب للبيت . .

قال القس عما نوئيل . وهو ينظر الى المدير نظرة ذات معنى :

– ليس الان . . . حين ينتهي الدوام .

– لماذا تريد أن تذهب للبيت ؟

خجلت ان اقول له انني اريد أن أنام . وعند ذاك ناداني القس عما نوئيل . واخذني قربه وهمس لي :

– هل ستخبر أهلك بهذا الذي جرى ؟

قلت : أجل . . .

قال لي . من الاحسن الا تخبرهم . . .

ما استطعت أن أسأله لماذا . وسمعته يقول :



– اذا سألوك . ماذا بك ؟ قل لهم إنك سقطت من السلّم . .

كان يتحدث . كما يتحدث في منبر الاعتراف . . . فخفت ، وقلت لنفسي انه يريدني أن اكذب . وسألني . وهو يربت على كتفي :

– ستسمع كلامي . . أليس كذلك ؟ . .

– نعم . . .

– من أين سقطت ؟

– من السلّم . . .

ابتسم لي القس عما نوئيل . وجاء يوسف البواب . فأخذني إلى البيت . . وقال لأمي إنني سقطت من السلم . . .

شتم «مصطفى» آمر المعتقل . . .

وسمع الشتيمة ذاك الحارس المختبىء خلف النافذة ، فمدّ رأسه ، ورآني ، وتوهم أنني الذي شتمت آمره فذهب وشكاني . .

ولم تمض لحظات ، حتى فتح الباب ، ونادوا على اسمي . فقمت بين صمت الجميع وخوفهم . .

في الخارج ، كان الليل جميلاً . وكانت رائحة خضار تفوح على طول الممر المؤدي الى غرفة الأمر . . . رأيته – وهو شاب في العشرين . . يجلس على كرسي أمام غرفته . وقد حل أزرار سترته الرسمية وبيده خيزرانته . . سألني :

لماذا تشتمني ؟

اجبته :

– لم اشتمك . . .

لا تكذب . .

قلت بأعتزاز :

أنا لا اكذب . . لم اشتمك . . .

تدخل الحارس . وقال بحماس :

– بل شتمك يا سيدي سمعته بأذنيّ هاتين . . .

– وادركت انني تورطت . . قال الآمر الشاب :

– من اذن ؟

– لست ادري

سألني



–بشرفك . لا تدري ؟
سكت ومرة أخرى سألني :
-- أنني أحلفك بشرفك . . أتدري أم لا ؟ . .
واتخذت قراري فقد استفزتني كلمة الشرف وأعادت إليَّ مراهقتي فقلت :
– أجل . .
– منْ ؟
سكت . .
– قلْ منْ شتمني ؟ . .
أجبته بأعتزاز مبيتْ :
-- لن أقول لك . . .
– ماذا ؟
اعجبني أن يصيح وأزدهاني دوري :
فقلت له :
– لن أقول . . .
– تتحداني ؟ . .
– لا أتحداك . . ولكن ليس من خلقي أن أشي بسواي . . .
صاح بي :
– سأسلخ جلدك . . يآبن الـ . .
بقيت واقفاً امامه . ساكناً . . . كان يتناهى عن بعد صوت أغنية أليفة . وتمنيت حقاً . أن يسلخ جلدي ولكنه لم يفعل . قال بهدوء :
– لماذا تضطرني على اهانتك . . .
ما أجبت . فقام من مكانه . واقترب مني وسألني :
– ماذا تسمي هذا الذي تفعله ؟ بطولة ؟ . .
– بل أخلاق . . .
– أبوك . . وأبو الاخلاق .
وانقض علي أربعة من الحرس ، كانوا يقفون خلفي ، وراحوا يضربونني . وما كنت احس أذي . . بل كنت لامر ما منتشياً . وكان استغراقي في دوري يحميني . .
حتى بدأ الدم يسيل من أنفي . . .
حين نزعت قميصي في البيت رأت أمي أثار العصا على كتفي وظهري ، وندت عنها صرخة



خافتة ، وقامت تتلمس بأصابع مرتعدة جسد وحيدها . . .

– لقد ضربوك . . . هذه اثار ضرب . . . قل . من الذي ضربك ؟

وجاءت عمتي . . وزوجة أخي . . وأختي . . وكلهم سألوني عن الذي ضربني . . ولكن صوت القس (عما نوئيل) معلم الدين ، كان لا يفتأ يذكرني : «قل لهم انك سقطت من السلم . .» فكنت اردد ، ودموعي تجري «سقطت من السلم» . بل لقد زدت على ذلك فحلفت برأس أبي ، كذباً . . . ولم يصدقني أحد . وحين جاء الليل . كنت قد اعترفت لهم بكل ما جرى وسعدت بأن عمتي الكبيرة قالت أمام الجميع :

– مادمت قد فعلت كل ذلك ، فما قصرت . . . لقد أخذت حقك . من ابن الخياط «ابو القمل» .

وفي صباح اليوم التالي . حين كنت أخدم في الكنيسة ، قرأ القس في الانجيل كلام يسوع المسيح . . .

«من سألك فاعطه . . ومن طلب منك رداءك فلا تمنعه . . ومن سخرك أن تمضي معه ميلاً . فأمض معه اثنين . . ومن ضربك على خدك الايمن فحول له الاخر . .» .

واذا سمعت قول «يسوع» . حزنت . . ثم خفت خوفاً شديداً . . وذهبت الى عمتي أسألها . . فقالت لي أن المسيح يقصد بقوله « . . فحول له الاخر . .» أن تضربه أنت أيضاً على خده الاخر . .

– من ضربك على خدك الايمن . . فاضربه على خده الأخر . . . هل فهمت ؟ قالت ذلك بقوة وحسم . وعبثاً راحت أمي تحتج على تفسيرها . . فلقد كان لعمتي الكبيرة . مسيحها الخاص . .

بعد سنتين ضربني «صموئيل» معلم الحساب . . .

كنت في الصف الخامس ، وكان علي أن اواجه عذاباً جديداً ، اسمه المعلم «موئيل» . قالت امي منذ البداية :

– «صموئيل» واحد من اقربائنا . . . أبي وأبوه أولاد اعمام . . .

ولم ينفع ذلك في تبديد المخاوف التي كانت قد استبدت بي ، منذ اللحظة التي دخل فيها المعلم «صموئيل» الى الصف الخامس جيم ، وصاح المراقب «قيام . . .»

في تلك اللحظة رأيته ، قريباً مني ، يطل رأسه الصغير الأصلع على رحلتي . وتحدق بي من علٍ ، عيناه من وراء نظارتين سميكتين ، مثل حشرتين دقيقتين لامعتين ، وتحت فتحتي أنفه يلتصق شارب نازي اشبه بمخطة سوداء . . .

كان يبدو للناظر متعباً ، ضجراً متألماً . كانه يشكو من مغص سري ، لا يستطيع الافصاح



عنه . . وقد زاد من تأثير احساسي هذا ، أن يد «صموئيل» التي خرجت من فتحة ردنه وأمسكت بحافة الرحلة الخشبية ، كانت صغيرة ، وذات حدود عظمية . فهي اشبه بحيوان غريب يعلوه الشعر الاسود بكثافة . . حتى لقد قلت في نفسي ، أنه يكفي لهذه اليد أن تلمس مجرد لمسة عابرة ، حتى يقشعر جسمي ، وأموت من الخوف . . .

لم يلبث أن تخلى «صموئيل» عن رحلتي ، وابتعد خطوة أو خطوتين وصار وسط السبورة ، عند ذاك فتح فمه وتكلم . . .

كان صوته أشد غرابة من مظهره . . لولا أن هذا الصوت ، رغم ذلك ، كان لا يمكن ان يصدر إلا عن جسد المعلم «صموئيل» . . . من هناك في موضع ما ، يقع تحت حنجرته . . ربما من القصبة . . أو المريء ، فهو أقرب ما يكون الى السعال . بحيث بدالي ، وهو يتحدث ، أنه يسعل كلماته . . . ويعاني وجهه ، معاناة الذين يسعلون حقاً ، فتتقلص ملامحه ، ويلتوي وجهه ، وينزوي حاجباه ، ويتجعد جبينه . ويبدو واضحاً ، أنه يتعذب . . . .

ومن عجيب ، أنني حين كنت أراقب ملامح عذابه ، لم أستطع أن أحس له بالرثاء . . بل بمزيد من الخوف . . .

استمر «صموئيل» يتحدث . . ويكتب على السبورة ، والصف صامت صمتاً متوتراً . . بحيث اقتنعت أن الجميع خائفون مثلي ، ومشغولون ، بهذا الكيان الرهيب الذي يتحرك امامهم . . . بدا لي أن «معلم الحساب الحساب . . . بل هو «صموئيل» الذي في التوراة . . ورحت أتخيل رجالاً من اليهود ، لهم لحى مقصوصة وعثانين ذات لون أشهب . . . ورأيت جداء تذبح . . وتوابين من فضة ونحاس . . وخيّل لي أنني أسمع صوت «يسوع» ، يصرخ في البرية . «الويل لكم ايها الكتبة والفريسيون المراءون . . .» ثم فجأة ، وجدت إصبع معلم الحساب أمام أنفي ، وسمعته يسألني شيئاً لا اعرف جوابه . . وقبل أن أتبين ما حدث ، طار الحيوان المختبيء في ردن «صموئيل» وسقط على وجهي . . .

دوى صوت الصفعة في أذني ، وأحدث صفيراً . . وامتلأت عيني بدوائر حمراء راحت تغرق في خوفي ودموعي . . وضجّ رأسي بأصوات كهنة ينوحون وبنواقيس تقرع للدفن ، حتى ايقنت أنني سأموت . . ولم أمت . .

جلست في مكاني . وعلى غير إرادة مني . ورغم الألم ، والحزن بقيت كالمسحور اتطلع الى المعلم ، وقد عاد إلى درسه وسبورته ، والى سعاله الصعب ، لا أجسر أن أحيد ، أو أن أرفع نظري عنه وكلي خوف ، من أن يعود إلي مرة ثانية . . حتى قرع الجرس . . .

صموئيل.. صموئي.. أيها العذاب الأصلع الذي أخذني من طفولتي واخترع لي «جدول الضرب» ولماذا «الضرب» وليس أي شيئ سواه ؟



خمسة مضروبة في ستة . . . واربعة مضروبة في سبعة . . . ورقم مضروب بنفسه . . . كيف ؟ . . . ولماذا ؟

ما كنت أملك أن أفهم سبباً لهذا «الضرب» الذي لا مبرر له . . . وكنت لا اريد ان «اضرب» رقماً بأخر . . . ولا أن «أضرب» رقماً بنفسي . . وصرت اعتقد أن حكمة عمتي الحولاء قاسية . وغير حصيفة . وقلت لنفسي ، لعلها ، مثل «صموئيل» تحفظ «جدول الضرب» وتحب الحساب . . وأنا لست كذلك . . . ولا أريد أن أكون . . وسيضربني معلم الحساب مرة أخرى . فلا أستطيع أن اضربه . . . واذا استطعت فأنا واثق أنني لا أريد أن أضربه . . ولا ألمسه . . ولا أراه . . ليتني استيقظ ، ذات صباح فأرى «صموئيل» قد مات ، والناس تبكي عليه . . . ليتني أرحل الى بلد لا يعرف الاولاد فيه درس الحساب ، وجدول الضرب والعمليات الاربع . . والأرقام . . والامتحان . . التي تحمل جميعها ملامح صموئيل ، وقسوته . والآمه . .

عند الشهر الاول . أخذت فضيحتي مكتوبة على (كارت) يحمل اسمي . . .

كان «الكارت» يحمل أرقاماً هي درجات امتحاني . . وكان ثمة بجانب درس الحساب رقم مؤشر عليه بالقلم الاحمر . .

لقد «سقطت» للمرة الاولى في حياتي القصيرة . . وكان الخط الاحمر الذي رسموه على نتيجتي قد أنطبع في روحي مثل جرح مؤلم . وكنت احس أنني وحيد ، وحائر ، ولا خلاص لي . . فقد اعتراني احساس ، بأنني لا أملك أن أغضب أو أشكو ، أو أتعلل . . وأنني مجرد من أي دفاع عن نفسي . . سوى أن أحني رأسي ، كما اعتدت أن أحنيه ، عند منبر الاعتراف ، مقتنعاً بأنها خطيئتي .

وها أنا – يا رب – «منطرح أمامك معترف بأنني لا أحب الحساب . . . وأنني لن أنجح فيه الى الأبد . . . أمين» . .

في الليل أجلسني أبي الى جانبه . كنت أنعجب . وهو يعلمني بطريقته الحانية ذاك اللغز الذي حيرني ، والذي يسمى «جدول الضرب» . فقد قرّ في نفس أن «الحساب» لن يتأتى إلا للذين هم مثل «صموئيل» . . . وحين أثبت لي أبي أنني واهم . زادت حيرتي . . فأتهمت نفسي وأستسلمت . . .

قال لي أبي :

– احفظه مثل نشيد . . . كما حفظت انجيل «متى» ، ورسالة «بولص الرسول» .

ولأنه لم يكن نشيداً ولم يكن يشبه إنجيل «متى» ورسالة «بولص الرسول» فقد زاد ذلك يأسي . وخجلت أن أقول لأبي أنني لا اريد أن احفظه . . وأنني اذا حفظته فسأنساه أمام



صموئيل» . . . وأذ ضاقت روحي لقد انخرطت قرب أبي بالبكاء . . فجاءت عمتي ، وأخذتني . وهي تلعن «صموئيل» والمدارس والمعلمين جميعاً . . . وحين سكنت اليها أعادت عليّ تحريضها الساحر :

لا تبك يا ولد . . الف مرة قلت لك لاتبك . . اذ كانت المدرسة لا تعجبك . . فلا تذهب اليها . . .

اردت أن اقول لها أن المدرسة تعجبني . وكنت ادري أن ذلك سيغضبها ولهذا سكت ورحت افكر بحياتي العمر آت لابد لي من أن أواجه فيه الحساب ، كما أواجه الحياة . . . وأن أفكر بمعضلة «رامز» الذي «نزل الى السوق وأبتاع خمسة أقلام ، كل قلم بستة فلوس . . وسبعة دفاتر بخمسة عشر فلساً وثلاث مساطر ، كل مسطرة بأحد عشر فلساً . . .» وأقول : يا ربي . . لماذا ينبغي أن تكون معضلة رامز هذا الذي لا أعرفه ، معضلتي ، ويتوجب علي أن اعرف نيابة عنه المبلغ الذي أنفقه في شراء الاقلام والدفاتر والمساطر . . ؟

يا للسخف . . . لماذا ينزل «رامز» الى السوق ؟ . . وما الذي يفعله بكل هذه الاقلام والدفاتر وبمسطرتين أو بثلاث مساطر . . في حين تكفيه مسطرة واحدة . . لماذا يشتري كل هذه الأشياء . وهو لا يستطيع حساب ثمنها . . . أما أنا فما من مرة نزلت الى السوق . أبي هو الذي ينزل اليها دائماً . وقد يأخذني معه احياناً . . وهو الذي يبتاع لي اقلامي ودفاتري . . وهو الذي يدفع ثمنها . . .

كنت أفكر سراً بكل هذا مدركاً أنه من السخف ، أن ابوح بأفكار كهذه لسوى عمتي التي كانت تراها . في حالات كهذه مصيبة ومقنعة إلى حد بعيد . .

في الشهر الثاني كنت قد حفظت «جدول الضرب» . حفظته كما أتجرع «الخروع» وفي جسدي وروحي غثيان مرير . . ولكنني لم انتفع بحفظي له قط . لقد كنت واقعاً في كابوس «صموئيل» . فكل ما يمت اليه كان جزاء كريهاً من هذا الهول . . . لا جدوى فيه ولا فضيلة . . ولهذا رسبت في الشهر الثاني . وعدت الى البيت بالخط الاحمر تحت الدرجة الداعرة . . .

ومرة أخرى أجلسني أبي الى جانبه . كنت يائساً . وكان يزيد من احساسي بيأسي ، أن أبي لا ييأس . فهو يكافح . من أجل أن اتفتح . لهذا العالم . الذي لسبب ما أغلق عليّ . . وإلا فما معنى أن أكون متفوقاً في كل الدروس ، وخائباً هذه الخيبة المخزية في الحساب ؟ . .

— هل فهمت يا ولدي ؟

— فهمت . . .

— لا ما فهمت . . . اصغ الي . . .

واذ يقول ذلك . يشرد ذهني . . . الى ليلة أمس :

في تلك الليلة كان «عيسى» ثملاً . وقد بعثت زوجته «جميلة» في طلب والدي ، لينقذها منه ، فلا يضربها زوجها كما أعتاد في كل مرة . . .

ذهب أبي فتبعته . .

كنت مأسوراً «بجميلة» التي تغني وتخيط ملابس الأعراس ، ومولعاً جداً بصوتها العذب وهي تغني وبالسن الذهبي الذي في فمها . .

كانت هذه المرة ، جالسة في الغرفة ، وهي بثياب النوم ، وكان «عيسى» واقفاً ، وقد احمرت عيناه ، وارتخت شفتاه لفرط ما شرب . وعندما رأى أبي - لوح بيده ، وقال من كل قلبه :

- جميلة . . . جميلة . . .

كان يلفظ اسمها بوله حقيقي . حتى لقد خيل لي أنه سيبكي بعد قليل . واذ لم يسبق لي أن سمعت رجلاً يلفظ اسم أمرأة بهذه الطريقة الشاذة والممتلئة حرارة فقد بدالي أنني أقع على اكتشاف لذيذ . ولسعني فضولي ، وتطلعت الى «جميلة» . كان قميص نومها شحيحاً . وشعرها مشعثا... وكانت تبدو غريبة وسرية . . فكانني أراها للمرة الأولى . .

ومرة أخرى عاد «عيسى» الى كأسه تذوقه ، وأردف ذلك بندائه ولكنه بنبرة حزينة هذه المرة ، وهو يخاطب أبي . .

- جميلة . . . أنني احب جميلة يا عم وسأحبها حتى أموت . .

بدا لي أن أبي يريد أن يقول شيئاً ، ولكن صوته ضاع حين بدأت «جميلة» تنوح فجأة . في حين كان «عيسى» يضرب رأسه بجماع كفه بقسوة وشراهة كان المنظر رهيباً . . ولم اكن استطيع أن أفهم لماذا يجري كل هذا . . وما علاقة ما يفعله «عيسى» بحبه لجميلة . .

ويبدو أن أبي الذي كان مشغولاً . في اقناع «عيسى» بالكف عن ضرب نفسه . لمح دهشتي ، وحيرة وجهي ، فقال لي أن اذهب الى البيت . . .

ولكنني لم أذهب . كنت . . حزيناً لان «جميلة» تنوح ويسيل دمعها على شفتيها ، ويبدو السن الذهبي في فمها كريهاً . . وكنت منجذباً الى «عيسى» الذي شرب الان كل ما في كأسه . . . ثم فجأة . وعلى دهشتنا جميعاً ، راح يقضم الكأس الزجاجية بأسنانه . . .

كنت من مكاني اسمع صوت الزجاج وهو يتكسر ويصطدم بأسنان عيسى ، ولهاثه وأرى وجهه وهو يشرقُ في عذاب . . . حتى بدأ الدم يسيل على شفتيه . . عند ذاك أعولت «جميلة» . . . اطلقت صرخة من صدرها وشقت قميصها . . . وكان عيسى ازاءها يبتسم ابتسامته الدموية . . . ويستسلم لقبضة أبي . . .

كيف انقضى ذاك العام ؟ أي عذاب ؟



جاء الامتحان النهائي . . وما كنت اطلب من الله غير معجزة واحدة ، أن يعمي لي قلب «صموئيل» وهو يصحح ، اجابتي ، أو يعطيه ، ولو للحظة واحدة ، شيئاً من الرحمة ، فيعطيني «خمسين» فقط . . . خمسين . . . ايتها العذراء القديسة . . . خمسين ، أيها الروح القدس . خمسين ايها القديس يوسف شفيعي . . خمسين . . يا أم العجائب . . .

وما خيب الله . . ولا كل هؤلاء القديسين صلاتي . . . لقد أعطاني «صموئيل» خمسين . . . حقاً . . .

لكن . . وأسفاه . . لقد أخطأت الدعاء . . أخطأته لأنني لم أكن أعرف الحساب . . ولو عرفته لدعوت – مادمت قد دعوت وما دامت السماء كانت مستعدة للأستجابة لدعائي – لدعوت بأثنتين وستين درجة . . . فمعدلي النهائي كان ثمانٍ وثلاثين . . . أية الغاز ؟

حتى لقد تساءلت ، في سري أن لم تكن السماء جديرة حين أستجابت لدعائي – أن تستجيب له ، بمعناه ، لا بحروفه وأن تسامحني ، وتتجاوز عن زلتي وقصور حيلتي في الحساب . . . مكمل في الحساب . . .

مريض . . . لن يشفى اليوم أو غداً أو بعد غد . . . لن يشفى الا بعد ثلاثة أشهر . . . فيا للحظ ، وسيكون عليه اليوم ، وغداً وبعد غد ، وحتى تنتهي هذه الشهور الثلاثة ، أن يتجرع يومياً ، دواء مرضه الصعب ، وأن يذوق مرارة حريته المسلوبة . . حتى لمجرد التفكير ، أن هناك امتحاناً ينتظره . . .

وقلت لنفسي : يا رب ، كان «السقوط» أرحم . . . وإلا ، فأية عطلة هذه أقضيها ، مع العمليات الاربع ، وجدول الضرب و «رامز» التي ينزل الى السوق ويبتاع أشياء غريبة ؟

ثلاثة شهور . . . هي عطلة مهدورة ، ومنغصة . . أعانيها وحدي في حين يتمتع بها الناجحون والراسبون على حد سواء . . .

بعد اسبوعين . . شددنا الرحال – كما في كل عطلة الى دير «ماركوركيس» الذي يقع في ضاحية المدينة . .

في الصباح المبكر ، ذهب أبي لجلب السيارة التي ستقلنا الى هذا الحج الموسمي الطريف . . وفي فناء البيت ، أخرجت أمي كل اللوازم التي نحتاجها ملفوفة بعناية ومرتبة بنظام فريد . . وثمة ارتباك عذب يشيع في البيت كله ، وترقب لذيذ . . .

ولن نلبث أن نسمع بوق السيارة ، مثل بشير يعلن في المحلة ، أننا نوشك أن نغادر . . ويتجمع الاولاد ، وفي عيونهم حسد كبير فثمة بينهم ، من لم يتح له أن يركب سيارة حتى الان . . وبينهم من لم يجرب السفر ، ولا اعتاد هذه الطقوس الحميمة . . .

وتنقل اللوازم من البيت الى الطريق . .



ومن الطريق تحمل بعناية ، وتوضع في صندوق السيارة بطريقة تضمن بها أن شيئاً ما منها ، لن يتعرض للكسر أو التلف . . .

ويقول أبي ، وهو يتطلع حواليه ، لأكي . . .

– فكري جيداً . . ألم ننس شيئاً ؟ . . هل وضعت علبة السكر مع لوازم الشاي ؟ هل أكملت اغلاق وعاء الدهن ؟ . . هل أنت متأكدة من انك أفرغت «البريمز» من النفط ! . .

واذ ينتهي من اسئلته . . يصعد الى السيارة بجانب السائق ويغلق الباب واسمع جيداً جيشان المحرك . واشم رائحة البانزين العبقة . . وقبل أن يتحرك الموكب ، يلتفت أبي إلي ويسألني السؤال الذي كنت أخشاه . . .

– هل جلبت معك كتاب الحساب ؟



الفصل الثامن

أضغاث احـلام




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثامن
أضغاث احلام

اذكر أن بخاراً ، كان يتصاعد من الارض والماء . .
اذكر أن المكان ، كان اشبه بجامع ، أو كنيسة . . سقفه نصف مرتفع ، واعمدته ، كبيرة وقديمة . . لكنها مبللة بالوهم والرطوبة . .
وكان ثمة – عدا هذا – شذى أليف ، يختلط بزناخة غريبة . . وكنت عارياً . .
كانت سنواتي ، التي لم تتجاوز الخمس ، عارية ، ومحاطة بالماء والبخار والحرارة والشذى المحرم . .
في ذلك القبو العجيب ، كانت عيناي ، ترتفعان بي ، على قدر قامتي . . . وكانتا لفرط ماتحسان ، من الم ولذة وغربة ، مصابتين بالذهول ، وهما لاتكادان تصدقان مايجري ، وتتطلعان بشك الى تلك التضاريس الوحشية ، التي يشي بها العري . .
أما أنا ، فليس سوى عينيّ . . فهما الكائنان اللذان تبقيا من جسدي الصغير ، ولذلك كان عليهما ، وحدهما ، أن تواجها ولاول مرة وبلذة والم . هذه الغابة الخطيرة ، وتلكم الازهار المغطاة بالعشب والاصابع . .
ألم أكن ضائعاً في ذلك القبو . . ؟
بلى . . فما كنت اعرف أحداً ، وما كان يعرفني أحد ، سوى هذه المرأة التي ولدتني ، . قبل قليل . . . فهي مبللة حتى شعرها ، بمخاض مجهول ، ومصابة بجماها ، واهمالها لي . .
كنت اسمع حولي لغطاً ، فاحسبه صادراً عن مساقط مياه وهمية ، وقرع اجراس معدنية . . وأنين حيوانات مظلومة . . حتى بدالي ، كأن ارادة ما ، مجهولة ، ومتسلطة ، تحاول أن تخرج كل هذه الكائنات ، عن جلدها ، كما أخرجتها ، لسبب غير مفهوم عن ملابسها ، من أجل طقس سري . لم يبدأ بعد ، ولعله سيبدأ بعد قليل . .
قادتني المرأة ، وهي تلدني الى جرن صخري . . وحين كنت اتبعها بقدمين لزجتين ، معلقاً الى جسدها من رؤوس اصابعي كنت أمر بتلك الاشجار اللحمية ، فاراها على قدر ماتسمح لي به قامتي ، وفق عينين ضائعتين . . ولقد كان ذلك غريباً ، وغير مصدق . . حتى لقد فكرت بالهرب مرات عديدة لولا أن الزناخة كانت تهددني بالفضائح ولولا أن الازهار التي كانت تحيط بي من كل الجهات ، كانت لاتفتأ تراقبني ، وتتوعدني ، وتقدم لي مفاوضات من الدعابة ،

حتى لقد أخرجت احدى تلك الزهور لي لسانها ، وقد كان ذلك أمراً شاذاً ، بحيث خيل لي لوهله انني سأبكي لفرط الخوف والفكاهة . . . واموت . .

بل لقدمت ، ويقظتُ على عيني ، فآلمني عريبي ، ومن مكاني على الارض ، المغطاة ، بالفقاعات والبخار ، رحت اتطلع ، مثل حيوان قتيل ، الى قدمين وطيدتين . . بيضاوين ، نظيفتين ، تلتصقان بالقاع معتدتين ، انانيتين . . .

كان كعب القدم ، قرب وجهي ، مغسولا ، وقرنفلياً ، وكانت الاصابع مترفة ، ومحتفظة باستقلالها . . كل اصبع له ملامحه ، فهو حيوان صغير ، اليف ، وذو غطرسة حميمة ، بحيث اشتهيت أن أمسه بسبابتي . .

لقد اكتشفت ، تلك الساعة ، أنا الذي قدر لي أن أرى كثيراً ، أنه ليس ثمة ماهو اكثر عرياً من قدم مغسولة . . ودافئة . .

الوردة . . وكعبا القدمين . . والاصابع . . ويمكن التفكير في غطرسة حجل من ذهب ، وسورته الجهنمية . .

لقد أخذت حلمي بعينين مفتحتين ، وحين كنت موشكاً أن افتح فمي ، وأنادي على قصيدتي ، ايقظتني أمي ، بأن مدت يدها ، وأخذتني ، وراحت تغسلني . في الجرن الحجري بماء حار وصابون ، وأنا أبكي ، واكتم في ذاكرتي صوتاً سيظل يهمس دون جدوى

«ياحلوة . . .

اني احببتك عارية . .

أجمل عريك في القدمين . . .

مرة أخرى . .

ولم أكن في الحلم وحيداً . . . ولاخائفاً . . ولا آثماً . . . .

كانت طفولتي ، قد اجتمعت على نفسها ، فانا مضجع ، كما في رحم امي : رأسي على عمودها الفقري وجسدي مكور ومطمئن ، ودافئ ، ومستسلم للنوم . في حين ، كانت سرتها ، من الداخل ، تمسدني ، وتناغيني . .

وفي الحلم ، غرفة . . وهو دير أبيض . . شديد البياض . .

السقف أبيض . . والجدران . . والايقونة . . والصليب ، والملاءات . . . والوقت . . لاشتاء . . ولاصيف . .

ولست اذكر ، أن كنت موشكاً على النوم ، آنذاك ، أم على اليقظة . .

ولقد كانت عيناي مغمضتين . . وستظلان كذلك ، حتى النهاية . . لم يخطر لي ولو لوهلة ، أن افتحها حذر أن يطير ملاك الحلم الابيض ، ويأخذ مني تلك التي انامتني الى جانبها . . .



السقف أبيض . . وأنا أصغر من قميصي . . .

ومرة أخرى ، صار الحلم مقدساً . فهو دير ، وامرأة في الثلاثين : سريرها واطئ . . وقميصها أبيض . . ووجامها ، حبل مجدول بين السرة والجنين . . .

امرأة في الثلاثين . . والى جانبها طفل بقميص شحيح . . وبينهما ، هذا الشذى المدهون بالبخور والصابون الرخيص ، وابيضاض الشفتين ، ودفء مادون العنق ، والزغب الوهمي الموزع ، دون رحمة ، على بطانة الرحم .

وأنا أنام واستيقظ . . وماهي يقظة ولانوم . . بل يدي ، التي ابتدأت ، تلك الليلة تكتشف اصابعها ، فراحت تأخذني الى ذاكرة اجيال سبقتني . وتلقي بي عند جدار التي خلقتني ، وتغريني بأن اتحسس احشاءها لكي يغلبني النوم . .

عيناي مغمضتان . ويدي تؤلمني . ولقد كان ألماً لذيذاً . ولا يشبه تلك اللذة التي اعتدتها ، وأن التصق بالتي ولدتني . متحسساً دفء الحليب الذي حرمت منه : وهو يجيش تحت اهابها ، هذه المرة ، كنت نائماً بين اصابعي . وكنت ادرك بطريقة غامضة ، أن الزغب الوهمي . الذي يلامسني ، هو غير الزغب الذي اعتدته ، وأنا ابحث عن الطمأنينة ، مستعيداً ذكرى الاحشاء نصف المبللة ، ووشوشة الدم ، في العروق الملفوفة فوق اذني . .

الان . . تغير المرأة — امرأة الحلم نومتها ، فتغير لذلك ، كبرياء يدي ، وتتسلم مباشرة رشداً لاذعا . ماله من موجب . . فهي تهجس حليباً في الجسد المجاور . ينحدر من العنق ، مستفيداً من ايقاع نبض سري . ثم يتجمع هناك ، تحت عظم الترقوة ، ويصير دعاية مكتظة باللعب . فهو يختبئ وراء النوم ، متنكراً كما لو أنه ثدي امي . .

ذلك ماأخافني . فجف لعاب وهمي على اصابعي . وراح يصدر نكهة . أتعرف عليها لاول مرة . وأستروح ذاك العبير الفذ ، لكل الاشياء السرية : عبير الحنطة ليلة نضجها ، واللبن قبل اختماره واسرار العنب الفجة . . والخمرة ، وعرق أول البلوغ . . .

حتى لقد خطر لي أن اوقظ المرأة ، كما اعتدت أن اوقظ امي ، واخبرها أنني متعب وخائف ، وأنني لفرط خوفي وتلذذي اوشك أن ابول على نفسي . . .

ولقد هممت بذلك . لولا أنني كنت اخاف أن افتح عيني ، فتراني على حقيقتي ، الجدران ، والسقف الابيض ، وخشب الصليب ، وملوحة الماء المقدس . . .

ماكنت لاحتمل ذلك . . .

اردت من كل قلبي ، أن أبقى سرياً . فلا تراني امي ، ولاخالتي ، ولا المرأة العجوز التي تنام عند الزاوية . . فهن جميعاً ، كن ينمن عن كثب ، ويصدرن روائحهن . في العجين الذي

كان منذ لحظات قد ابتدأ يختمر.

بدا لي أنني احلم بطريقة أبدية. وأن هذا الحلم سيستمر ملايين السنين..

ولكن.. فجأة، وحين كنت دائباً، على تغيير لون سذاجتي، من أجل أن أتعلم الاحتيال، وحين كنت اوصي افكاري الصبيانية، بأن تتجنب أي قدر من الفضيحة، وحين كنت ادجن جسمي على فكرة أن يدي، الان، هي أرشد مني، وأقوى، مدافعاً عن كبرياء احاسيسي التي لا هي أنثى ولاذكر.. في تلك اللحظة الصعبة، تحركت المرأة، مثل اسطورة تتململ في نومها، وانقلبت، فسحقتني، ووجدت نفسي أموت، وينزف دم من أرنبة انفي فيوسخ المرأة النظيفة التي تنام الى جانبي...

من بعد هذا... بقيت افتش في نومي عن الاحلام...

مامن مرة نمت، الا وكان في ذهني أن استعيد الحلمين اللذين غادراني الى غير رجعة... ومع هذا فقد بقيت انتظر.. وسابقى...

اني افتش في اليقظة والنوم.. وفي نفسي...

أبحث في يدي أحياناً... في عيني... في ملابسي.. في تلك الحاجة التي التبست عندي، واوحت لي انني سأستعيد لذة الاستسلام من جديد لان أتبول على نفسي...

والان استسلم.. أو اتمرد مجاناً... بدون جدوى...

والسر الذي انطويت عليه، بدا يتخفى في جسدي ويختلط باعضائي...

هذا السر الذي لم يغادرني قط.. ولم يتخل عني... صار يغيرني... ويتغير.. بحجم كفي... فهو مثل كفي يكبر.. ويتخذ ملامحه... ونظافته حتى قادتني الخادمة من يدي.. كانت اكبر مني ببضع سنوات...

لعلي كنت في السادسة.. وكانت هي في الثالثة عشرة.. ربما أكثر. كنت مُذ جاءوا بها لتعمل عندنا، قد ميزت في وجهها، شفتها السفلى المتدلية بطريقة غريبة. وخفت منها.. وبقيت اتجنبها.. وعبثاً حاولتْ ان تغريني باللعب.. أو الحكايات... كنت أخاف شفتها الغريبة، وطريقتها في النظر مابين عيني، بحيث كنت احس أنها تترك فوق أرنبة أنفي دغدغة لعينة... أذكر بيتنا الخالي.. والشتاء... والخوف المبكر... ورأيت الخادمة تقف ازائي..

كان فستانها في ذلك البرد من «الجيت»، وكان فيه اوراد كبيرة زرقاء وحمراء... وكانت قدماها حافيتين في قبقابها.. وشعرها نصف مشعث.. وتلتمع عليه قطرات من المطر، علقت به وهي تعبر الفناء من المطبخ الي...

أخذت الخادمة بيدي وقالت لي: «تعال نلعب..»



وحين قالت ذلك رأيت من جديد شفتها السفلى . . كانت هذه المرة مكتنزة . . . بل لقد خيل لي أنها متورمة حتى بدا لي وجهها . بسبب ذلك ، غريباً وكأنني اراها للمرة الاولى . . . ظلت يدي معلقة بيدها . . .

يدي دافئة ويدها باردة وعظيمة . . . وقالت من جديد . . «تعال نلعب» وحين لم أرد عليها ، واكتفيت بالنظر الى ملاءة السرير المطرزة بورود صغيرة ، اردفت «الا تريد ؟»

ماأجبتُها . وظلت يدي معلقة بيدها . وللحظة خيل لي أنها ستتركني وكنت خائفاً . . جلست الخادمة الى جانبي . . وقالت شيئاً لم أفهمه . . .

كان صوتها غريبا ، لم اعرف مثله من قبل . . أناني . . ومتلذذ . . وحقود . . . بل كان له رائحة . . حتى لقد حاولت أن اسحب يدي . . ولكني في اللحظة التي أردت بها أن افعل ذلك ، تحسست ،ربما لأول مرة في حياتي ، لذة استسلام غريب ، يملك شحوبه ، وطغيانه ، . . وبدا لي أن استسلامي العجيب هذا ، كفيل بأن ينومني . . وكنت احس توقاً عجيباً الى ذلك النوم ، باهدابه المرتعشة .

بقينا للحظات ساكنين . . لم يكن في ذهني غير ، أوراد فستانها «الجيت» . . وملمس عضدها قرب خاصرتي . . ورائحة شعرها . . وشفتها السفلى . .

كنت واثقاً أنها ادركت خوفي . . . وأصبحت متيقنة من أنني اتلذذ به ، واستسلم لحلمي الذي كان ينبض تحت تأثير سورتها . .

وسألتني سؤالاً لم أفهمه . . ولقد أردت وأن أقول «نعم» فافزعني أنني لا أستطيع أن اتكلم . . ولهذا اتخذت قراري الصغير مجدداً ، أن استسلم . بل لقد كانت حاجتي للاستسلام ازاء هذا الخوف تجعلني مستعداً الموت . . . وماكنت اعرف معناه . . . عند ذاك . . سمعتها تقول لي :

– هيا . . دعنا ننام . .

وبدون أي انتظار . . وبسطوة كاملة أضجعتني ونامت الى جانبي . واذ كنت قد وطنت نفسي على قبول الموت ، فقد اغمضت عيني . وتركت للخادمة ان تنومني كما تريد . .

كنت تحت اللحاف الذي غطاني حتى انني ، أشعر بطغيان وجودها الي جانبي . . .

وكان توقعي مؤلماً . . يتناغم مع صوت تنفسها ، الذي غدا يزداد شراسة وافتضاحاً . . . وسألتني :

– أحكي لك حكاية ؟

وحين لم تسمع مني أي جواب . . . قالت وكأنها تخاطب نفسها :

– أجل سأحكي حكاية . . .



واقتربت مني . . . ثم ابتدأت تحكي . . كان صوتها يمسني مثل خيوط حرير مبللة ، ماتلبث أن تجف بعد لحظات ، وتنسحب ، وتترك مكانها ، لخيوط جديدة . ومع صوتها كنت احس أنها تنوي أن تصل الي ، فتحتال لذلك ، بحذر ، لا موجب له ، لولا أنها –وهذا ما أدركته بعدئذ – كانت تستروحه ، لانها كانت مرتابة مثلي . .

وانتبهت ، الى أنها كفت عن أن تحكي . . وبقيت انتظر . . خائفاً من احتمال ان تكون قد نامت ، وتركتني :

« . . .

أناها هنا

وهي نائمة عن يميني . .

يفوح شذى حلمةٍ ،

ماتزال مبللة بالحليب

ويأتي الينا ،

من النافذة

نعاس عجيب . .

٥ آيار ١٩٧٦»

لم يكن الذي جرى حلماً . . .

لقد تيقنت من ذلك ، صباح اليوم التالي ، وتيقنت منه ، فجر كل الايام التي مرت من عمري . . . وعرفت ، بقلق ، أن ثمة باباً ، انفتح دوني ، ووضعني أمام عالم حاشد بالالم واللذة . . بالحقيقة والخرافة . . باليأس والأمل . . . ولا رحمة بعد اليوم ! .

فالباب الذي فتحته الخادمة ، لن ينغلق . .

والذاكرة التي اعطتنيها . . لايمكن التنازل عنها . . .

آه لتلك الخادمة . . .

لاسمها الذي لا أريد أن اتلفظ به . . . لشفتها السفلى المكتنزة . . . لبساطتها وجرأتها ، وسعة خيالها ، ورغبتها الحارة ، في الاكتشاف ، والمشاركة . . .

آه لها . . .

فقد علمتني مبكراً . أن اسعى لاكتشافها ، مؤمناً بعبث مسعاي ، لأنها – كما في كل مرة ستأتي صدفة ، علمتني أن أخاف عليها ، مكتفياً بمجرد خوفي لانها – كما في كل مرة – ستختني فجأة ، وتترك لي عذاب انتظارها ، والبحث عنها من جديد . . .



فمنذ اللحظة التي أخذتني بها الحبيبة الى اللعب ، وفي غمرة من فرحي ، خفت أن افقدها . .
وظل هذا الخوف المكتوم يكتمل ، خلال بضعة شهور . . . حتى استيقظت ذات صباح فاذا هي غائبة غيبة كاملة . . .

ولقد كان عبثاً أن أسأل عنها

ولقد كان عبثاً أن ابحث عنها . .

فكل اللواتي احببتهن ، وساحبهن ، سيختفين ذات يوم ، محكومات بشروط لعب سرية ، وغير مفهومة ، ويتركن لي ، هذا الانتظار المرائي ، الذي يفسد قصائدي :

«لم تجئ . .

ليكن . . .

فالحبيبة تعرف اسبابها . . .

ربما عوقتها الشوارع ،

أو اخطأت موعد الباصِ

ان الحبيبة ، تعرف اسبابها :

قد تكون المشاعل

اوقد تكون المسائل

أو . .

ربما تعقبها أحد . .

فاختفت في الزحام . .

تموز ١٩٧٨»

والان سأحلم من جدِيد . .

هِل كانت علامة ذاك ، شفة الخادمة السفلى . وقد تدلت بشذوذها الوسيم ؟

كان قد مضى على غيابها ، يومذاك ، خمس سنوات . .

وأكثر . لولا أن الشفة السفلى نفسها . كانت تخرج من ذاكرتي ، وتستقل استقلال زهرة . . فاراها ، واعرفها . . وارتبك . . حتى خيل لي أنني موشك على أن اغيب عن وعي . .

وحين مشيتُ خطوتين . وقبل أن اجتاز نفسي . اكتشفت انني سعيد . . . سعيد ، كما لم أكن سعيداً ، في مامضى من عمري . . . ولكن ذلك لم يدم سوى بضع ثوان ، واذا بي من جديد ، وحيد في حلم خاو . علي أن ابحث فيه عن سعادتي . . .

في اليوم التالي ، أخذت ذكرى تلك السعادة معي ، الى المكان نفسه . ووقفت انتظر . . .



وفي اليوم الثالث . . . والعاشر . . . والعشرين . . .

ولم يكن انتظاري يؤلمني . . بل كان يهبني احساساً مبكراً بقدرتي . .

حتى كان صباح عيد القيامة . . .

كنت قد نسيت منذ استيقظت مبكراً ، أن ابحث عن سعادتي .واكتفيت بأن اعطي أفراحي لطقوس العيد ، وملابسي الجديدة ، ولخفة روحي في تلك الساعة التي تسبق الفجر ، من ايام نيسان الجميلة . . .

أبي يسبقني ، وأنا اتلكأ خلفه ، متأنياً ، لدى الابواب ، حيث ارتب ذاكرتي ، باحتمالات حميمة ، يختلط فيها شذى زهور البيوت الربيعية ، ونكهة اللبن ، والطعام ، والحلوى ، والقطط الاليفة . . .

ثم استقبلني في الكنيسة البخور . . ورائحة العشب فوق القبور الجديدة ، وعبير النساء العوانس ، وهن يصلين بلجاجة فجر عيد القيامة . .

ولقد صليت باهمال . . وبحثت عن اصدقائي ، واقاربي ، بمصباح بارد ترك يضيء حتى بعد انتشار الضوء الاول لعيد القيامة . . وغادرت صحن الكنيسة ، حين كان الشمامسة ينشدون النشيد الاخير والناقوسان يقرعان بجلجلة مهيبة ، ماكانت لتبدو بهذه المهابة ، لو قدر لأحد أن يرى ، أية حركات ، كان ينبغي على الساعور أن يؤديها ، وهو معلق بحبلي الناقوسين ، يقرعهما بمثابرة استمدها من طول معرفته بمهنته . .

وقفت في فناء الكنيسة ، كأنني انتظر أحداً . . ولأمر ، لم اتبينه ، عدت الى باب الكهنة ، وتأملت بذهول ، ذلك الكاهن الشاب ، وهو يرتدي حلته الكهنوتية ، ثم دلفت الى الجناح الايسر من الهيكل ، ومن وراء الستارة المسدلة رحت اتطلع بدون فضول الى قسم النساء ، حيث كانت ترتفع تنهدات الارامل ، والعوانس الخائبات . . . واذ خيل لي أن أبي الجالس في مكانه المعهود ، يومئ لي ، فقد تجاهلت ايماءته ، وهربت من جديد ، الى الفناء ، حيث رأيت شماساً مسناً يسعل سعالاً مؤلماً ، فتجاوزته ، وقد قر في ذهني أن اغادر الكنيسة مباشرة وأذهب الى البيت ، لاذوق الطعام الذي كانت قد اعدته أمي منذ المساء . . . طعام القيامة ، بعد صوم خمسين يوماً عن تناول اللحم . .

وهكذا انحدرت من غرفة الكهنة . . وسرت بمحاذاة قسم الرجال ، ثم عبرت فجاورت قسم النساء ، وارتقيت السلم العريض ، الى المدخل . . وقبل أن اخطو خطوتي . . . وعلى غير توقع ، وكما في كل مرة ، رأيتها في ظل ذاك الممر ، وحيدة ، وقد تدلت شفتها ، التي لا يعرف منها سواي . . .

لماذا يلذ لي دائماً استعيد التفاصيل الصغيرة التي سبقت هذا اللقاء ؟ لماذا استعيدها دائماً بوله



وعرفان ؟ اليس ذلك ، اقراراً مني ، بأنني مدين لها قطعة قطعة ، كما يدين المعنى الاخير لقصيدة ناضجة ، لكل ماسبقه . . . والا ، فكيف يمكن أن تصير الصدفة صدفة . . . والقصيدة قصيدة ؟

قادتني شفتها تلك ، على عجل الى عينيها . . . كأنما لتقول لي : انظر ايها الولد . . انها ليست الخادمة . . . .

واذ رأيت عينيها لم أستطيع أن اتوازن : فقد كان في العينين ، سعة ووقار وعمق وثقة ، واحتشام . . . كان فيهما ، ضرب من القداسة ، فهما اقرب الى عيون الايقونات . . مكتفيات بكحلهن الخاص ، ويقظتهن الفريدة . . .

وعلى غير وعي مني ، وضع خيالي تاجاً من ذهب على جبين الحبيبة . . .

وحين استوى التاج في مكانه ، وانسدل من دونه شعرها المفروق من الوسط ، تنهدتُ . . . وسمحت لها أن تمر ، وفي أعماقي ، يحسب قلبي بنبضاته ، عمر سعادتي . . .

جاورتني الحبيبة ، وعبرت . .

كنت مؤقتاً أنها مارأتني ، ولا أحست بوجودي . . . فلأمرما ، بدا لي أنها ابتدأت صلاة عيد القيامة ، قبل أن تصل الكنيسة فهي مستغرقة في ورعها الانثوي ، ومشغولة بادعيتها عني . . .

ولهذا لم التفت ورحت اجتاز المدخل ، ملقياً بنفسي الى ذاك الصباح الربيعي المفعم بأريج الزهور المنزلية ، والنظافة وبهجة العيد . .

لدى الباب استقبلتني راهبتان ، لم استطع تفاديهما ، فقبلت يديهما ، وهربت . . . وعند الساحة المحيطة بالكنيسة ، استوقفني اصدقائي بملابسهم الجديدة وعوقوني عن حاجتي الى وحدتي . .

ولكني لم البث أن وجدت فرصتي الى الهرب . .

كنت اسلك الطريق الى البيت ، وذهني ، يوبخني على هربي ، ويزين لي أن أعود ، اذ كيف يمكن أن أكون بليداً الى هذا الحد ، بحيث اترك الحبيبة ، تصلي في الكنيسة ، وحدها ، بعد أن أعطى لي الزمن ، قدرة العثور عليها ، وفرصة اللقاء بها ؟

كنت اقطع الطريق الى البيت ، وخيالي يلح علي ، ويزين لي ان اعود الى الكنيسة من جديد وابحث عنها . . . هكذا :

ادخل من باب النساء ، وتطوف عيناي في صفوف المصليات ، ثم اعبر من الوسط ، واوجه «القربان» فاسجد ، ارسم علامة الصليب ، وأقوم ، وعند ذاك ستكون على يميني ، قرب مذبح «القلب الاقدس» ، راكعة ، وفي يدها كتاب الصلوات الصغير ، تقرأ فيها ، افعال



«الايمان والرجاء والمحبة» ، غادرك أنها تستعد لتناول القربان . . . فمنذ أربعة أيام اعترفت بخطاياها بمناسبة عيد الفصح ، واعادت اعترافها أمس ، وبعد قليل سيقرع الجرس الصغير ، فيخف الناس . صفوفاً . الى المذبح ، ويركعون بخشوع على العتبة المرمرية . . ويأتي ولد في يده شمعة موقدة يتقدم الكاهن الذي ينحدر من المذبح حاملاً الكأس الذهبية . . .

. . . الله لكَ ، ، . ستقترب أنت بالشمعة الموقدة والصينية الفضية . . تقترب من الحبيبة الراكعة مثل ضحية مستعدة للموت والمحبة ، سترى وجهها وتسمع صوت تنفسها ، وتتملى ارتعاش جفنها المغمضين ، وهي تستقبل القربان بين شفتيها . .

كان الاغراء شديداً ملحاً . . ولو لم يكن كذلك ، لاستجبت له . . وافسدت رصانتي . . . وهكذا دخلت البيت والقيت بنفسي بين احضان ذاك الخواء والصمت المبكرين ، بسبب غياب الجميع في الكنيسة . .

ولقد تفحصتني عمتي الحولاء . . مدركة أنني مريب ، وعبثاً حاولت أن تخضعني لاستنطاقها القديم . فقد كنت مشغولاً عنها ، وعن العيد بسعادتي ، مدركاً ، أنها أو سواها ، لايستطيعون أن يقدموا لي أي خدمة وأنا منجذب الى حيرتي الجميلة . . وسري الحميم الذي ابتدأ يتنفس . .

لم ألبث أن انتبهت الى دهولي ، فجهدت من أجل أن غادره ، وأستعد مع الآخرين في باحة العيد . ولكن ذلك كان صعباً ، بسبب اسئلة عديدة ، كانت لاتفتأ تتملقني . . . وحينذاك انتبهت ، أن حبيبتي ، اكبر مني . فزدت سعادة . .

بعد أيام ، عرفت اسمها . . .

حدث ذلك صدفة أيضاً . . . ورغم اسمها لم يكن غريباً ولامتميزاً . . بل ولاحتى جميلاً ، فقد بدالي وكأنني اسمعه للمرة الاولى ورويداً رويداً ، راح يؤكد سحره ويغير في روحي من وقعه ، حتى صار اشبه بصلاة فأنا اردده ، كأنما أخاف أن انساه ، ثم لم ألبث أن زدت به تشبثاً ، فرحت انقش الحرف الاول منه على دفاتري ، واحفره على الحيطان ، بطريقة مبهمة ، بحيث لايستطيع سواي قراءته . . . فيكتشفني ، اذ يكتشفه . . .

لشد ماكنت ضنيناً بحالتي . . ماكنت اريد لاحد أن يعرفها ، أو يحدسها ، كأنما كان ذلك كفيلاً بأن يفسد سحراً ، قوته ، في خفائه وخصوصيته . وهكذا ، لم يخطر لي . ولا للحظة ، أن احدث أحداً بذاك الحب ، حتى هذه الساعة . لقد ظلت مشاعري تلك مكتومة ، وظلت الحبيبة سرية ، فلم أشر اليها قط ، كما اشرت بعدئذ الى كل الحبيبات التي قدر لي أن اعرفهن ، ولاتحدثت عنها ، كما تحدثت عنهن . حتى لكأني نسيتها . . ولم أنسها . .

فها هي ، بعد اربعين عاماً أو أكثر ، حاضرة ، بكل ذاك البهاء ، وانني لأستعيد اللحظة ،



بحنان ، لقاء عينيها في مدخل الكنيسة ، صباح عيد القيامة ، واستذكر الوقع الاول لاسمها الصغير . . . ثم بعد ذاك اسم ابيها وامها . . واسم اخوتها . . واسم ذاك الولد ، اخيها الأصغر ، الذي كان ، تلك السنة ، في الصف الثالث الابتدائي . . .

كنت اتطلع اليه في المدرسة ، واحدة من كل قلبي ، لانه أخوها ولأنه يراها كل يوم ويسمع صوتها ، وهي تناديه ، أو تداعبه أو تدلله . .

– سمير . .

ويتطلع الي الولد ، مستغرباً اهتمامي به . . ثم لايلبث أن يضيق بهذا الاهتمام ، فيهرب مني ، وأكاد أتوسل به :

– تعال ياسمير . . تعال ياعزيزي

ويسألني ، هو يزوي مابين حاجبيه وعيناه تلتمعان ، فتكادان تشبهان عينيها :

– ماذا تريد ؟

– اسمع ياسمير . . . كيف أنت في الدروس ؟

ويضيق الولد ثانية . ويتعب من لجاجتي ، غير المفهومة . . فيهرب . .

ثم كان يوم ، سمعتهم يتحدثون عن ابيها ، كانت عمتي تتحدث عن فقر ابيها ، وعن زوجته الطيبة التي تتدبر بحكمة تصريف شؤون عائلة كبيرة . .

لكم رقص قلبي طرباً ، حينذاك . . وتمنيت لو أنهم ظلوا ، يتحدثون . بل لقد تمنيت من كل قلبي لو كنت فرداً من هذه العائلة الفقيرة ، وأن يكون أبي أباها ، أو أن يكون أبوها أبي ، فأنا لست اكثر من اخ صغير ، أكون قريباً منها ، وحبيباً على غفلة من الجميع ، مكتفياً بأن اراها يومياً . وأسعد بأن أحضر جوار حياتها ، حيث تأكل وتستحم وتمشط شعرها وتفرقه من الوسط . . .

واكتشف ذات يوم بيت الحبيبة . .

لابد أن وجهي احمر وأنا اعبر ذاك الباب لاول مرة . . . لأنني وأنا أجبر نفسي على أن لا التفت فاتطلع اليه ، كنت اسمع صوت قلبي ، ولغة اضطرابه العذبة . .

ولم يلبث المرور ببيت الحبيبة أن صار لجاجة أيامي . . .

كنت اقاوم رغبتي ، خجلاً ، وخوفاً ، فقد يعذبني ، احساسي ، بأن هذه اللجاجة لابد أن تكشف سري ذات يوم . . أو أن تجعل الحبيبة تكتشف حبي . وماكنت أريد ذلك ، حتى لو دفعت دونه حياتي . . .

ولكن نزوعي كان اكبر مني . . .

في كل يوم . كنت آخذ معي قلقي ، واغادر بيتنا ، وأسلك الطريق الذي اعرفه جيداً ،



وليس في نيتي ، سوى أن أمر بذاك الباب ، مجرد مرور ، وفي اعماقي ، احتمال ، أن أراها ذات يوم صدفة . . وللمحة خاطفة . . .

وما من مرة حالفني الحظ . وما كان ذلك ليؤثر في لجاجتي . ولا يملك أن يترك في روحي ، أي قدر من خيبة الأمل . بل على العكس ، كان ذاك ، يزيد من ولعي ، فما أكاد اعود الى البيت ، واستقر لحظة ، حتى تروح خواطري ، تحرضني على أن أعود من جديد . . فأعود . . .

وانقضت سنتان . .

سنتان . لم التق خلالها الحبيبة ، سوى مرات قليلة ، وفي المرة الأخيرة رأيتها وهي تدخل باب بيتهم ، مولية لي ظهرها ، وتختفي . . .

سنتان مرتا . . . لم تلتفت لي الحبيبة مرة ، ولم نتبادل كلمة أو تحية ، . . فهي طوال ذاك الزمن ، لم ترني قط ، وما عرفتني . .

وفي ظهيرة يوم ممطر . . لشد ماأكره حتى اليوم المطر في الظهيرة . . .

كنا قد انتهينا من تناول الغداء ، وسمعت اختي تتحدث الى امي في المطبخ وتقول لها أن بنت عبدالله النجار قد خطبت . . .

وسألتها امي :

— أيهن ؟

وكما في حلم ، سمعت اختي تلفظ اسم الحبيبة ؟

الله . .

يالأول احساسي ، الظالم ، بالغيرة . . احساس مفاجئ وفاجع ومرير . . .

لم اكن أفهم آنذاك جيداً ، معنى أن تخطب فتاة ، أو ان تتزوج . . . ولكنني بفضل مرارتي حدست نوعاً من الخيانة والعار . . ضاق بي البيت . . فخرجت . . .

وتحت مطر ذاك الشتاء غير الرحيم ، وجدتني اسلك الطريق ، تدفعني امامها ، حاجة لم اكن افهمها ، ولكنني لم استطع الهرب منها ، كنت اركض في المطر ، وهي تلحق بي ، لاهثة ، مفجوعة ، واسمع صوت عذابها ، في خطواتي الوحيدة ، وهي تضيع في الازقة . . . حتى توقفت عند ذاك الباب الذي اعرفه جيداً .

كان الباب مغلقاً كعادته يلتمع تحت المطر ولم أر ثمة مايدل على كارثتي . . .

مالذي كنت أتوقع ان أراه ؟

باب البيت مايزال في مكانه . . لاهو تبدل . . ولاتغيرت الوانه . . لارأيت قربه أحداً ، ولاتناهى لي من خلفه أيما صوت . . .

بقيت واقفاً ، التقط أنفاسي . . كنت مبلـلاً تماماً . وكانت الظهيرة ثقيلة ، ومر رجل يحمل



مظلة . . ومر كلب . . واختفيا في المنعطف . . أما أنا فاستدرت عائداً ملوثاً بأول غيرتي . . .

في تلك الليلة . من أجل أن يأخذني النوم ، رحت اكذب على نفسي . .

وفي الليالي التي تلتها ، جريت النسيان ، بعد أن مسحت كل الحروف التي كنت قد كتبتها على دفاتري . .

ولاسبوع كامل ، استطعت أن اقاوم رغبتي في أن أمر بذاك الباب الخشبي المصبوغ باللون الازرق . . ثم حين كنت خارجاً من المدرسة عصر يوم السبت بعد انتهاء درس الرياضة ، وجدتني أمام الحبيبة وجهاً لوجه . .

في تلك المرة رأتني حقاً . . رأتني ، وبدالي أنها ابتسمت لي وربما لانني حدقت بها ، متطلعاً بكل قواي في عينيها اللتين استعبدتاني . ثم في وجهها الذي علته المساحيق . . وشفتها السفلى المصبوغة بالاحمر . .

بدالي أن حبيبتي قد كبرت بضع سنوات . حتى خيل لي لوهلة أنها اختها الاكبر منها . . وقد أراحني ذلك . .

ثم مرت شهور . . .

وفي امسية صيف رأيت بعيني هاتين حبيبتي بثياب العرس ، والى جانبها يقف رجل ذو شاربين كثيفين ، قوي وجبار ، بحيث احسست عميقاً بالصغار ، وقدمت استقالتي من حبي ، غير ابه بالذلة التي كانت تسكنني . . .

وخلال أشهر ، كان علي أن أواجه أياماً صعبة من الخواء :

فقد الزمن معناه . وحين كانت تضيق نفسي ، كنت أتسلى ، بأن اسلك الطريق نفسه ، بقدمين لامباليتين . كنت اسير ، معرضاً نفسي للأزقة ، حتى يراني باب الحبيبة من بعيد ، فأحس للطريقة التي يتطلع بها الى . أنه يعرفني ويفهمني ، كما صار يفهم نفسه ، فهو الان ليس اكثر من باب خشبي ، لايكتم خلفه سراً ، ولا يعد بحلم . فلقد هجرته الحبيبة ، كما هاجرت من حياتي . ومنذ ذاك الحين ، صرت التقيه مفتوحاً ، مثل فم دون اسنان .

وتخثر حبي في روحي . .

وبدأ المكان الذي كنت احب منه يؤلمني مثل جرح . . بدأت عيناي تعاتبانني . . عيناي وقدماي . . وكراريسي والحروف المبهمة التي غادرها الحرف الاول من اسم من احببت . . .

ولم يتبق مع الايام ، سوى عينين قديستين . واثقتين ، سوداوين ولامباليتين . . . وشفة سفلى متدلية . . وداعرة . . شفة خادمة . . .

والساعة اعترف : وسيثقل اعترافي على نفسي ، كما سيثقل على كل اللواتي اعطيتي الحب من بعد . . .



الساعة اعترف ، انني من بعد عيني قديستي . . جربت الحب ولكنني لم اجربه كما جربته سحابة سنتين وأنا في ظل حلمها الفذ . . .

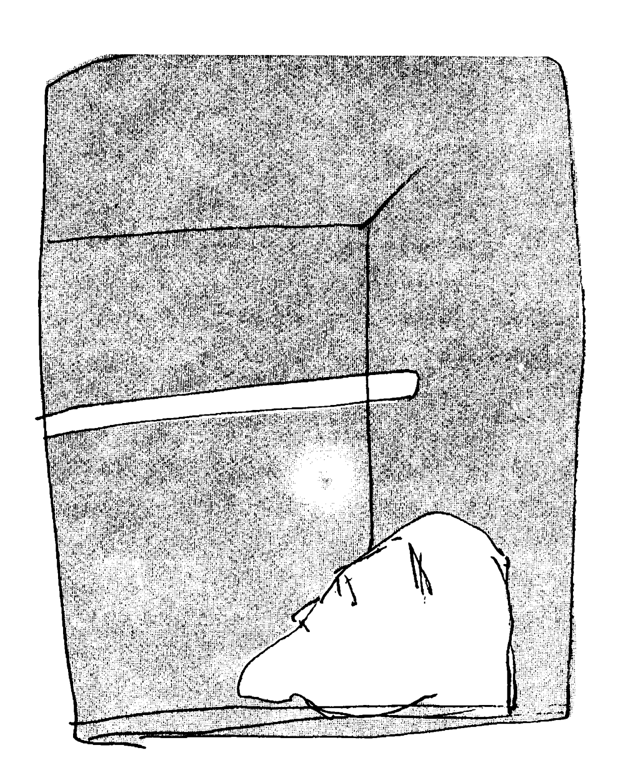
ماعاد الحب عندي نقياً . . . ولامنزهاً . . . لم يعد عبادة . . بل التبس من جديد بالغيرة والحذر والمكابرة والكبرياء والتعب ، وهوان اللذائذ المحرمة .

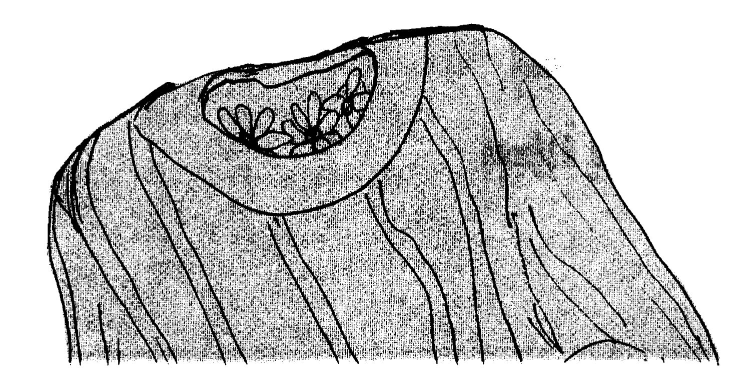


الفصل التاسع

نبـــوءة يعقوب








مكتبة
الفكر الجديد

الفصل التاسع
نبـوءة يعقوب

ترك لي أبي بعد موته ، مئة دينار ، مودعة عند اموال القاصرين ، ومكتبة صغيرة بينها كتب منسوخة بخطه الجميل ، وعدة التصوير الفوتغرافي ، الذي كان بعض هواياته . .

اعطت امي ساعته الذهبية الى خالتي الراهبة . . ووهبت ملابسه للفقراء . . ولم يبق منه ، سوى ذلك الدرج السري ، الذي كان يحتفظ فيه ، باوراقه الخطيرة ، وقصاصاته الحميمة .

ثم في مساء بارد ، نزل عمي من غرفته ، واستدعى زوج اختي الكبيرة ، واستدعى والدتي ، وباصابع من خشوع وفضول فتحوا الدرج . . وراحوا يبحثون فيه عن ظنونهم . . علهم يقعون فيه على ذلك الكنز الذي تخيلوه . . الكنز الذي لابد قد تخلف عن عمر طويل ، ومرير ، عاشه أبي ،موزعاً بين مشاريعه الكثيرة .

لم يستغرق الفضول سوى ساعة أو أقل . . وخرجت اللجنة الغريبة من الغرفة يسبقها شحوب امي ، ودموعها النحيلة . . وعند باب الغرفة رأيت عمي ينفض التراب عن جلبابه الاسود ، وامتلأ البيت أثر ذلك بقشعريرة ناجمة عن الموت وخيبة الأمل . .

جلس الجميع في الغرفة الكبيرة صامتين .

هل كانوا ساعتذاك ، يلومون أبي ، لانه خيب لهم ظنونهم ؟ أم يلومون أنفسهم لأنهم ، اساءوا الظن ، بذلك الرجل الذي مات قبل أيام ، وما خلف بين اوراقه ، ما يبرر كل التعب الذي عاناه . سحابة اكثر من سبعين عاماً . . فاذا هو ، في النهاية فقير . مثل كل الفقراء . . وغني مثلهم تماماً . . مكتف حتى بعد موته بـ (صيت الغنى) لانه ، مهما يكن أكرم من (صيت الفقر) . . ارادوا جميعاً أن يلقوا السؤال على ليلة ذاك اليوم : ان كان هذا الذي رأوه معقولا . . ولكنهم خجلوا . . أوخافوا . .

أنا الوحيد ، بينهم ، الذي ، ماكنت خائفاً ولا خجلا . . بل كنت استعجل الزمن لكي يتفرق شمل هذا الحشد الحزين ، فأستولي وحدي ، على ذلك الدرج الغريب الذي ظل لسنوات يحرك فضولي . ويستقر مخيلتي . .

كان ذلك الدرج المحرم . ينطوي في ذهني ، على غرائب ، هي اشبه ، بما تحتوي حقيبة جوال مغامر . . بل كان يحتوي أبي الذي سافر قبل أيام . ولن يعود . . ذلكم هو الكنز الذي كنت ابحث عنه ، وكأنني أبحث عن نفسي . . .



ولقد كان علي ان انتظر . اليوم الذي يفقد هذا الدرج ،في البيت رهبته. ويتحلى عن قدرته في ان يقدم للجميع . الانطباع القاسي بأنه اشبه ببقايا جسد ميت لا يصح العبث فيه . الا لسبب مقدس ، ومعقول . .

ولم يطل انتظاري . .

في الايام التي اعقبت تلك الامسية ، بدأ أن ذاك الدرج اصبح مؤهلا لان يصدر وحده ، روائح قب حقيقي . تملأ الغرفة التي ننام فيها واحسست أن أمي تتعذب لوجوده . عذابها لو أنهم وضعوا في هذا الدرج جسد ابي فهي تخافه وتتحاشاه طوال النهارفاذا جاء الليل . ابقت الضياء في الغرفة ، كأنما ، لتعبر عن خشيتها من ان يتسلل الميت من قبره في الظلمة ويروح يسعل قرب سريرها طوال الليل . . .

كنت اراقب ذلك كله وأنا مشغول بفضولي ارتب خبثي من أجل ان تبدو لهفتي مقبولة ، وصالحة للاعذار . . أو متغاضى عنها على الأقل . .

وهكذا . .

فتحت الدرج ذات يوم . .

ماكنت خائفاً ولا خجلاً ، ولا حزيناً . .

بل كنت ممجداً في رغبتي ، لأن ارتاح من فضولي وان اشم رائحة ذاك التراب الذي علق بجلباب عمي . . فاحزنه واخافه . .

أنا لا أحزن . . ولا أخاف . .

بل افتح الدرج مستجيباً للذة أن اعرف مالم اكن اعرفه – لذة ناجمة عن حرمان قديم يمتد الى اليوم الذي حاولت فيه التلصص وانتهروني . . ثم اغلقوا الباب بالمفتاح وتركوني مع خيالي اعيد صياغة محبتي لابي واحترامي ورهبتي . مدعيا أمام نفسي أن ثمة في هذا الرجل الذي هو أبي شيئاً لا اعرفه ومحرمة علي معرفته . .

ياللأباطيل !

أما كنت اريد أن ألعب ؟

الم يكن ذلك الدرج المغلق يستفزني . اكثر مايستفزني . وانا ضجر وعاطل عن حماستي . ويغريني . مقدما لي المواعيد ؟

بلى . . كان اروع ما فيه . انه سري ومحرم وكان يريد من هذه الروعة انه ينطوي على اسرار أبي ، وان أبي لا يريد لي ولا يريد لسواي أن يعرفها ، والان افتح الباب . . متلذذا بوحدتي مستعيناً بعينين شرهين لان اعرف أبي . . كأنني اتلصص عليه من ثقب الباب . . .



قلبت دفاتر فيها حسابات قديمة . .

دفتر للنفقات التي تكلفها زواج عمي الاكبر . واخر للنفقات التي اقتضاها ، انتشال جثة عمي «عبدالاحد» من دجلة . . ومن بعد ذلك نفقات جنازته ودفنه . . دفتر صغير لحساب «سوسن» التي هي امي دفتر لّ . . .

وما سوى الدفاتر كان ثمة خرائط لا راضي ذات اسماء غريبة وسندات قديمة ، وحجج عثمانية . . ووصولات . .

ثم ملف يحتوي رسائل كثيرة واوراقاً رسمية . . هذا الملف ، كان ضالتي ، ولهذا استخرجته بشغف ، ورحت اقرأ . .

كان أقدم ما في الرسائل ، قصاصة ، كتبها جدي ، أو بالاحرى ، أملاها على ابي وهو على فراش الموت . .

عند هذه القصاصة ، توقفت كثيراً ، لان أبي كان قد حكى عنها أكثر من مرة . . وروى لنا كيف ان اباه حين أحسَ دنو الموت ، دعا ابنه ، واوضح له ، أن له دَيْناً عند التاجر الفلاني ، من المستحسن استيفاؤه الان . عبر رسالة «تطلب فيه منها ان يزودنا بكذا طغار من الحنطة وكذا وزنة من الحمص والعدس والرز والبصل . .»

«الى جناب الخواجة فلان بن فلان المحترم . .»

هكذا تبدأ الرسالة . . .

ولكن الصورة في ذهني كانت تتجاوز اللباقة التي اختارها جدي من أجل دينه ، لتصير مشهداً حزيناً كهذا الذي اعتدت سماعه في القصص . والا فمن اين جاء الهدوء الى جدي وهو يواجه موته بحيث استطاع ان يتجاوز الخوف ، والحزن ، ليفكر بدين . . ويتدبر استيفاءه ، بكل هذا اللطف والأدب ؟ كيف كان صوته هو يملي رسالته الى «جناب الخواجة فلان بن فلان» ؟ كيف كانت عيناه ؟ ماذا كان يحس وهو يدرك ان هذه الرسالة هي بطريقة ما ، رسالة وداع موجهة ليس الى (الخواجة) بل الى الدنيا ، والعمر ، والحياة والاولاد . .

أجل رسالة وداع . . أو وصية ، ولكن من نوع غريب . .

ولهذا ، كانت هذه القصاصة ، وماتزال تستدر في ذهني معنى الموت الرجولي الذي يواجهه اناس مثل جدي ، بوقار وقوة . . ولست أدري لماذا ظل ذلك يقترن عندي بنبوءة «يعقوب» البار ، أبي الاسباط حينما وافته المنية . .

لقد كان ابي شغوفاً بهذه النبوءة ، فهو لا يفتأ ينشدها مستجيباً الى شهوة الوداع ، والوفاء الكامنة في روحه مضيفاً اليها من حزنه تلك النبرة الحزينة المشحونة بالحكمة ؟

والوقت خريف . . وكنت قد أخذت معي صديقي على دراجة ، وقصدنا «دير ماركوركيس»



حيث اختار أبي ان يعتزل قبيل موته . .

كل شيءٍ كان يبدو عارياً . . الطريق . . والسماء . . والبرية . . والنهر . . وجدران الدير المغطاة بالاشنات . . ووجه أمي . . وعينا أبي . .

وجدتهما وحيدين في تلك الغرفة الموحشة المطلة على التلال . . يقاومان في وحدتهما ، معنى انفصالهما الوشيك ويجهدان ، لان يجري ذلك باشد الطرق ألفة . . بالسريرين المتصلين ، دون مواربة . . بملابسهما المعلقة على مسمارين متجاورين في الجدار . . بأواني الطعام . . وبتلك الوسائد المطرزة والملاءات النظيفة . . والستائر التي علقت على النوافذ بدون اتقان . .

ماكان بوسعهما ، انكار انهما وحيدان . . وحدة مريبة بسبب معنى الموت الموشك والانفصال القريب . . وماكان بوسعي انا في قرارة مراهقتي أحتمال الغرابة الضارية في كل ذلك ، لولا أن الاعلان عن ذلك كان قاسياً وكريها . . وهكذا ، ماكان ثمة مناص من المداهنة بتحاشي التفكير بالموت . . كمن يشبح ، فلا تقع عيناه على منظر يعافه . .

ولكي اقاوم ألى ابعد حد أستطيعه ، قلت للرجل الجالس على سريره :

– أنشدنا ياأبي . .

وما أن سمعتُ صوتي ، حتى ادركت أنني ، أفرطت في مداهنتي . اذ ليس من العدل ان اكلف هذا المريض المصاب في رئته بالأنشاد ، لان ذلك ببساطة ، سيؤلمه ويؤذيه . . تطلعت اليه مشفقاً وخيل لي لوهلة أنه ما سمعني ثم لحت ابتسامة على وجهه . . ابتسامة مقتضبة ، وحزينة حتى لقد خفت أن تند دمعة من عينه . . . خفت ذلك بكل عقلي لانه لو فعل ذلك ، هو الذي لم أراهُ يبكي طوال حياتي ، فماكنت لأملك ، سوى أن اذهب اليه على سريره وأتوسل به ، الا يموت . . أو احلف له أنه لن يموت . . أو أقول له :

أنه اذا مات ، فسنموت جميعاً معه . .

ومرت لحظة صمت . .

كنا أنا وصديقي ، نقف ازاءه ، شاحبين ومرتبكين بأفكارنا عن الموت والمحبة ، منتظرين ، تلك اللحظة ، التي ينتهي فيها انتظارنا المبهم ، لنشيد ، لم نكن بحاجة اليه . . وسعل أبي مرة ، ومرتين ، ثم علا صوته ، فاذا هي من جديد ، نبوءة «يعقوب» :

«ودعا يعقوب بنيه . . . وقال لهم . .»

«اجتمعوا ياأولاد يعقوب . . . .»

«واستمعوا لنبوءة أبيكم . . . . .»

لماذا اختار النبؤة دون سواها من الاناشيد ؟ وهل تقصد ان يرد على مداهنتنا الفجة ، بقسوة احساسه بالمصير ، فهو الساعة «يعقوب» البار . . وما من اسباط ؟



هربت من عينيه الى النافذة . . . كان الشحوب الذي خرج من حنجرة أبي ، يتسرب من الزجاج ، ويمشي على السهل ، ويصعد التلال المقفرة يتخذ ملمس الشوك . مغيرا من التضاريس التي كنت عرفتها شبراً شبراً . . . بحيث رأيت التلال تتحول فجأة . . فاذا هي تلال الحزن والموت . فهي غريبة عني غربة ظالمة ذاك ان صوت ابي كان يفضح لها موته الوشيك . . .

«روبين . . . أنت بكري . . . . . .»

«قوتي . . وأول قدرتي . . . .»

«أصل الرفعة . . وأصل العزة . . .»

جاءت امي من الخارج ، ووقفت حيالنا جميعا تبتسم ، ربما لان انشاد أبي ، أوحى لها ، بان حبيبها لن يموت مادام يملك ان ينشد كما كان ينشد من قبل ، كانت حاجته الى خلوته تفسر لها كيف ان موته . لا يمكن الا ان يكون موتها . وأنه ما من منطق يمكن ان يسمح له بالغياب . . في حين تظل هي حاضرة ، مادامت قد ارتبطت به . . بكل هذا القدر من الاستسلام . . ومن هنا جاء عدم تصديقها الفريد لهلاكه . . فهي لا تفتأ تحلف له «أنه . . غداً يشفى . .» فيصّغي اليها متضايقا . لانه لا يملك القوة الكافية لان يسلبها ايمانها بالمعجزات . . والمعجزة الان . ان لا يرحل ويتركها وحيدة ، في قرارة انوثتها . . هذا الجبار الذي تفانت من أجله وصنعت ابتسامتها المجيدة وزلتها النسائية المهيبة . . . تهدج صوته . ولكنه تابع الانشاد ، متأنياً هذه المرة :

«شمعون . . . ولاوي . . أخوان . . . .»

«آنيتا سخط من طبعهما . . . . .»

«في سرهما : لم تلج نفسي . . . .»

«وفي منزلهما لم أنحط عن كرامتي . . . .»

«لانهما في سخطهما قتلا رجالا . . . .»

وفي غضبهما . . خربا . . . سوراً . . . .»

وحين انتهى الأنشاد الى المقطع الذي يلعن يعقوب فيه سخط ولديه ، تخطاه أبي ، وقطع السياق ، حتى لكأنه تعمد ذلك ، ثم اذابه عند ختام النبوءة يدعو ليوسف :

«ولد مفرع ، يوسف . . . ولد مفرع . . .»

ويوسف ، مدلل يعقوب . . ومظلوم اخوته . . الأمير السجين . . قارئ الاحلام . الذي راودته امرأة عن نفسه والذي عصر خمرا لفرعون . . .

ويوسف أنا . . . وهذا أبي المصاب بالسرطان . . وبالموت . . . فما الذي يمكن أن يعنيه النشيد الآن . وما الذي تحاول أن تقوله النبوءة في هذا الدير المتوحد . المحاط بالشوك والارض



المحروثة حديثا ، وعلى هذا السرير الذي يشبه اسرة الغرباء ؟

يعقوب على سرير الموت . .

جدي على فراش نهايته . . .

وأبي . . .

الان ادرك أنه انشد من اجلي – فعل ذلك اكراما لي لقد فهم نفسه اذ فهمني وكان كريماً . . حتى قاطعه ذلك السعال الظالم ولعلة حين لج به الالم ، بسبب ما كان يكلفه انشاده من عناء . لعله قال لنفسه وهو الحصيف اللبق «يالولدي هذا . من قليل الاحساس . . كيف له ان يدرك انه يكلفني فوق ما استطيع ، ولعله لم يقل ذلك . . لانه كان في اللحظة الاخيرة . مشغولا بسعاله وبأن يتدبراعتذاره . الحزين :

– لا أستطيع . .

ما الذي يستطيعه الانسان في ساعة موته ، سوى ان يموت . . واذا شاء ، أو اذا استطاع ، ان يموت بطريقة كريمة ؟

كان يعقوب يتنبأ لأولاده . .

وكان جدي مشغولاً باستيفاء دينه . . .

وقبل موت ابي بلحظات سمعته يقول لوالدتي : ايقظيه . . . لقد تاخر الوقت على المدرسة . !

ثم بعد لحظات سمعت والدتي تنوح . . . وكان ابي قد أسلم الروح . . ولقد ظلت هي ، في ترملها البهي ، تحكي للناس كيف انه عاش ومات قديساً . . . كيف يموت القديسون ؟ . . كيف يعيشون ؟

. . . .

مئة دينار في أموال القاصرين . . .

ورسالة جدي الاخيرة . . وحسابات قديمة عن نفقات بالعملة العثمانية ، أو الهندية . . وديون منسية . . وخرائط مبهمة . . . وسندات لاغية . . وثلاثة وسبعون عاماً . . أكلها السرطان . . وفي بغداد ، قال له ابن اخيه :

– ياعم . . مرضك خطير . فانفق من اجل علاجك . . ما قيمة الفلوس التي تحتفظ بها ازاء صحتك ؟

– صحيح . . .

قالها مبتسماً . . وفكر بمئة دينار مودعة في اموال القاصرين بأسم ولده الصغير . وفكر بالنفقات التي عليه ان يتدبرها وهو مريض ، حتى تحين وفاته . . ثم فكر بالنفقات التي ستتكلفها



جنازته . وحين أحس اليأس اختلط ألم السرطان في روحه بألم الحرمان ، فاكتفى بذاك النداء الذي اعتاد ان يطلقه في صمت الليل .

— ياالله . . .

وراح ينتظر . . . في حين كانت امي تردد
في سرها تلك الامثولة . . . المتشبثة بها طوال حياتها :
«لابد ان نغتني . . والفقر ما هو بعيب . .»
«لابد ان نغتني . . .»

ذلكم هو المفتاح الذي وجدته في جيب أبي بعد موته يعالج به الابواب . . . سبعين عاماً متفقاً بذلك مع امي في شقا . . . ثم مخالفا اياها في الشق الثاني من امثولتها وهو يرى الفقر عيباً مقتنعاً أن «صيت الغنى . . خير من صيت الفقر» .

وهكذا . . ولهذا عاش فقيراً . مموها فقره بصيت رجل غني . مدركا ان هذا الصيت كفيل بأن يحميه من الازدراء المر ، الذي يقابل به رب عائلة فقير . .

وكيف يكون ؟ وانت مطالب ، طوال سبعين عاماً . ان تتدبر التوازن بين صيتك وواقعك ولكل منهما تكاليف . ؟

لعل عزاءه في تجشم هذا التوازن القاسي ، كان في طاقته على ان يحلم بانه سيغدو غنياً ذات يوم . وفي اخلاصه لذلكم الحلم ، وسعيه من أجله . . بمثابرة ، لم يلبث ان اصيبت آخر العمر بالسرطان . . .

كانت عمتي الكبيرة طوال حياتها تلفظ اسم أبي ، وتهز رأسها :

— أمير . . وأبو بيت . .

ثم تنظر الي بعينها الحولاء وتقول لي باعتداد ، في حين تفوح من جسدها رائحة عجين يختمر :

— ابوك سبعٌ سبمبع . .

ثم تروح تحكي كيف تكلف أبي بزواج عمي الاكبر . . وكيف تدبر ان يبعث الى اسطنبول «عبدالاحد» . اصغر اخوته ليدرس الهندسة هناك على حسابه . . وقبل ان تدمع عيناها ، وترتجف شفتها السفلى يباغتني الخوف . فانا اعرف القصة بتفاصيلها . . .

«لقد غرق المهندس الشاب عُبدالاحد الصائغ في دجلة . . ابلغوا ذويه . . .» . .

وأنا اقرأ البرقية التي يحتفظ بها ابي بين اوراقه ، وارتعش . . . يضغط الماء على صدري فأشارك هذا العم الذي لا اعرفه ، غرقة واختناقه ، دون ان أجد فرصة لان اصيح أو أن تدمع عيناي ، واروح أقلب بتعب قصاصات الصحف التي نشرت الخبر . عن ذاك الشاب المهندس



من الموصل . الذي القى بنفسه في دجلة لانقاذ طفلين مشرفين على الغرق فانقذهما . . ومات . .
وتقول امي من مكانها :
– شهيد الشهامة . . كل الصحف كتبت ذلك . . شهيد الشهامة والمروءة . .
اما أنا فتعلق في ذهني كلمة «الشهيد» وعلى غير ارادة مني اتمثل صورة الراهب المعلقة . في الدير الاعلى . وقد تجمع حوله قطاع الطرق ، يقتلونه بخناجرهم وهو يصلي . . . صار في ذهني الان . شهيدان . . ذاك الراهب العجيب . وعمي الذي كان أصغر اخوته . .
فأي المصيرين اختار؟ الموت بخناجر اللصوص . . ام النوم تحت ملاءات الماء ؟
ولا أنام الليل . . وفي سهري . اسمع أبدأ صوت أبي المعذب يهتف «ياالله» ! واتذوق عذابي . .
اول مشاريع أبي أخذها الماء . .
وانظروا حظ هذا الذي احب احلامه !
اثنان سلكا الطريق الى اسطنبول ، وأكملا دراسة الهندسة هناك . ثم عادا الى وطنهما وذويهما . .

الاول الذي هو أصغر اخوة أبي . . مات غرقاً . . . !
والثاني . عاش . وذات يوم صار رئيساً للوزارة . . ولا حسد ! انما لا شماته ! لانه ، لا يصح أن يثبط أحد ، عزيمة هذا الرجل الحالم . وهو يغامر ، فيبعث باخيه الاصغر ، ليدرس في الخارج . . وليدرس الهندسة بالذات منفقاً عليه سحابة أربع سنوات وتزيد . .
من أين ؟
من مكان واحد . . ذاك المكان الذي يجتمع فيه ذكاوءه باحلامه ، وصبره بمثابرته . . ومزاج من السلوك . اسمه «التدبير» حيث الرغيف في موضعه والفلس في مكانه . . لاننا «لابد أن نغتني . . .» وينبغي الانتظار . .
حين مات أبي ، لم يكن قد تبقى من حلمه الاول ذاك غير دفتر دون فيه نفقات انتشال جثة اخيه من النهر ، ونفقات دفنه في الغربة . . الى جانبه دفتر آخر عن نفقات زواجه الاول . .
في تلك الايام المبكرة اختار ابي أن يتزوج ابنة القنصل . . كانت حرارة احلامه ، وهو يخطبها من ابيها ، تجعل من حوله هالة ، فيزيد وسامة في عيني حميه ، ويزداد قدرة على الاقناع . . . وحين استقرت العروس في بيت زوجها ، وحين كان ابوها القنصل يزورها ، في موكب مهيب ، يسبقه الخدم ، «والقواصون» كان ابي يستقبله عند الباب ، وعن كيانه الممتلئ اعتداداً تصدر موجات من المهابة والصيت توزعت المحلة والجوار . .



انما لم تمض سوى سنوات قليلة ، حتى جاء «التيفوس» وأخذ من أبي زوجته الاثيرة . . فماتت بين يديه تاركة له . ولداً وبنتاً . وحسرة . اتخذت شكل صورة كبيرة ظلت معلقة في غرفة الجلوس . تطل منها سيدة ناحلة مترفة ، بهدوء غريب . .

وتزوج الحالم مرة أخرى . . تزوج التي ولدتني . . كانت يتمية ، مات ابوها . قبل ولادتها . . فأخذت عنه زوجته في ذاك الزمن القديم – يااللغربة – تجارته – وراحت تبيع القماش في سوق البزازين . . معتمدة على جاهه اخيها الذي كان انذاك مديراً للبرق والبريد في المدينة . .

لم تكن امي حلماً كبيراً من احلام أبي . . كانت تقف هادئة . حزينة ، مستسلمة على طرف من احلامه ومشاريعه ، وحين ، وجدته ، محاصراً ، بضيق يده ، قدمت له كل حلاها ، وهي تبتسم مكتفية بورقة ، كتبها لها أبي ظلت محتفظة بها ، حتى ساعة موتها . .

في ذلك الزمن المبكر ، كان ابي يعمل معلماً في مدرسة الطائفة ، وظل كذلك حين جاء الحكم الوطني . . ولكنه لم يلبث ان ضاق بوظيفته . لقد كان الراتب الذي يتسلمه يحاصر أحلامه . ففكر في ان يترك التعليم مستفيداً من «الاكرامية» التي سيحصل عليها ، ليواصل اللحاق بالمشاريع التي تملأ روحه . .

تسلم «الاكرامية» بالروبيات . . .

لعل المبلغ الذي تسلمه حينذاك بدأ ازاء احلامه ثروة . فلم يعد يستطيع الهدوء . .

اشترى قطعة ارض تقع في منطقة «الغزلاني» وكانت آنذاك احدى ضواحي المدينة . . ثم جاء ببناء من اصدقائه خطط له اسس البيت الذي في احلامه : غرفتان وايوان . . وحديقة مسيجة . . وبالعناء صيف كامل ، حتى استوت الغرفتان ، واكتمل السياجَ . . بالعناء عام كامل ، من أجل الحديقة . .

كان عليه ان يحفر بئرا للحديقة . فماء البلدية لم يكن قد وصل الى المنطقة . . ولقد عذبه البشر كثيرا وعذب مع ، ذاك الخبير الاعور في حفر الآبار ، الذي يشبه الى حد كبير حفار القبور . .

كان يحفر ويحفر دون ان تنبع تحت معوله قطرة ماء . . فاذا خيم الليل ، عاد هو وأبي وتعيشا وتحدثا عن الماء والارض العنيدة ، والبئر العجيب وناما في انتظار ان يطلع الصبح . .

صارت قصة البئر ، اسطورة ، حار بها الخبراء ، حتى لقد اتهم بعضهم عين الحفار العوراء ، بانها سبب المشكلة . . بل ذهب بعضهم الى ان ينصح ابي بالتخلي عن هذا البئر ، والعمل على حفر بئر جديد . . وقد كاد ان يأخذ بهذه النصيحة في ساعة من ساعات احساسه بالنحس ، وهو يحدق في عين صديقه الاعور . . لولا ان الماء انبجس فجأة منهياً مشكلة البئر ، مقترحاً مشاكل جديدة . .

من ذلك اليوم ، صار ابي يصطحبنا معه الى بيته الجديد . . كنا نقف عند ذاك البئر



الرهيب ، وندلي بالدلو ، ونستقي الماء ، لنروي عطش الغرسات التي انتقاها ابي من بساتين الشمال وحدائق الجبل . . .

لكن جهدنا لم يكن كافياً فابتاع الحالم الطيب مضخة يدوية ركبها على فم البئر ، وراح يغرينا بهذه اللعبة الجديدة . . .

ثم جاء الربيع . . وصارت الحديقة حديقة . . واستوت في الغرفتين اراثك قديمة ، وبسط عتيقة وموقد . . حتى لكأنهما غرف المهاجرين . . فالبيت خارج المدينة معرض للسرقة ، ومن الغباء تزويده باثاث يطمع فيه السارقين . .

وماذا بعد ؟ ان الأحلام تعلم الصبر . . .

كانت عينا ابي تستشرفان لمشروعه المتواضع . سنوات قادمة يغدو البيت خلالها قصراً . . هكذا ، سنة بعد سنة ، وعلى مهل . . ولم يكن على خطأ . .

لكن سكة حديد كانت تمتد بين المدينة والعاصمة ويصادف ، ان هذه السكة تعبر ، بالضبط فوق سدة تتسلط على جدار الغرفتين . . وغدا ، وبعد غد ، حين سيجيء هذا الوحش ، الحديدي ، سيهز البيت من اساسه هزا . .

نظر الخبراء الى السيدة ، والى السكة الحديد والى بيت ابي ، والى حلمه المزهر وهزوا رؤوسهم . . ونصحوه هذه المرة ان يرفع شكواه الى الدولة ، فالبيت بعد الان لن يصلح . . لن يصلح لأي شيء . .

ولسنتين ، ظل أبي ، يتابع شكواه في المحاكم حتى صدر الحكم له بالتعويض ، وحين تسلم التعويض بالدنانير العراقية ، عاد بها الى البيت راح يقلبها من جديد ، مثل ثروة بين يديه ، دافنا حلمه الراحل ، مستعدا لمشاريع جديدة . . .

اول احلام أبي ، أخذها الماء . .

اما حلمه الجديد ، فسيأكله الذئب . . .

سيأتي «توما» ذاك الفلاح المسيحي من قرية «باقوفا» وسيتعشى عندنا ، ثم يقوم فينام في الايوان . ملتحفاً بفروته الصوف ، مصدراً طوال الليل شخيرا عاليا ، مثل شخير جمل مذبوح . . .

وفي الصباح يتسلم توما من أبي ثمن ثلاثمئة رأس من الغنم ، هي القطيع الذي سيرعى في حلمه الجديد . . .

قالت امي ، وكانها تحدث نفسها : عينا توما هذا سوداوان مثل عيون اللصوص . .

وقالت عمتي : ان توما هذا الذي جاء به أخي . فحل جاموس نتن . . ظل ينخر طوال الليل ، وحرمني النوم . .



أما «توما» نفسه ، فقد انحنى – دون سبب ظاهر – ليقبل يد أبي ، وانصرف ، حاملا على كتفه «هكبة» كالتي تحملها الحيوانات . . .

كان ذلك في اول الخريف . . .

وقبل انتهاء الربيع ، هبط توما علينا ذات ضحى حاملا ظرفين من الدهن الحر ، وآخر من الجبن . . ورابعاً فيه لبن وزبدة وقشطة . .»

وقف أبي يتفرس في نتاج حلمه ، وعلى فمه ابتسامة لا تكاد تبين . . ثم جلس يصغى الى حديث توما . وحكاية البركة التي يعيش بها القطيع وعدد النعاج اللواتي ولدن . . زاد القطيع عشرين حملاً جديداً . .

– الان صار العدد ثلاثمئة وعشرين . .

– سوى ثلاثة فطسوا من البرد . .

هكذا قال توما فرد أبي بتسامح

– زدن ثلاثمئة وسبعة عشر

وراح . . . يعد بنفسه الفطور الذي يحبه . . خبزا حارا ، ودهناً حراً وعسلاً جديداً . . بعد أشهر عاد توما ببضع جزز من الصوف وبات الليلة في الفناء الكبير يشخر على هواء ويزعج أهل البيت . . وفي الصباح سمعت امي تقول لعمتي – قلبي غير مرتاح من «توما» هذا . ان عينيه سوداوان مثل عيون اللصوص . . فأجابتها عمتي الحولاء :

– لا تكون عينا اللص سوداوين . . عيون اللصوص صفر ياغشيمة . .

في العام التالي ، انتظر ابي مجيء «توما» ولكنه تأخر . . كاد ينتهي الربيع . بل لعله انتهى حين جاءنا مساء وقد اطلق لحيته ، يحمل ظرفا من اللبن الخائر وقليلا من الزبد .

– لماذا ياتوما ؟

– المرض . . لقد اصاب القطيع مرض . . فمات ثمانون . . ونام توما ليلته ، لكن أبي لم ينم . . ظل يدخن ويسعل طوال الليل ، في حين كان الشخير العجيب يملأ الايوان بالنتن والبراغيت . .

وفي الصباح – لم تجد أمي أحداً تتحدث اليه بافكاره عن عيني اللص السوداواين . . حتى كان العام الرابع ، الذي انتظرنا فيه «توما» عبثاً . . بحيث اضطر أبي ان يسلك طريقه الى «باقوفا» ويبيت عند كاهنها ، بحثا عن الراعي الهارب . . قال توما :

– خمسون رأساً . . هذا كل ماتبقى . . أنا ميت من الخجل

– والباقي ؟

– أكلها الذئب . . وانا ميت من الخجل . . واحلف مئة قالوا لابي ، اشتك عليه عند الحكومة . . قالوا له هدده بمدير الناحية . . قالوا . . أما هو فتسلم ثمن الخمسين رأساً . . وعاد



الى البيت وجلس في مكان احلامه ونحن جميعاً من حوله صامتون محترمين حزنه وفشل حلمه الاخير . . أما هو فكان – ساكنا بتدبر مشاريعه الجديدة ، على قدر ما تبقى له من دنانير .

كنت في الصف الخامس الابتدائي . مبتلى «بصموئيل» وجدول الضرب حين بدأ أبي مشروعه الجديد بأن يصير تاجر اراض وعقارات !

ولم لا ؟ يبتاع قطع اراض بثمن نجس . وينتظرها ، حتى تقترب منها المدينة فيبيعها بسعر أعلى . . وهو ربح حلال شرط ان تكون ذكيا وان تستشير وان تتعلم وان الصبر فالارض لا يأخذها الماء ولا يأكلها الذئب .

في تلك الايام كان ابي ، منشغلا بدلالين غرباء الاطوار ، وخرائط شديدة التعقيد . وسندات مطبوعة على ورق مشمع . . ووصولات . . ورسوم وضرائب وقوانين راحت تملأ البيت . . وفي تلك الايام كان مشغولا بي . .

كنت اصغر احلامه ومشاريعه ، وماكان يبدو امامه متسع لي .

فبدوت ازاءه . بطريقة . مظلوماً . أول الظلم الذي اعانيه ، أنه قد يموت بعد سنة أو عشر سنوات . ويتركني – وقد تركني – وحيداً في عز مراهقتي . لاتحميني سوى مئة دينار ، مودعة بأسمي في اموال القاصرين . . لعلهم حكوا له عن اراض تباع بالدونمات في مكان يدعى «وادي حجر» ومن المؤكد انهم قالوا له ، إن هذه الاراضي التي تباع بالدونمات هي بشكل ما ، قريبة من المدينة . . وقل . هي عشرون سنة . أو خمسون . . ولابد لهذه المدينة ان تتسع . فتمتد الى «الوادي» – وسنرى انها اتسعت وامتدت – والثمن بخس . بضع عشرات من الدنانير . .

بكم ديناراً ابتاع أبي بأسمي تلك القطع من الاراضي في وادي حجر ؟ وماذا اودع في خرائط تلك القطع المبهمة . وبأسمي ايضاً من أحلام ؟ لعله قال لنفسه سأموت وتنقطع على موتى سنوات فاذا هذه الاراضي التي ابتعتها الصغيري ، وقد غدت ثروة يبدأ منها احلامه . . واذا به ، وقد امتلأت بالرضا نفسه . فلا حاجة ولا حرمان . . لقد نام هانئاً . . وفي الدرج السري كان ثمة خريطة مكتوب عليها . بخطه الانيق . . «القطع العائدة للصغير يوسف» فياللصغير يوسف يوم لم يعد صغيراً . . واذا بتلك القطع التي اختارها له أبوه وقد استملكتها وزارة الدفاع لانها اصبحت واقعة في اراض محرمة ولم يدر الاستملاك من الربح سوى عشرين دينارا . .

عام ١٩٦١ وكنت اذاك مدرساً في مدينة الحلة . هرع مدير المدرسة ، الي ليخبرني ان وزير الدفاع وكان اذاك – عبدالكريم قاسم نفسه – قد اقام علي دعوى – اضافة الى وظيفته . . . قرأت التبليغ المكتوب بطريقة رسمية . . . وضحكت . . . ضحكت من ابي . . ومن نفسي . . . ومن وزير الدفاع انذاك ، ومن المدير الذي كان يعاني خوفاً عظيماً ، وهو يقدم لي



التبليغ . . فبين كل تلك الاراضي التي حاول ان يخلفها لي ابي تبقت قطعة واحدة مساحتها ست مئة متر لم تستملكها وزارة الدفاع في العهد المباد . . وبعد قيام الثورة ، جاءني الساعي بتبليغ من وزارة الثورة . يدعوني فيه الى الحضور أو ارسال من ينوب عني ، لحضور مراسيم تقدير ثمن الارض المذكورة التي قررت وزارة الدفاع في حكومة ١٤ تموز . استملاكها . . ما ذهبت لحضور الدعوى ، ولا بعثت من ينوب عني . كانت الثورة امي ، وابنة خالتي . وقلت لنفسي بغرور فليقدروا ثمنها عني . . وكل ما يأتي من الامير . . كبير ! !

بلغوني بعد مدة انهم قدروا ثمن المتر من ميراثي بنصف دينار . . فقبلت يدي ، ووضعتها على رأسي . . ثم دارت الدنيا . واذا بي مدرس في الحلة واذا وزير الدفاع ، اضافة الى وظيفته يشتكي . . تبليغاً بالشكوى لان الحكومة وجدت التقدير السابق لثمن المتر من الارض مبالغاً فيه . . والعدل هو ربع دينار . . ولا بأس . ! فما كانت عندى احلام وكنت اذاك اخاف الحكومة وأخاف دعوة وزير الدفاع . في ان احضر ، أو ان ابعث من ينوب عني . . ثم اخذتني الاحداث . . سنوات . . . وحين ، عدت ، تذكرت في ساعة ضيق ميراثي وبعثت من يسأل عما آلت اليه الارض . أو ما آل اليه ثمنها الذي ارتضته الحكومة آنذاك .

ومن المدينة كتب الذي بعثت به ليسأل ، آسفاً . . ليعلن لي ، ان ثمة مئة وخمسين ديناراً كنت استحقها حتى قبل سنتين . . ثم لأن مرور الزمن . . ولأن . . ولأن . . فقد حولت ايراداً لخزينة الدولة ! !


مكتبة
الفكر الجديد

الفصل العاشر

عمتي



الفصل العاشر

عمتي

مات زوج عمتي الحولاء ميتة غريبة . .

كنت اصغي لاهلي وهم يروون قصة موته .فينتابني إحساس غريب . هو مزيج من الخوف والفكاهة ، ولا أكاد اتمالك نفسي . بسبب حاجة ملحة للضحك ولقد كانت عمتي . وهي تراني اجهد لكتم ضحكتي . تضحك هي أيضاً ، وتضرب على يدي قائلة :

– يا ولد . . يا ولد . . أما تستحي . فتضحك لموت مجيد زوج عمتك ؟

ميتة هي أقرب الى الحكاية . بحيث كنت أميل غالباً الى أن لا أصدقها . وبسبب ذلك ، لم استطع قط ، أن انظر اليها . من وجهة نظر عمتي . التي غدت أرملة بعد أقل من سنة من زواجها وكان عليها أن تقبل ترملها طوال حياتها فتعيش في بيت اخوتها . الذي لا تملك فيه سوى صندوق عرسها ، وحكاية زوجها الراحل . . لم استطع أن أتبين حزنها ، وحداد حرمانها . . بل لقد كنت أنسى تماماً ، أنها كانت ذات يوم ، متزوجة ، تعيش في بيت غير بيتنا ، وتخدم رجلاً ، سوى ذلك الكاهن الأمير ، أخيها . . الذي نذرت نفسها له ، بعد ترملّها . .

أحياناً ، حين كانت تردد تلك الاغنية مخاطبة بها امها :

وايلاه . . واويل . .

«ألم أقل . . عيني . . على الرحى . . والليل ؟» .

في مثل تلك اللحظات ، كنت أجدني ، فجأة أمام روح حزينة وذات أسى قديم . فأروح أحدق بها واجماً . أتأمل بندم وجهها الكبير ، منجذباً . على غير ارادة مني . الى عينها الحولاء ، التي كانت تبدو اذاك جميلة واليفة ، الى حد كبير . ثم أفزع عن وجومي لصوتها ، وهي تقول لي :

– هيه . . لا تقف هكذا كالأثول ، تحدق في عيني . . مدّ يدك ، وساعدني لأقوم . .

وأمد يدي ، فتقوم متوكئة على شيخوختها ، وتروح تتفقد مملكتها ، التي ، هي نحن ، أهل هذا البيت . . مدافعة عنا من أعداء مجهولين يحدقون ، بنا ، وبيتنا ، ابتداء ، من النمل والجرذان والقطط ، وانتهاء بكل الغرباء الذين يطرقون بابنا ، ويطعمون على مائدتنا . . ويبيتون على اسرتنا . . ثم بنا ، لأننا ، أحياناً ، نتخذ ملامح الاعداء ، ونبعث – واويلاه – بهذه المملكة . . فنؤذي حجارة في الجدار . . ونهدر ، بدون سبب معقول – قطرة ماء .

هذا الحرص . كان هو الرحى . . والحزن الذي لا يقال . .



كانت في سورة ضيقها ، تدير حجر الرحى وتناشد أمها ، أن تعينها . . مذكرة اياها بالحبيب الذي صبح غبشاً . . فالنوم ما يزال حلواً في عينيه . .

– يالترمّلها الثقيل . .

أنا ، حين انتبهت الى ذلك ، كان قد مضى على موت ، «مجيد» زوجها عشرات السنين . . اختفى تماماً . . ما سمعتها مرة تذكره ، الا اذا ذكرها به الآخرون ، وما كانت قط ، ولو بالتوسل ، لترتضي أن تستعيد حكايته ، أو تصحيحها ، أو تدافع عنها . . بل تصغي ، وهم يحكونها لنا ، نحن الاولاد ، وعلى وجهها وداعة غير مألوفة تشبه وداعة شاعر ، يسمع أحداً يتلو قصيدته . .

وأذكر مرة . . أن أمي كانت تنوّمني . .

كانت قد حكت لي حكايتين من حكاياها ، التي اعتدت أن أنام عند حافاتها . . ولم أنم . . ولست أدري كيف خطر لي أن اقترح عليها أن تحكي لي ، تلك الظهيرة حكاية زوج عمتي الحولاء . .

– ليست هذي حكاية يا والدي . . ليسن حكاية . .

هكذا قالت أمي ، وحين توسلت بها ، همست لي :

– عيب يا عزيزي . .

وما كنت لافهم وجه العيب ، لولا أن عمتي كانت تستلقي عن كثب ، مفتحة الروح والعينين . . . ولقد تطلعت اليها ، كما فعلت أمي ، فوجدت ابتسامة مخيفة تحت ملامحها ، ومن تلك الابتسامة التي أعرفها . أنه ما من عيب ، في أن تحكي لي أمي ، ثانية كيف مات زوج عمتي الحولاء . .

– احكي لي . .

– لا . . نم . . . عيب . .

– احكي له . . ما عليك أنت ! . .

هكذا قالت عمتي . وهي ترفع رأسها ، ثم تجلس على التخت الذي كانت تستلقي عليه . .

– أحكي له . .

قالت أمي محتجة :

– ماذا أحكي ؟ . . أهي حكاية تُحكى ؟ . .

وعندما قالت أمي ذلك ، ادركت ان معركة ستنشب بينهما بسببي وأنني – لأمر لا أدركه – مخطىء لا ريب وأمي على حق . . وعمتي مخطئة . . وما عادت تعجبني الحكاية . .

وسمعت أمي تقول :



– كان ما كان وعلى الله التكلان . .

كان هناك رجل اسمه «مجيد» . . وكان الليل قد عتم . . وغلّق الناس أبوابهم . . وفي الخارج ، حيث البرد والظلام ، لم يبق غير الجندرمة واللصوص . .

آه للبرد . .

وللجندرمة واللصوص . .

كان خوفي ، وأنا مطمئن الى البيت ، يغدو لذيذاً ، وباعثاً على الخيال . . خوف روائي ، يبعث على الشجاعة . . وكنت اعرف أن «مجيد» هو زوج عمتي التي تجلس الان على تختها ، مثل وال عثماني ، طيب ومجنون في آن واحد ، وكنت أرى ، تلك اللحظة «مجيد» فارع القوام ، ممتلئاً ذا شاربين معقوفين ، يرتدي (زبوناً) مقلّماً ، وحزاماً عريضاً . وكنت اضيف ، من عندي ، خنجراً يراه الرائي ، وقد اشرأب من حزامه . .

وآه للجندرمة والبرد واللصوص . .

ولباب بيتنا المغلق ، ودعة ما أنا فيه ، بين احضان أمي ، وهي تروي لي ، تحت رقابة الوالي العثماني الجالس على التخت . . هذه الحكاية الغريبة . .

– وقال «مجيد» : «أنا ذاهب الى بيت الخواجة فلان . .» . . قالت له خائفة :

«لاتذهب يا مجيد . . لاتذهب . . اللصوص والبرد والجندرمة في الطريق . .» لكن «مجيد» كان لا يسمع الكلام . . قال لها (أنت ما عليك) . . فقد كان قد شرب كأسين من ذلك العرق الذي يحبه . .

– وبعد ؟ . .

وتقول عمتي من مكانها . .

– وبعد . . وبعد ؟ لا تستعجل يا ولد . . دعها تحكي حكايتها . . .

وتستطرد أمي منتشية الان برضى عمتي :

- قال «سأخرج» يعني أنه سيخرج . . سكران . . وسبع فوق ذلك . .

وأسالها :

– سبع السبمبع ؟

– أي سبع السبمبع . . من كان مثله ؟ الله يرحمه !

تقولها مداهنة . .

وعلى يساري كنت اشم رائحة عمتي التي تنتمي الى هذه الحكاية العجيبة وهي تبعث على الضحك والخوف . .

يا للغرابة . .



هذا النوع من الخوف الذي سيظل دائماً يثير في جسدي ضحكاً ، يصدر دون ارادتي . .
وقالت أمي :

– وخرج مجيد . . أما زوجته فقالت له قبل أن يغلق الباب «ستندم يا مجيد . . ستندم من رجل لا يسمع كلام زوجته ولا يندم» .

وفكرت : أنها الجملة نفسها التي اعتادت أمي أن تقولها لي كلما عصيت لها أمراً : «ما من ولد لا يسمع كلام امه ولا يندم . .» وها هي قد صورتها الان ، بطريقة مريبة ، حتى لقد رفعت رأسي ونظرت الى عمتي متسائلاً عن صدق ما تقوله التي أنا بين احضانها ، وحين فهمت عمتي نظرت ، ابتسمت بحنان وغمزت لي بعينيها الحولاء ، ففهمت أنا أيضاً ، وسامحت أمي ، وانتظرت بقية الحكاية :

– الحاصل . . خرج مجيد . . كان الظلام شديداً . . والازقة مقفرة . من كان يجرؤ على الخروج بعد المغرب من بيته تلك الايام ؟

إنهم يعودون جميعاً مبكرين . . وفي عزّ الشتاء ، كانت المدينة توحش تماماً . . وما كان ثمة من يفتح لأحد اذا قرع بابه . . يظلون قابعين في اسرتهم يحمدون الله .أنهم لم يصابوا هذا اليوم برصاصة مبهمة . . ويسود الصمت . . صمت متوجس . . فالكل يعرف أن القتلة يطوفون الشوارع . ويترصدون الناس – الصمت . . والتلفزيون الذي ينقل يومياً خطابات عبدالكريم قاسم . . ثم فجأة يدوي الرصاص في السكون . . . فيتجمع الذين هم في بيوتهم على أنفسهم ، من أجل أن يقاوموا بطريقة أفضل . الوحدة والبرد . والخوف . . . والموت بالسكتة القلبية .

وتستطرد أمي :

– خرج مجيد . يا ولدي . وابتلعته الظلمة . مهتدياً بشجاعته . التي لا معنى لها . وبالمصابيح العور . . وبأسم العذراء التي كان يصلي لها يومياً . .

ويشرد ذهني . فالصورة التي تقدمها لي أمي ، تصبح مختلة ، مذ دخلت فيها الصلاة فما كنت لأملك أن اقتنع بأن جباراً كمجيد . يمكن أن يكون بحاجة الى أن يصلي يومياً للعذراء . . وعلام يصلي ؟ وهو جبار لا يخاف . . والصلاة كانت في ذهني ، تعبيراً عن خوف تمتلىء به قلوبنا نحن الضعفاء . الذين استباحتنا الخوف من الموت والخطيئة وهكذا : تصلي أمي ، لأنها خائفة من عمتي . . ومن الله . . ومن الزلل . . ولأنها في الوقت نفسه ، خائفة عليّ ، وعلى أبي . وعلى أختي . . وأصلي أنا. . وتصلي مريم الخبازة . . ويصلي جرجيس العجوز . . يصلي الخائفون دائماً هكذا :

«فلا تغفلي عن طلباتنا في الضرورات . .»



«لكن نجينا على الدوام . .»

«من جميع المخاطرات . .»

«أيتها العذراء . . المجيدة . . المباركة . .»

«السلام عليك . . يا حياتنا . . وطيبنا . . ولذتنا . . ورجاءنا . .»

«اليك نصرخ . . نحن المنفيين – أولاد حواء . .»

«واليك نتضرع . . نائحين . . وباكين . .»

«في هذا الوادي . . وادي الدموع . .»

ترى هل كان مجيد ، يملك أن يردد ، صلاة كهذه ، وهو يلقي بنفسه الى الليل والبرد واللصوص ؟ . . أكان يتذرع بهذه التميمة لتحميه . وهو يملك جبروته المبني ، مثل منارة ، وقسوة قلبه التي هي اشبه بنهاية خنجر مسنون ؟

– وبعد . . ؟

– وبعد . . عند منتصف الليل سمعت عمتك طرقاً على الباب . . كانوا يطرقونه بشدة . . وعلى عجل . . حتى لقد أحست قدميها تخذلانها . فما استطاعت ، أن تصل الباب لتفتحه الا بمشقة . . لقد اعلمها قلبها ، أن شيئاً مريعاً حصل ، ولهذا رسمت على نفسها علامة الصليب ، وقالت : يا الله . . ايتها العذراء الحنون . .

وفتحت الباب :

وأرفع رأسي وانظر الى عمتي .

كنت اريد أن أتبين فيها . وفي ملامحها ، صدق ما ترويه أمي شيئاً من رعب قديم . . أو لهفة مهدورة . . أو حتى بقايا حزن عالق في الذاكرة . .

ولكن كيان تلك العمة الحولاء ، متربع على تخته . . أحول . ولا ينقصه سوى شاربيه . .

وتنتهرني أمي :

– والآن نم . . لماذا لا تنام ؟

وهي تعرف أنني لن أنام حتى تكتمل الحكاية . . فتقول مباشرة :

– نم يا ولدي . . كان وجه مجيد مصبوغاً بالدم . . حتى لكأن أحداً لطمه على اسنانه . . واذ رأت عمتك دم زوجها . فقد فتحت فاها لتصرخ . . لولا أنه سدّ فمها ، وأومأ للجندرمة أن يذهبوا . . ودخل . ثم اغلق الباب . .

كانت الرصاصة . يا ولدي قد استقرت في حنجرته . فهو لا يطيق الكلام بل يكتفي بأن يبصق دماً . . ولا يرد على زوجته الخائفة حتى الموت . .

– مجيد !



أومألها أن تسكت . . واحتارت ، ان كان عليها أن تسمع كلامه فتسكت . . أن تخاف أو لا تخاف . . ثم رأته يغسل فمه ويستلقي على التخت ويروح يتنفس بصوت يشبه الصفير . .

– مجيد . . مجيد . . مجيد !

أما هو فكان يكتفي بأن يومئ لها أن تسكت . وهكذا اضطرت أن ترى اليه طوال الليل يبصق دماً . . وتبقى ساكنة حتى طلع الفجر . .

في الصبح جاءت الى اخوتها تستنجدهم . . فخفوا معها جميعاً . . ولم تمض ساعة أو أقل حتى شاعت حكاية مجيد . .

قال الجيران . أنهم سمعوا صوت الباب ، وهو يغلق . . ثم سمعوا وقع أقدام مجيد التي يعرفونها جيداً . . فمن سواه يمكن أن يخرج في مثل هذه الساعة ؟

هو . . والأشقياء . . والجندرمة . .

قال أخرون إنهم رأوه – رجل من محلة خزرج» . . رآه يسير لوحده مشرق الوجه . فارع القوام بمحاذاة الجامع الصغير . . .

الذين عند محلة رأس الكور قالوا إنهم سمعوا ، وقع اقدام مسرعة ، للصوص يركضون ، . ثم سمعوا صوت أحد الجندرمة ، يصيح بالتركية : قف . .

واعقب ذلك صوت اطلاقة ، عكرت سكون الليل . . .

ويخيل لي آنذاك أنني اسمع صوت عمتي ، يختلط بصوت أمي . وهي تردد لنفسها تلك الاغنية القديمة :

واويلاه . . واويل . .

«الم أقل عينيني . . على الرحى . . والليل !»

لان مجيد لن يلبث بعد اسبوع أن يموت . .

ظلت الرصاصة في حنجرته ، وما كان ثمة من يعرف في ذلك الزمان كيف يعالجه . . وهكذا . جلسوا من حوله يراقبونه . . حتى اختنق . .

كم مرة سألت عن موت مجيد . . . كم مرة استعدت الحكاية ، عليّ استطيع تصديقها . . !

لقد كان يسير في تلك الظلمة ، والبرد حواليه ، والمصابيح العور . . وكان اللصوص يركضون . . يتبعهم اثنان من الجندرمة يصرخون بالتركية : « قف . قف . .» ثم عند المنعطف ، سمع مجيد صوت الاطلاقة ،كما سمعه الناس في بيوتهم . . . يا للغرابة . .

كيف صادف اذن ، ان الرصاصة انطلقت في تلك اللحظة بالذات . حين كان مجيد عند المنعطف ؟ وكيف اتفق أنه لأمر ما ، في تلك اللحظة فتح فمه ، ربما ليصرخ . . أو ليعطس . . أو



يسعل . . وأن الرصاصة التي انطلقت ، طاشت ، ولكنها لم تطرفي السماء . . ولم تصطدم بجدار . . أو بأحد المصابيح العور . . أو . .

لا . . الرصاصة مرقت في الهواء ، كأنها لأمر ، غير مفهوم ، كانت تفتش عن مجيد زوج عمتي بقامته الفارعة ، وشاربيه المعقوفين . . منجذبة اليه هو بالذات ، والى فمه دون أي جزء من اجزاء جسمه المشدود . . والى فمه . حين فتحه ، ليصرخ ، أو يسعل بحيث صارت الرصاصة . . . ذبابة ، وذخلت هذا الفم المفتوح . . واستقرت بعد أن برد حديدها في بلعومه . . .

– لا . . لا . . هذا غير معقول . . .

واضحك . . اضحك من خوف ، لانني كنت أعي ، حتى وأنا في ذلك السن المبكر . . أن صدفاً كهذه ، ممكنة ، وأنها انما تجري بترتيب شخص ما ، وتحت اشرافه لمجرد التدليل ، على سوء الحظ . . اليس ذلك مضحكاً ؟ . . اليس من حق ذلك الذي خطط لصدفة كهذه ان يضحك حتى تدمع عيناه . . ثم تأخذه نوبة من البكاء . . .

وعلى هذا فقد كانت عمتي ، تحسن صياغة حكمتها في موت زوجها . . مدعية أنه ، ما من أحد قتل مجيد . . هو الذي قتل نفسه . . وتضيف ، كأنما من أجل الشماتة ، بنفسها : «وحسناً فعل . .» .

لا . . ما حسنا فعل . اينها الحبيبة الحولاء . فالقتيل ، دائماً ، يعطي فكرة عن القتلة .

كنت اريد أن أقول ، شيئاً يشبه هذا . . ولكنني سهوت ثم ماتت عمتي ، وحرمتني من الاجوبة . .

أما كان ضرورياً أن أسالها وأنا أعرف جيداً أنها لا تستطيع أن تكذب عليّ – أن كانت قد أحبت مجيد . . وعن الرجل – أي رجل ، أن يكون محبوباً أولا يكون . .

ثم ذلك السؤال الأهم . . ان كانت عمتي تعتقد ، أنه انما قتل نفسه من أجلها . . من أجل حاجته ، وحاجتنا جميعاً نحن الرجال ، الى امرأة حقيقية . . تستحق أن نقتل أنفسنا من أجلها . . .

الان اعترف ، أنني لم البث أن اكتشفت ، أن عمتي الحولاء ، كانت من هذا النوع من النساء . . امرأة حقيقية . . تستحق أن يقتل مجيد نفسه من أجلها ، مدركاً أنها ثمينة وغالية ، ممسكاً بادراكه هذا ، مأساته ، فهو يلاعبها حتى ينتهي الى الموت . . لقد تلذذ بذلك . . . اسبوعاً ، كاملاً وهو ينزف ، صامتاً ، من أجل أن يكمل الاجابة على كل الاسئلة التي القتها عليه هذه المرأة القديسة . . وأنا واثق أنه حين مات ، كان قد استوفى كل الاسئلة التي القتها عليه عمتي . .

ومن عمتي ؟ سوى بكر ابيها . . مدورة الوجه . . ملوّحة البشرة . . فارعة ممتلئة . . ثقل جفنها الأيسر بسبب مرض في طفولتها ، فبدت حولاء وهي ليست كذلك . . ومن هي ؟

الأمية الوحيدة ، في بيت ، يقرأ كل من فيه ويكتبون . . هي ، ومريم الخبازة . . المتساهلة في أمور دينها . . . لا تحب من الكهنة سوى عمي ، ومن الشمامسة ، غير أبي ، وتزور الكنيسة ، اذا زارتها ، ولا تصلي ، الا اكراماً لها . . هل كانت تصلي ؟

أرملة أمية . . لا تحب الكهنة ولا الصلاة . . ولا تؤمن بالطب والأدوية . . ولها صديقات مسلمات ، يفدن اليها من محلة «باب البيض» فيجلسن اليها . حيث اعتادت أن تتربع ، عصر كل يوم ، على عتبة الباب ، يستشرنها في شؤونهن ، ويأتمنها على اسرارهن ، وهي تصغي اليهن ، دون أن ترفع عينيها ، عن النسيج الذي بين يديها . . فإذا كان ، وهمست لها ، احداهن ، ذاك الهمس المريب الذي لم اكتشفه قط ، استمهلتها ثم قامت فدخلت الدار ، وفتحت خزانتها في الغرفة الكبيرة واخرجت منها ذاك المرهم السري ، فوضعت لطخة منه على ورقة واسلمته الى المرأة التي يحمرّ وجهها ، انذاك ، لغيرما سبب مفهوم . .

كم عبثنا – نحن الاولاد – بهذا المرهم السحري . . وكم مرة شممنا رائحته الغريبة . . ودهنّا به أصابعنا . . معرضين أنفسنا الى غضب الحولاء الرهيب . . حين تقف وسط الفناء ، مثل شجرة بلوط . ملفعة بـ (بويمتها) السوداء ، رافعة صوتها الفذ ، مستنزلة الشؤم علينا وعلى اجدادنا ، الذين هم اجدادها بالتأكيد . . .

في مثل هذه الحالات . . كان الجميع يلوذون بالفرق ويتطلعون من النوافذ شاحبين ، لفرط ما تتركه عمتي الحولاء من سطو ، ناظرين الينا شزراً ، لأننا أفسدنا البيت بالغضب . .

وآه من غضبها الذي كان محمياً بطيبة القلب . .

فبعد أن تحتل الفناء ، بجسمها ، وصراخها ، وذراعيها ، وهي تطوح بهما ، ذات اليمين والشمال . . . وبعد أن يبح صوتها ، ويشيع الشلل في العالم ، وتذبل ازهار أبي في اصصها الفخارية . . ويجف الماء في الصنبور الذي قرب المطبخ . . وبحركة اميرية . . تنسحب عمتي من المشهد الى الايوان ، وتجلس على احدى الارائك ، قرب المدخل ، توقع بأصابعها على المسند ايقاعات سريعة . . لا تخلوا من حنان وحزن تنتظر خضوعنا ، الذي لابد أن نؤديه ، بنزق مدروس وعند ذاك تتطلع الينا باسمة بعينها الحولاء وتروح تصدر أوامرها الجديدة الى ذلك الولد نوئيل الذي يمت اهله لنا بصلة قرابة . . جعلت ممكناً أن يبقى عندنا طوال النهار ، يذهب الى المدرسة ، ثم بعد ذاك ، يتغذى ، تحت اشراف عمتي ، ويلبي اوامرها الكثيرة . . .

كان «نوئيل» اكبر منا سناً . . . ولكنه ، لسبب غير معروف ، كان متخلفاً في دروسه . . .وكانت عمتي الحولاء تستعمل تخلفه هذا في العقاب والثواب . . فهي تمتدح ،



استهانته بالمدرسة والمعلمين اذا رضيت عنه ، فاذا غضبت قدمت له من الاوصاف ما يكفي لموت شجرة كاملة .

وكان يزيد من وقع هذا كله ، أن «نوئيل» حين يغضب ، ونادراً ما يغضب ، وحين يرتبك وهو أبداً مرتبك خصوصاً ، حين يكون في حضرة عمتي ، يعسر عليه النطق ، هكذا : يفتح فمه يريد الكلام ولكن صوته يخونه وتتعثر حنجرته وشفتاه . . فيروح بسبب الحصر الذي يعانيه ، يضرب على جنبيه . مرات ومرات . حتى يفلح بعد جهد في اخراج الكلمة من فمه . وعند ذاك . تبدأ محنة جديدة . ذاك أن الكلمات عند ذاك اروح تتدافع في فمه مثل حشد حبيس وجد منفذاً فاذا كلمة تأكل كلمة . واذا مقطع يتداخل في مقطع . . و «نوئيل» ، خلال ذلك ، متعب يحمر وجهه ويتصبب العرق من جبينه ، وتند عروق رقبته ، بسبب الجهد الذي يبذله من أجل ضبط هذا التدفق الرهيب . . . الذي يحول بينه وبين ما يريد قوله ، وما الذي يريد قوله ، سوى أن يدافع عن نفسه . . .؟

كان هذا المشهد ، يجري غالباً ، أمام عمتي . . وهي تحاسبه ، على ما انفقه ، في شراء ما أوصته أن يشتريه . .

كانت أبداً تتهمه . . وكان أبداً مطالباً برد التهمة . . . أنه ما أخطأ ولا قصر . . ولا تقاعس ، فأشترى شيئاً بثمن ، كان بوسعه ، لولا كسله ، وغباؤه ، أن يشتريه بثمن أقل . .

ولقد كانت أقوى الادلة التي تستعملها عمتي ضد «نوئيل» العي الذي يعتريه :

– بدأت تتأتي . . هذا يعني أنك كذاب ! ! .

كان هذا الدليل ، يبدو ظالماً . . ولكنه ، في الواقع ، ما كان ليفتقر الى الدهاء . . . ذاك أن «نوئيل» ما كان ليستعصي عليه الكلام ، الا حين يخاف . . وما كان ليخاف الا عند ارتكابه حماقة ، من الحماقات التي مبعثها ، أو الاستهانة ، أو الغباء . . . أو سوء الحظ . . . وسوء الطوية . .

واسمعوا ما حدث :

– حين عاد نوئيل من المدرسة بعثت به عمتي ، ليشتري لها باقة من الفجل ، فراح نوئيل واشترى الباقة بثمانية فلوس . . . ولكن عمتي احتاجت لباقة أخرى ولأنها كانت قد كلفت نوئيل بالذهاب الى بيت الجيران ، ليطلب خميرة من أجل العجين فقد استدعتني واحتالت في أن تطلب مني شراء باقة أخرى :

– هذه ثمانية فلوس ثمن الباقة . . وهذه أربعة لك . . شرط الا تنفقها اليوم . .

طرت فرحاً . .

واشتريت الباقة . وفي الطريق ، خطر لي ، أن أعود الى عمتي وأقول لها أنني ابتعت باقة



الفجل . بأربعة فلوس وأن اعيد لها الفلوس الاربعة التي اعطتنيها ، بأعتبارها ما تبقى من ثمن الفجل الذي أعطتني لاجله ثمانية فلوس . . خبث صبياني . . . من أجل اللعب . . .

كنت اسير في الطريق ، وأنا أتمثل ما سيحدث ، حين تستدعي عمتي «نوئيل» وتحاسبه على الباقة التي اشتراها بثمانية فلوس :

– حرامي . . . ما تخاف من الله . .

كنت أمشي وأضحك . . متلهفاً لمعرفة ، ما سيحدث . . . وما الذي سيحدث حين يقع (نوئيل) في المحنة التي لا مخرج منها . . .

– بأربعة فلوس . . . أم بثمانية ؟

دخلت وأنا أشد أسناني على ضحكتي لئلا تفضحني . وببراءة ذئب حقيقي ، رميت باقة الفجل عند أقدام عمتي ، ومددت لها يدي بأربعة فلوس . . .

– ما هذه ؟

قالت لي . . مقطبة . .

– اربعة فلوس تبقت مما اعطيتنيه . . الم تعطيني ثمانية ؟

– بل اثني عشر يا ولد . . ثمانية للفجل . . وأربعة لك . .

– حسناً . . الفجل . . باقة بأربعة فلوس . . وليس بثمانية ؟

تطلعت اليّ عمتي . ولوهلة بدا لي أنها لم تصدقني ، وأنها اكتشفت كذبتي ، وسألتني :

– ممن اشتريتها اذن ؟

– من محمود أبو الفجل

– بأربعة فلوس ؟

– بأربعة فلوس . .

– ونوئيل اشتراها بثمانية ؟

كانت أمي تصغي الينا . وقالت لي :

– لا تكذب يا عزيزي . . بكم اشتريتها ؟

– بأربعة . .

ولشدة خوفي من أن افتضح الان ، حلفت برأس أبي . . .

وسمعت أمي تقول :

– اذا حلف برأس أبيه فهو صادق . .

ولست أدري ، كيف لم يخطر لاحدهما . أن تسألني :

– حسنا ان كنت صادقاً فأين اربعة الفلوس التي أعطتها لك عمتك . . ؟



لأنه لو حدث ذلك لافتضحت . ولكن انى لهم أن يشكوا بأن ولداً مثلي يمكن أن يفرط بأربعة فلوس . ويشتري بها مقلباً لنوئيل الذي لا يعض ولا يخمش ؟

صاحت عمتي وهي في المطبخ :

- نوئيل . . يا أبن ماريا . . تعال هنا . .

وقامت تستقبله . وقد امتقع وجهها وتسارعت انفاسها كانت غاضبة حقاً ، ولقد عرف نوئيل ذلك مباشرة . فأصفر وجهه ، لسوء حظه . . وابتدأت المحكمة . .

لم أر نوئيل قط في حياتي كما رأيته تلك اللحظة .

لم يكن خائفاً حسب بل كان غاضباً . . ولقد كان غضبه مزدوجاً فهو غاضب بسبب التهمة الظالمة . وغاضب فوق ذلك لان هذا الخرس الذي يعتريه ، يسلبه كل طاقة للدفاع عن نفسه ويظهره عاجزاً ومكسوراً . .

وقف في الوسط .

كنا قد تجمعنا حوله أنا وأمي واختي وزوجة أخي . . وكانت عمتي تهيمن على الجميع :

- أين الفلوس . . يا أبن ماريا ؟ اين أربعة الفلوس ؟

اراد أن يسألها أية فلوس ، ولم تمهله شرحت بحزم جريمته . . واعطت الخلاصة أنه لم يكن لصاً . . فهو في اهون الحالات جحش وأبن جحش . . والا فكيف يخدعه محمود أبو الفجل ، الذي لم يستطع أن يخدع هذا الولد الصغير . .

ومدت يدها ، وقالت بحزم :

- هات الفلوس . .

تطلع نوئيل الينا ، محاصراً كأنما ليستنجدنا ولم يكن ثمة من سبيل لنجدته . . واذا ادرك ذلك فقد حاول أن يتكلم وهو يشير اليّ . . ولكن الكلمة التصقت هذه المرة بلسانه فهو يدفعها بسقف حلقة دفعاً ويمصها مصاً . . ويعجز . . ويعيا ، ويعرق وتند عروق رقبته ويدخل مرحلة الضرب على جنبيه ، وعمتي تنظر اليه والأخرون صامتون . . وأنا خائف ، خائف حقاً . فلأمر ما . لم يبد المشهد ، هذه المرة مضحكاً . . فلم يضحك أحد . . ولا ضحكت أنا . .

وفجأة ، ركع نوئيل . . وانخرط في البكاء . .

ذهب نوئيل المسكين في تلك الظهيرة الى اهله . . أخذ ملابسه ، وكتبه ولوازمه . . ولم تجد محاولات أمي ، في استبقائه بل لم يجد صياح عمتي التي أمرته بحزم أن يعود . .

- عد الى الغرفة . . يا مكسور الرقبة . . .

خرج مظلوماً ، تاركاً لدى الجميع انطباعاً حاسماً بأنه برئ . . ومخلفاً في روحي لأول مرة في حياتي احساساً بالسخف.والدناءة بحيث لم يعد ممكناً ان اعترف ولو بأي ثمن بما اقترفته في حقه



من اثم . . . ومنذ ذلك الحين . غدوت ، وأنا اصغي لقصة «يوسف البار» ادرك جيداً المحنة التي كان عليه ان يواجهها حين اتهمته زوراً زوجة العزيز . . والقت به في السجن عن اثم لم يرتكبه. كنت ارى فيه ملامح نوئيل . . حين عجز عن الدفاع . . .

وفي المساء سمعت عمتي تردد لنفسها لحنها المفضل :

«واويلاه . . واويل» :

«الم أقل عينيني . . على الرحى . . والليل . .» ؟

كانت قد انسحبت الى طيبة قلبها ، وثقل جفن عينها الحولاء اكثر مما هو مألوف ، وفاح منها شذي ترملها المالح ، حتى لقد أوعزت الى أمي ، أن تلبس عباءتها وترافقها الى بيت ماريا لتسأل عن هذا نوئيل . . سيء الطالع . .

لكن نوئيل لم يعد . . وصار العقاب ، أنني اصبحت الموكل بطلبات عمتي في الذهاب الى الشارع لابتياع الكثير ، مما هو ضروري ، وغير ضروري . . .

كان لي عمة حولاء . . لكنها طوال حياتها : ظلت راسخة كالمئذنة . . فريدة في مزاجهة ، وسطوتها ، واعتدادها ، مستقيمة على مبادئها التي صاغتها بحكمة وحزم . . ولقد كان من بين هذه المبادىء أنها احبتني أنا بالذات ولأن الحب يبرر كل شيء . . لهذا ، كانت عمتي تغفر لي أخطائي التي ارتكبها بحقها ، وتدافع عن تلك التي ارتكبها بحق الاخرين وخلال هذا كانت لا تفتأ تقدم لي عدوى طريقتها الفذة في النظر الى الاشياء . . . ومن ذلك الا أخاف . . .

هي التي شجعتني على القديسين والكهنة . بأن راحت تسخر منهم ومن الامثولات التي تعبت أمي من أجل غرسها في ذهني . وهي التي اغرتني بأن اتحدى الخوف من الحرامي . . .

– ما الحرامي يا ولد . . من هو فتخاف منه ؟ رجل فقير . . وجائع . . وخائف اكثر مما أنت خائف . . ولأنه خائف . . انظر كيف يأتي – اذا جاء – متستراً وحذراً . . .

ولكنها اوصتني أن أخاف من الجندرمة . . لقد بقيت تسمي الشرطي جندرمة حتى نهاية حياتها . . .

– لا تخف منهم كثيراً ، ولكن اجتنبهم . . اذا رأيت أحدهم ، في الطريق ، فأبتعد عنه . .

ولقد نفذت تعلياتها بدقة ، حتى بلغت مراهقتي . . . وجاء اليوم الذي اكتشفت فيه أنني يجب أن اتخلص من هذه الوصية التي علقتها عمتي في روحي . . مستفيداً من براهين عمتي في الدفاع عن الحرامية ، لاعادة صياغة أفكاري عن الجندرمة أيضاً ، وبالطريقة نفسها . . . حتى بلغ بي الأمر أن اكتشف ، وبالمنطق ذاته أن الجندرمة لكثير من الاسباب احسن من الحرامي . . .



ولكن عمتي آنذاك كانت على وشك الرحيل . . .

فجأة ، وفي ظهيرة حارة ، انعقد لسانها . . فهي تريد أن تتحدث فلا تستطيع . . بل تصدر عن صدرها انفاساً متحشرجة . . وتزرق شفتاها . . ما تلبث أن تجف . .

ولم يطل الأمر بها سوى أسبوع . . .

ماتت بعده . على تخت فرشوه لها في الفناء . . . مفتتحة موكب الموت في بيت طفولتي السعيد .




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الحادي عشر

مـوت القـطـة




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الحادي عشر
موت القطة

هاجرت جدتي «أمينة» الى المكسيك . .

لحقت بوحيدها «مجيد» الذي سبقها الى هناك ، لأسباب مبهمة ، وتركت هنا بنتيها اللتين صارت احداهما راهبة ، وصارت الثانية امي . . ! . .

كيف استطاعت هذه الارملة أن تجد طريقها ، من الموصل الى المكسيك في ذلك الزمن المبكر ؟ من اعانها على الطريق ؟ من دلها على المدن الغربية ، والبحر الكبير ، وألهمها لغة تتحدث بها الى الغرباء ، وهي تبحث عن «مجيد» بلهفة أم ضاع وحيدها في البلد الغريب . .

لم يكن معها ، سوى ذلك الولد «منير» الذي التقطته من الزقاق وتبنته ـ أيام «السفربر» . .

تحكي امي ـ عن تلك الايام العصيبة ، يوم انتشر الجوع في المدينة ، وراح الناس يأكلون القطط والكلاب . . . تحكي عن رجل وزوجته ، كانا يصطادان الاطفال ويذبحانهم ، ويطبخان لحمهم ويبيعانه للناس . . . ثم يلقيان في البئر بالعظام والجماجم الصغيرة . .

تحكي امي ، وأصغى اليها ، مروعا ، ومنجذبا ، بطغيان الجريمة ، غير قادر على استيعابها ألا حين تكمل القصة ، ساعة جرى اكتشاف المجزرة وتمت المحاكمة . . وشنق الرجل وزوجته . . .

الشنق ؟

– أجل ياولد . . الحكومة تشنق المجرمين

هكذا ترد عمتي الحولاء ، من مكانها ، فانتقل اليها ، واحتمى بقدرتها على تبسيط الصورة وجعلها ممكنة ، وغير مرعبة . . وتحكي ، فأروح اتخيل هذه الآلة الخشبية الغريبة ، وهي قائمة أمام «القشلة» وأتحسس خشونة الحبل ، واروح أعاني صعوبة في أن أبلع ريقي . . .

في صباح شتائي بارد ـ حين كنت ذاهبا الى المدرسة ، وقرب مكان يدعى «باب الطوب» رأيت الناس متجمهرين ـ كانوا قد صنعوا دائرة حول هيكل خشبي مرتفع ، له قوائم عديدة . . ومن عنق الهيكل رأيت حبلا يتدلى ، تتأرجح عند نهايته جثة انسان . .

لقد انطبع في ذهني وأنا في أول الصبح ، الوضع الا انساني الذي اتخذه جسد المشنوق ، وهو معلق من موضع غريب عند احدى اذنيه . . بدالي كأن يدا مجهولة ، تجره من اذنه . . فهو محكوم حتى الاذى ، أن لا يتأرجح ، محتفظا بعذاب أن يتوازن في الفراغ . . .



واذ كان وجه الجثة مغطى بكيس أحمر . . فقد بان المنظر غامضا ، الى حد أنني لوهلة ، انكرته ، وقررت أن ما أراه غير معقول ، وأنهم ، لو كشفوا عن الوجه ، لما رأوا سوى كرة من خرق مخيطة . أشبه بالكرة التي يصنعها الاولاد . . . دميه . . ثم في اللحظة نفسها قلت لنفسي ، أنها دمية تتألم . . وأضفت : ولكنها لا بد أن تكون قد ماتت منذ ساعات . . وظلت الانتراضات . تسير معي . . . وأنا أنسحب من المشهد . .

لم يكن مع جدتي ، وهي في طريقها الى المكسيك سوى الولد «منير» الذي التقطته من الزقاق . .

– كان ملقى على الارض ، مع عدد من المهاجرين الأرمن ، مشرفاً على الموت . . وكان الانين يصدر بطريقة تقطع القلب . لأناس يموتون حقا من الذلة والتعب والجوع . . .

عند ذاك خرجت امينة الى الزقاق . . واختارت ، من الاجساد الملقاةعلى قارعة الطريق ، جسد صبي . . لا يكاد يبلغ السابعة . . واذ وجدته ما يزال يتنفس ، فقد حملته مثل حمل على ذراعيها . وعادت متسترة بالظلمة يتبعها الانين واغلقت الباب . . .

منذ تلك اللحظة ، صار هذا الولد الغريب ، المجهول اليتيم ، المشرف على الموت ، ابنها فابتدأت امومتها فيه اعطته جرعة ماء وسكر . . واذ فتح عينيه ونظر اليها ، مسحت بأصابع مبللة على جبينه . واسمته «منير» وحين أخذ اسمه من منقذته . صار ابنا لها ، وأخا لامي وخالتي . . ولذلك المهاجر الذي اسمه «مجيد» . . . وصار في الوقت نفسه خالي . .

واسمع صوت امي . في الحكاية يردد «ياعم . . ياخال . . . ماذا عليّ ؟ . . «اعتب على امي . . . وأبويا . . . .»

ويسرح خيالي ، بطريقة ، الى تلك المسرحية التي كتبها الامير ، متبنيا دور «عمرو» في مسرحية «الزباء» :

هذا «عمرو» في المغارة وقد اختطفه اللصوص فهو مقيد . . مهان . . مهدد بالقتل وانه ليذكر حاله «جذيمة الابرش» ويناجيه من عمق محنته . .

وآه . . خالي . .

«الا أراك قبل أن يغمض الموت عيني ؟

«لقد فقدْت أبي . . وامي . .

«ولم يبق لي في الحياة سواك . .

وفي الغرفة ، تصغي أمي إلى صوت وحيدها وتمسح الدموع . . . ففي هذه الكلمات ، تستطيع هذه السيدة أن ترى نفسها ، بطريقة مرتبكة هي التي فقدت أباها قبل ولادتها ، وفقدت امها ، ولم يبق لها في الحياة سواي ، أنا الذي اترنم خلف جدار ، بكل هذا القدر من



الحزن . . .

ويقاطعني صوت عمتي الحولاء وهي تخاطب امي : - لماذا تبكين ؟ ، . . ها ؟ . . ما الذي يبكيك ؟ . . انه يقرأ مثل البلبل . . وأنت قاعدة هنا مثل البومة تنوحين . .

واسمع صوتها تلك التي ولدتني يتناهى شاحباً :

- تذكرت امي . . وأخي مجيد . . .

- ولماذا تتذكرين الآن امك وأخاك مجيد ؟ . . . لقد مضى على موتهما سنوات . . وتضيف بطيبة ، مخفية :

- امسحي دموعك . . عيب عليك . . . البكاء بدون سبب شؤم . . ويسود الصمت هنيهة ، ثم أسمع صوت عمتي :

- أنا أيضاً ماتت امي . . ومات ذاك الختن «عبد الاحذ» . . خرب عمري عليه . . راح غريقاً . . لكنني لا ابكي كل يوم . . ومن دون سبب . .

واسكن في مكاني . . . متلذذاً بأن اصغي لحوارهما الحميم ، مدركا أن عمتي الحولاء تحب امي أيضاً ، أنها حين ينبغي أن تعلن عن حبها ، فستختار الوقت والشكل المناسبين . . انهما تتبادلان مصائبهما ، كل على طريقتها ، وما عليّ ، سوى أن الغي احساسها بوجودي ، وأصغي ، مقتنصاً ، هذا البوح الرحماني الحميم الذين لن يطول كثيراً . . محاولا جهدني ، أن استوعب ، كل هذه الوجوه المبهمة التي تتحدّثان عنها . . عمى عبد الاحد الذي مات غريقاً وخالي مجيد . . وزوج عمتي وجدتي . . والمجرمين الذين كانا يذبحان الاولاد . . ثم المشنقة ! . . .

كنت قد صرت مدّرساً . . وذات يوم من أيام عام ١٩٥٧ أخذت طلابي معي الى السجن . . لم يكن ذلك سهلاً كزيارة دار العجزة أو المستشفى ، أو المحكمة . . ولكن وجود ابن مدير السجن بين طلبة ذاك الصف ، سهل لي المهمة . .

لم يكن السجن رهيباً ، كما بدالي ولطلبتي ونحن في الطريق اليه . . على العكس وجدناه ، بشكل ما ، طريفاً . . واكتشفنا ، أن المساجين ، اناس مثلنا ، وظرفاء فوق ذلك . . لم يكن في وجوههم ، وعيونهم ، ونبرتهم ما يخيف . . بل على العكس ، كان فيها ما يدعو للتآلف والصداقة . .

ولقد طاف بنا أحد المسؤولين هناك ، في أرجاء السجن ، فوجدناه مدينة ، لها طابعها الخاص . . ولم نجد المسجونين تعساء . . بل لقد سعدوا بنا . . واذ وجدناهم فرحين فقد خجلنا أن نسألهم عن اسزارهم . .

وفي المطبخ الكبير ، تذوق الطلبة الطعام . . فقطبوا عيونهم ، ثم ابتسموا مجاملة . . .



وخرجنا الى باحة ضيقة ومررنا بمداخل غريبة . . ثم . .

غرفة الاعدام !

توقفنا . . وقال أحد الطلبة :

-لندخل . . الا يمكن أن ندخل ؟

أحسست بالخوف.وتطلعت الى وجوه طلبتي ، فوجدتها شاحبة . . ولكنها مليئة بالفضول . . وعاد الصوت :

– دعنا ندخل فنراها .

وأضاف الولد :

– ارجوك . . .

وفتح المأمور الباب . . .

كانت غرفة الاعدام – ياللغرابة – ترتفع عن مستوى الساحة ، وينبغي الوصول اليها عبر سلم ببضع درجات واذا انفتح الباب أصدر صريراً ، ودار على نفسه ، فقدم عتمة لا موجب لها . . ورطوبة . . وعفونة . .

خفت على اولادي . . ولكنهم كانوا ما يزالون يسلكون كعصافير. وقلت لنفسي ، انني اضيف من أحاسيسي اكثر مما في الغرفة من عتمة وعفونة . . ودخلت . . حاولت أن ابتسم لنفسي . . وتبينت أول ما تبينته . . دعامة حديدية سوداء في السقف ، تتوسطها حلقة حديدية كبيرة ثم الحبل . . .

قوام خشن متوتر ، مشدود على نفسه ، ومبروم ، ومكتف بقدرته . . ومتغطرس ، ، يسيل من الحلقة الحديد ثم يدور على نفسه ليصنع فخة ، على شكل انشوطة أنيقة ، وعقدة محكمة ، بحجم درنة قاسية . . ساد صمت . .

وخيل لي أن جثة تتأرجح في الفراغ . . . وأن هناك نفوذاً مبهماً لأرواح ملفوفة بالأسمال . . لا وجوه لها . . .

نظرت إلى الارض . . كانت من خشب مصقول وقاتم اللون ، كأنه مدهون بالموت والزيت . ومن وسط هذا القاع الكابي ، رأيت عضادة ، كالتي يستعملها الحوذي لأيقاف عربته ترتفع ، مائلة : غصن اسود بلا اوراق ولا براعم . . .

سألت المأمور :

– ما هذه ؟

ابتسم وما ردّ علي . واكتفى بأن امسك العضادة بكف ثابتة ودفعها الى الامام فصدر للتو دوي مثل اطلاق ناري.. قوي ، ونفاذ وذي صدى أحدثه انفتاح الأرض الخشبية عن



هوة . هي السرداب المعبأ بالموت والعفونة حيث تتدلى الجثة وتبقى معلقة ، الى أن تبرد الروح . . .

وسمعت أمي تقول لعمتي :

– كان ذاك بسبب القطة . . أجابتها الحولاء :

– لا تكوني مجنونة . .

قالت أمي بعناد :

– لو انكسرت يدي قبل أن ألمسها . . . علقت كنتنا ضاحكة :

– لوكان الأمر كما تتصورين . . لحل السوء بي ، أنا التي قتلتها ! وليس أنت . . . ولماتت امي . . . وليس امك رحمها الله . . . ومرة أخرى ، قالت عمتي :

– مجنونة . . . ما علاقة موت القطة بموت أمها ؟ . . امها ماتت قبل ستة شهور والقطة ماتت أمس . . .

وقالت كنتنا :

– وعداً هذا . . فهذا الذي تفكرين به خطيئة . . ويجب أن تعترفي بها للكاهن . . .

صاحت أمي :

– وقتل القطة ؟ أليس خطيئة ؟

ودمعت عيناها . . . وما كان أحد ليدري إن كانت تبكي موت القطة أم موت أمها . . .

قالت وكأنها تحدث نفسها :

– منذ رأيتها معلقة بالحبل . انقبض قلبي . وعرفت انه سيحدث سوء . . كيف طاوعتني نفسي . . ؟ كيف طاوعتني نفسي ؟ . . صاحت عمتي ، وقد نفذ صبرها :

– ملعون أبو القطط جميعاً . . وملعون أبو الجميع . . انظر وا كيف تعمل مناحة لبزونة . .

قالت امي ؛ بالعناد نفسه :

– ما كانت تعض ولا تخمش . . .

– بل كانت تسرق اللحم . . وتوسخ الطعام . . وتوزع فضلاتها حيث تشاء . . .

– حيوانة . . . لا تفهم . .

– أنت حيوانة . . ولا تفهمين . . ثم التفتت اليَّ عمتي وصاحت بي :

– ما بالك ، ياولد واقفاً وكأنك قد وقعت من السقف ؟ . . أمك لا عقل لها . . . فلا تحزن إذ تراها تبكي . . كل النسوان عقلهن ضعيف ، ويبكين لأمور لا تستحق البكاء . . .

قالت أمي بضعف :

– أنا أبكي لموت أمي . . . ولست أبكي لموت البزونة . . . انسحبت . .

كنت حزينا وضائعا . وكنت دون إرادة مني ، أميل لتصديق أمي في ربط مقتل البزونة بموت جدتي . . . وكنت في أعماقي ، نادماً حقاً مع أمي ، وضيق الصدر – لأن الذي جرى ، كان ينطوي على كثير من الغدر . .

فهذه القطة البيضاء المبقعة ببضع عصافير سود كانت ذكية أشبه ببنت جارتنا ، تلك النحيلة «سهيلة» . . مثلها تماماً . . ولها الأخلاق نفسها والمواء نفسه . . والعينان العسليتان المتقدتان بأضواء مبهمة . .

ولقد ماتت القطة . . .

قتلتها كنتنا . . وما تزال «سهيلة» في بيت جارنا ، تدرس يومياً في السطح وتلعب ضفيرتاها في الريح . . وترمى العابرين بحجارة وهمية . . وقلت لنفسي : ماذا لو أن أمي ، امسكت بـ (سهيلة) كما امسكت ذلك الصباح بالقطة . . وماذا لو أنها اسلمتها الى كنتنا التي تضع على شفتيها احمر الشفاة . . وتحب العلك كثيراً . . . افكانت كنتنا ستضع الحبل في عنقها ؟ . . هل ؟ . .

في الليل سرقت القطة اللحم . . .

كل اللحم الذي كانوا قد ابتاعوه عصر ذاك اليوم . . وأخذته الى السطح وجمعت حوله قططاً عديدة . . . ومن المواء المرح – كان ينبغي ، أن ندرك معنى ما يجري . . لو لا أن الليل يخفي الخطايا والجرائم وكل انواع المرح المحرم . . . ولا بد كما فـي كل مـرة ، وكما في الكثير من الجرائم ، من انتظار الصباح . .

ولقد جاء الصباح . . . . واستيقظت عمتي . . وكعادتها ، إذ تستيقظ مبكرة فقد راحت تتفقد كل شيئ . . . الاطفال . . والخبز . . والغرف . . وعيون القطط ، وما كان للنظرة التي تطلعت بها القطة البيضاء المبقعة بعصافير سود ، أن تخفى على عمتي الحولاء . .

كانت القطة تقف قرب الحنفية التي في الفناء . . . وكانت عمتي تقف عند باب الايوان . . .

واذ التقت نظراتها فقد خافت القّطة . وأذلها احساسها بالذنب ففقدت قدرتها على أن تسلك بلا مبالاة . . . ولكي تداري احساسها هذا ، جربت المواء ، ففضحها مواؤها . . . وصارت مريبة . مثل كل المجرمين الذين يعانون الحاجة الى الاعتراف بما اقترفوه . .

ولقد فهمت الحولاء كل هذا . . بمجرد حرصها ومجرد خبرتها الغريبة بالناس . . . فأخضعت بأسرع ما تستطيع ، تلك القطة ، التي عاشت وقتلت من دون أن يكون لها اسم ما ، تعرف به . . أخضعتها لا ستجوابها الصارم . .

وأذ وثقت عمتي بأعتراف القطة الذليل ، والمبهم فقد رفعت احدى عينيها إلى المكان الذي



وضعت فيه اللحم . الليلة الماضية . .

وصاحت . .

وأحسب أن القطة ، كانت تتوقع هذه الصيحة لأنها كما تقول الحولاء ، سرعان ما تسلقت سلم السطح واختفت كما يختفي حيوان من الجن . .

أيقظنا ، ذاك الصياح الأليف ، الباعث دائماً على الفكاهة . . فهذه العمة الحولاء لا تصيح ، عندما يكون ثمة ، ما يليق ، بهذا الضرب من الصياح . . أبداً . . في الكوارث ، يصيبها صمت حكيم . . وهدوء «زين يشوبه الكثير من الحزن . . . ولكن أن تسرق القطة اللحم – كل اللحم – مثلاً وأنتم أيها الاغبياء نيام ، فذاك يستدعي ما يوقظكم لتندبوا غفلتكم يامن لا يأكل أي قدر من الحرص اعصابكم . .

حين خرجنا من نومنا اليها . . . كانت ما تزال واقفة عند مدخل الايوان مثل تنين اسطوري وكان وجهها الكبير . ينطوي على مزيج من الدعابة الصرامة التي تتناسب ، ولحم مسروق . . وليس سوى ذلك . .

سرعان ما فهمت امي ، وكنتنا ، أن هذا الصراخ المبكر ، والفكاهي ، رغم ما ينطوي عليه من نزق هو استفزاز لها ، واتهام بالغفلة وقلة الحرص . . . ذاك أن الحولاء ، حين خرجت امي والكنة التي لم تتح لها الغفلة . أن تضع العلك بين فكيها . . حين خرجتا أبتسمت عمتي من بين غضبها المحسوب . وقدمت اتهامها من جديد . عبر بندين ابديين ، الغفلة ، وقلة الحرص . . . ولقد كان في ذلك من الغطرسة ما يكفي لملئ الصباح باللوم . والمبررات . . والمبررات المضادة . . .

وحين كان هذا كله يجري في الايوان تارة ، والفناء والمطبخ ، ظلت القطة مختفية وظلت الخلاصة تتجه الى هذه المرأة التي ولدتني .

لقد عبرت كنتنا ، وهي تعتذر عن اخطائها ، عن ذلك ، بذكاء فيه الكثير من اللؤم ، قالت لأمي :

– أنت ياامرأة العم . . أنت وليس سواك . . . لا تزعلي من الحق . . .

وراحت تمضغ العلك وتدنسه بحمرة تسربت من شفتيها الى اسنانها وهي تحكي كيف أن «امرأة عمها» هي التي أعطت هذه القطة عيناً . . ودللتها ومنعت الاولاد من أن يطاردوها . . ولو فعلوا لكانت شأنها الآن شأن كل القطط التي ، تموت من الخوف ، ان هي اقتربت من الفناء . . .

تلك القطة البرتقالية ، ذات العينين الزرقاوين ، ضربها «نوئيل» بتحريض من عمتي ، فكسر لها ظهرها . . . ورأيناها جميعاً ، وقد اصاب الشلل قائمتيها الخلفيتين . . فراحت

تزحف . وتبول على نفسها وتموء مثل أرملة . . .
قالت عمتي :
- ياابن كل الكلاب . . اجهز عليها . . وارتعشت شفتها . . ورمش جفن عينها الحولاء . . .
- هيا . . أجهز عليها . . .
وكنا نحن الصغار . نتابع المشهد ، ونموت مرات عديدة من الخوف ، ونحن ننظر الى قسوة الحولاء . غير المفهومة . . والى العجز الذي اصاب «نوئيل» بحيث راحت عيناه تهملان بدموع غريبة . تتصل بمخاط ، يسيل من انفه ، فلا يدري كيف يتجنبه . . .
أصغيت الى تلك المحكمة الصعبة . ورأيت أمي مغلوبة . . وتمنيت من كل قلبي لو أنها لم تكن ضعيفة بهذا الشكل الذي يدعو الى الرثاء . . وتساءلت في نفسي . ان كانت قد ارتبكت زللاً حقاً ، حين . استجابت لمداهنة هذه القطة ، فراحت تبادلها تعلقاً بحنان وملقاً برعاية :
- شيٌ عجيب . . تتبعني اينما ذهبت . . وتنتظرني عند باب غرفة النوم . . ولدى إعداد الطعام . . وحين أمدّ لها يدي تأتي . فتشمها . . . لم أر في حياتي قطة كهذه .
تقول ذلك باعجاب وحنان واضح ، وأذ لا تجد أحدا يشاركها مشاعرها تضيف بنوع من الزهو :
- وهي عدا هذا ذكية . . حتى لكأنها تفهم ما يقال . . انظروا . . . وتروح تناديها ويتطلع الجميع . الى هذه الرياضة ، وتضحك امي . . حتى تضيق عمتي بهذا النوع من الآبتذال ، فتروح تنتهر القطة وامي على حد سواء . . .
واليوم ما كانت لتستطيع الدفاع عن نفسها . . . لقد تمت الجريمة حقاً . . وإن أمي الحائرة كيف تدافع بسوى الاستسلام قالت كنتها :
- أنت لا عليك يا امرأة عمي . . أمسكي بها . . وأسلميها لي . . والسلام
فتحت امي عينيها مفزوزة وسألت كنتها :
- ما الذي ستفعلينه بها ؟
قالت العروس ، وأساورها الذهبية تلتمع في زندها . أسلميها لي ، وما عليك أنتِ . . .
- لا فائدة من أن تحاولي أن تضيعيها . ستعود . .
- قلت يا امرأة عمي . . امسكي لي بها . . ودعي الباقي علي . قالت امي في ختام مفاوضاتها :
- انما احلفك بالقربان ياكنتي ، أن انت آذيتها . . حرام . . وابتدأ الانتظار . .
كنا جميعاً ننتظر في الايوان . أمي وعمتي . . وعمتي الأخرى . . وأولاد أختي الكبيرة . .



وأخي الموظف . . ونوئيل الأخرس . . أما كنتنا فقد التحقت بنا بعد قليل وراحت تعلك بعصبية . . .

لم تلبث القطة المبقعة بعصافير سود أن ظهرت . . انحدرت من السطح برشاقة وخفة وحين صارت في الفناء وقفت تتطلع إلى الجميع بريبة . .

في هذه المرة ، رأيتها جيداً وكأنما لأول مرة بدت في عيني جميلة ، ووحيدة ومهمة ، ما دامت قد استطاعت ، أن تؤلب ضدها كل هذا العدد من الكبار وهمست الكنة بلجاجة :

– نادي عليها يا امرأة عمي . . مدي يدك لها لتطمئن . . انصاعت امي ، ونادت على القطة بصوت شاحب وحزين . . ولكن الحيوانة حدست الشيئ الغريب في صوت مربيها ، فاكتفت بأن ماءت بمرارة . . مرة أو مرتين . . .

ثم عادت تتسلق سلم السطح . . .

قالت كنتنا :

– لقد أخافها «نوئيل» . . وقف امامها كالعمود . . فخافت منه . ولم يستطيع «نوئيل» أن يرد التهمة عنه ، لفرط ما اعتراه من خرس فراح كعادته يضرب على جنبيه وضحك الجميع . . .

عند الضحى صار الانتظار مؤلماً ، فتفرق الحشد . . وضعفت همته . . عدا همة كنتنا التي ظلت متشبثة ، بمؤامرتها فهي لا تنفك تشجع امي ، وتحرضها ، حتى كان لها ما أرادت . . حدث ذلك ، عند الظهر . .

كنت في السطح عند ذاك ، العب بالزيتون الاسود الذي اصابة التلف عندما سمعت صوت مواء حاد يملأ البيت . فهرعت الى السياج . . ونظرت الى الفناء وهناك وجدت كنتنا وقد امسكت بالقطة وراحت تحاول عبثاً أن تشدها بحبل طويل في يدها . . . أو هذا ما خيل لي آنذاك . .

ركضت مسرعاً . . وواجهني الفناء حاشداً بالصياح والاوامر ، والتحذيرات والمقترحات . . كان مواء القطة يختلط بصياح كنتنا ، ونداء عمتي ، وصراخ الاولاد . . وأنين آمي ، التي ، راحت بسبب عجزها ترفرف بيديها ، مثل حمامة كبيرة . .

قالت لها عمتي :

– ادخلي أنت الى الغرفة . . في حين صاح أخي الكبير :

– يا أولاد الكلب . . ما هذا الذي تفعلونه ؟ ، . .

تطلعت الى القطة وهي تصارع من أجل حريتها فوجدتها الان على الارض وقد التفّ الحبل حول عنقها . . في حين راحت كنتنا تسحب طرف الحبل ، وتجر القطة على الارض . . جراً . . وحين وجدت في ذلك صعوبة . أوعزت لـ (نوئيل) وهي تلهث :



- ادفعها أنت . . لا تقف كالأبله . .

فصدع (نوئيل) بالأمر وراح يدفع القطة بقدمه ذات الحذاء الكبيرة كان يفعل ذلك بطريقة خرقاء ، بحيث داس مرات عديدة على العصافير السود التي تبقع جسد الحيوانة المساقة الى الموت . . صعدت كنتنا سلم السطح وسحبت . . وعلى بعد ذراعين منها كانت الضحية تجبر على أن تتسلق هذا الطريق الصعب . . . الذي كانت قبل دقائق ترتقيه برشاقة وثقة . . .

لم يجسر أحد على ان يتبع هذا الموكب . .

كانوا جميعاً قد تورطوا في حالة هي أقرب الى الكابوس وكانوا وهم يتابعون ما يجري يدركون أنهم سقطوا تحت نفوذ هذه العروس التي لم يمض على زواجها سنة كاملة . . . واذ كان هذا يبدو لكل منهم غريباً فقد راحوا يدارون احساسهم بالشذوذ والغرابة بابتسامات مائعة تسيل على . . ذقونهم ، فتبدو وجوههم شوهاء مختلطة بالمواء الذي بدأ يسقط من السطح ولهاث كنتنا الوهمي الذي يتخذ ايقاعا شهوانياً مثيراً . . .

أطل «نوئيل» من السطح العالي الى المسافة التي بين المحجر وبين الفناء ثم رأينا وجه الكنة وقد تورد من الانفعال والتصق شعرها على جبينها من عرق بارد . .

ولم أدر ما حدث بعد ذلك . . لأن شيئاً ما ، بدأ وكأنه يهوي من السطح حتى لقد انفرطنا جميعاً ، ثوان : ثم توقفت القطة في الفظاء مشدودة من عنقها الى الحبل . . وقال اخي من بين اسنانه :

- لا يابنت الكلب ! وارتفعت صرخات احتجاج . . وتواصل أنين أمي التي ما كانت لتجرؤ على الخروج من الغرفة مكتفية بالوقوف الى النافذة مكتشفة ما يجري من خلال رعبنا نحن المتفرجين . . . رفعت رأسي بصعوبة . . .

كان جسد القطة يبدو في الفراغ صغيراً ووحيداً . . وكانت العصافير السود التي فيه ، تبدو أصغر مما هي . . وأقل سواداً . . حتى لقد خفت أن تسقط عن جلدها وتموت . .

ولم يكن اكثر يأساً في الكون كله من هذه القطة وهي تتشبث بالفراغ . . وتطعن بمخالبها واسنانها أعداءها ، والموت المحدق بها ، بضربات طائشة عشوائية ، ترسم دوائر ، من رعب حولها ، وتجعل الحبل يتأرجح . . حتى لقد تساءلت ، في نفسي ترى كم يستغرق هذا العذاب ومتى يأتي الموت ؟ . .

اغلقت عمتي الصغيرة عينيها وخيل لي أنها موشكة على أن تقيئ . . وصاح أخي صياحاً وحشياً على زوجته التي الان تنحدر من السطح ، وعلى وجهها ابتسامة مريضة . . . وران على الاطفال صمت أصغر . . فهم شاحبون في قمصانهم يقاومون حاجة شديدة الى التبول . . . وظلت امي تبكي . . في حين أخذتني الحولاء من يدي وادخلتني الى الغرفة ، وأجلستني ، جانبها



بصمت ثقيل . . . . .

ورويداً رويداً ، بدأت حاجتي للتبول تتخلى عني . . كنت اصغي الى صوت تنفس الحولاء وهو يهدأ في ثيابها . . في حين كان الصراخ ، والمواء الذي يأتي من الفناء يخفت حيناً ثم ما يلبث ان يرتفع فجأة عندما يخيل للمتفرجين أن الضحية توشك أن تنجح في القفز ، للتشبت بالحبل ، بواسطة قائمتيها الاماميتين ، أي بأس ؟

وأي نضال ؟

ورحت أصلي في سري . . . ما كنت اريد أن يعرف أحد أنني خائف جداً بحيث يعيرونني بعدئذ بخوفي . . وتمنيت ، لو أستطيع أن استشير الحولاء عما إذا كان ينبغي علي أن اخاف في حالات كهذه . . وان خفت أن اظهر خوفي للآخرين . .

أي خوف !

فلأمرما . . بدالي ، أن هذا الذي يفعلونه بالقطة ، يمكن لسبب مشابه ، أن يفعلوه بي . . . ان كنتنا هذه ، الغريبة : والجميلة والتي ترتدي ملابس لاتشبه ملابس امي وعمتي وتضع في معصمها اساور من ذهب . . تستطيع إذا شاءت أن تشد الحبل في عنقي . . وسأكون وحيداً ، ومعلقاً في الفراغ . . . ولن يكون ثمة من يستطيع انقاذي . . أمي . . ولا عمتي . .

وقررت في نفسي أن أخفي خوفي العظيم . . فلقد كنت احدس أنها – هذه العروس – ما أن تكتشفه حتى تروح تفكر بانها يمكن حقاً أن تفعل ذلك . . وستبقى عند ذاك ، تذكرني ، بانني لست اكثر من قطة . . وعند هذا الحد ، وطنت نفسي على أن اعلن لها محبتي ياللتعاسة . . .

كنت مجبراً على محبتها . . مجبراً على التفكير بالخضوع لها . . . مجبراً على تأمل اصابعها المزينة بالخواتم متسائلاً ، كيف ، يمكن ، لأصابع كهذه أن تأخذ بخناقي وتسبب لي هذا القدر من الخوف والالم . . والاستسلام . . .

استغرق موت القطة ساعة كاملة . .

قالت الحولاء : ان للقطط سبعة ارواح . .

ولم استطيع أن أفهم معنى ذلك . . وخفت أن اسأل . . .

ثم حين انتهى كل شيء . . ساد جو من المرض والتعب في المنزل بأسره . . كان الجميع صامتين . . ما كان ثمة من صوت الا وقع حذاء (نوئيل) وهو يؤدي واجباته . . . وصوت الماء من الحنفية التي في الفناء . . .

اردت أن اخرج من الغرفة . . ولكن عمتي الحولاء انتهرتني . . فحرت ماذا أفعل . . قلت لها : «أريد أن أبول . .» واذ قلت ذلك فقد اكتشفت انني مثقل بحاجتي بشكل لا يصدق . . فهرعت خارجاً من الغرفة . . .

كان البيت خالياً تماماً . فارغاً موحشاً ، بسبب غياب القطة البيضاء . . . وخدعني نظري ، فرأيت بضع عصافير سود ممددة على الارض ، رافعة اقدامها الى السماء . . . .

ركضت . . .

وحين اصبحت في تلك الغرفة النتنة التي قرب الباب . . استلمت تماماً . . ووقفت امام الجدار حائراً ان كنت ابكي . . . أم أتبول يأسي وخوفي ! !



الفصل الثاني عشر
السن الذهبية




مكتبة
الفكر الجديد

الفصل الثاني عشر
السن الذهبية

جاء العرس الي بيتنا ، كما يأتي الربيع بعد الشتاء . . بهدوء وعلى مهل . . في البداية ، لم نكد – نحن الصغار – نتبين علاماته . . بل ، لم نكد نصدقه . . ولكنه ، لم يلبث ، أن صار حقيقة كبيرة . . فاذا به يستولي علينا ، وعلى اهلنا وأقارينا . . مستحوذاً على ذلك البيت الكبير ، متدخلا في استقراره ، مبدلاً من تضاريسه ، وعاداته . . .

كنت اتطلع الى أخي الكبير ، الذي من أجله ، جرى ويجري هذا كله ، متسائلا ، عما ان كان يحتمل كل هذا القدر من الزهو والسعادة ، وهو يرى العائلة كلها ، مشغولة بعرسه وعروسه . . ثم لا البث ، أن اتساءل بعد قليل ، ان كان سيأتي ذاك اليوم ، الذي ستنشغل العائلة بي ، انشغالها بأخي ، فتختار لي ، كما اختارت له عرسه وعروسه . . رغم أنني ما كنت ادرك ، وأنا ابن عشر سنوات ، معنى العرس والعروس ، ولا الضرورة التي تدفع العائلة الى اتخاذ كل هذه المراسيم ، وتجشم كل هذه الاستعدادات . .

جاءوا بعامل ، أصلح كل مصابيح البيت ، وأضاف اليه مصابيح جديدة . . ثم افرغوا غرفة الضيوف من اثاثها ، واستقدموا صباغين ، فطلوا جدران تلك الغرفة الطويلة بطلاء ذي لون فستقي خفيف . . . وزادوا . . فبعد أن انتهى الصباغون ، جاء بناؤون ، فراحوا يصلحون تلك الغرفة في الحوش البراني ، حتى اذا انتهوا ، اعقبهم الصباغون . . . ولم تلبث غرفة الضيوف ، أن انتقلت هي واثاثها الى الغرفة الكبيرة في الحوش البراني . . .

ويوماً بعد يوم ، أصبح بيتنا موطناً لعاملين غريبي الاطوار ، كانوا يأتون مع أبي ضحى ، ثم يتركون عدتهم الغريبة هنا وهناك عرضة لعبثنا ، وفضولنا ، نحن الصغار . . . فاذا اصبح الصباح ، استيقظنا ، على صوت مطرقة نجار يصلح النوافذ ، وحداد يعيد تركيب المصاريع . . . والمزاليج . .

كان البيت ، يتخذ ، خلال ذلك ، روحاً اسطورية ، من الغرابة ، والدهشة وكانت هذه الغرابة اللذيذة ، تتحول في أذهاننا ، الى حساب سمعة العرس ، فتزيده سحراً وجاذبية . . حتى كان ذاك اليوم ، الذي قرع فيه الباب ، حمالون اشداء ، يصحبهم نجار غريب الاطوار اسمه نعمان . . يرتدي سدارة ، ويضع قلماً عريضاً فوق اذنه . .

ووقفنا جميعاً على جانبي موكب الحمالين ، وتطلعنا ذاهلين ، الى اكبر سرير خشبي رأيناه في



حياتنا ، متسائلين ، بدهشة ودعابة ، غير مقصودة ، عن سر هذا السرير الغريب وعن جدواه ؟ .

بعد مجيئ الشرير ، ذهبت عمتي الحولاء ، وعادت مصطحبة معها ، تلك الارملة السمينة التي استقبلها أهل البيت باهتمام ، واسموها (لولو) !

- لولو ؟

وضحكنا ، فانتهرونا . . وضحكنا مرة أخرى ، فضحكت هذه المرة معنا (لولو) نفسها ، واهتز ثدياها الممتلئان . بينما رحنا . نحدق ، بنوع من الخوف الى عينها العوراء ، وقد انطمست تماماً ، فهي ليست اكثر من جرح قديم مجعد ، ينز دمعاً ، كلما اغرقت في الضحك . .

أقامت لولو عندنا شهراً كاملاً . . في حمى عمتي الحولاء وتحت رقابتها . . ومنذ اليوم التالي لمجيئها ، انصرفت لعملها بدأب ، ومهارة . . صنعت في البداية ، حشية رهيبة للسرير الكبير ، استغرقتها اسبوعاً كاملاً ، فاذا انتهت ، جاءت امي بكيس من الحلوى فراحت تنثره على الحشية ، بينما ارتفعت الحناجر بالزغاريد ، ولم نستطع نحن الصغار ، سوى أن نلقي بأنفسنا على الاديم الاسفنجي الذي اخترعته الارملة من قوام صوفي ، احسنت تجميعه تحت تضاريس من زخارف تشبه الارغفة المرصعة . .

تمرغنا على تلك الحشية ، وكدنا نفسدها ، لولا أن العوراء انتهرتنا ، ولولا أنهم اسرعوا ، فأخذو الحشية الى غرفة العرس وأغلقوا الباب . . وابتدأت لولو بمشاريع جديدة للحاف كبير من (الساتان) حملته كل زخارفها ، فاذا به في النهاية ، اشبه بقطعة حلوى كبيرة ، تصدر لمعاناً وردياً شرها ، ثم انصرفت للوسائد . . والمسائد . . . مستغرقة في حرفتها ، بتأن محسوب . . . كانت تبدأ عملها كل يوم ضحى ، تماماً بعد الافطار ، وتنصرف له ، ساعتين أو ثلاثاً ، وتتركه في انتظار الغداء . . فاذا تغدت ، نامت في الغرفة الكبيرة ، ثم استيقظت ، فشربت الشاي ، ونحن نتطلع اليها ، شغوفين ، بالتحديق في عينها العوراء ، وهي تختلج على ايقاع حديثها ، أو حتى وفق نبض افكارها . . . فاذا انتهت قامت الى عملها من جديد . .

حتى كان يوم ، لم يعد لـ (لولو) في البيت والعرس المقبل ، اية وظيفة ، لقد انتهى عملها ، فهي ضائعة ، وغير ضرورية . . . وانها لتتجول في البيت مرتبكة ، بين المطبخ ، والايوان ، والغرفة الكبيرة . . . حتى أدركها العياء فنامت مبكرا وفي الصباح ، اختفت عن الانظار ، ونسيناها جميعاً في صخب الايام التي تسبق العرس . .

كانت الاستعدادات تتسع . . وكان أبي يعود ، كل ظهيرة ، ووراءه حمال ، يترك في البيت لوازم عديدة ، اهمها ، تلك التي تتعلق بطعام أيام الفرح ، الدهن ، والعسل ، واللوز ، والجوز ، والكشمش ، والبندق ، والزبيب ، والمشمش المجفف ، والهيل ، والقرنفل ، وماء



القداح . وماء الورد ، والفستق ، وبذور الرقي والقرع ، والبطيخ ، وحب العزيز ، والرز ، والسكر المكعب ، وسكر القند ، الذي لاتصلح البقلاوة دونه ومن السما . .

موسم من الالوان والروائح كانت تملأ البيت نكهة تبشر بالعرس . وكنا نحتال ، وهذه الاكياس تفرش الايوان ، أن نختلس حفنة من هذا الكيس أو ذاك ونهرب بها الى الزقاق ، قبل أن يحملوها فتختفي في تلك الخزانة الحديدية المقفلة بمفتاح كبير ، تسهر عليه امي أو عمتي . .

لم يمضِ على اختفاء لولو ، بضعة أيام ، حتى رأينا في الغرفة الكبيرة امرأة ترتدي ملابس الفلاحات كانت تجلس قرب عمتي مثل أميرة بوجه مدور وعينين سوداوين . . .

تلك (وردة) صانعة البقلاوة ، التي ستبدأ عملها بعد قليل . . أية رهافة . وأية أناة . كانت تتذرع بهما هذه الساحرة وهي تعد العجين ، تبسطه ، وتنشر فوقه الفستق واللوز والسكر ، طبقة بعد طبقة . . حتى اذا استوى مثل حشية دائرية في الصواني ، اتخذت وردة مدية كبيرة ، وراحت تقطع وجه الصينية معينات معينات ، وتغرس في كل معين لوزة ذات لون عاجي لامع . . .

رويداً رويداً . . اكتملت الصواني وفرشت ارض المطبخ مثل أقمار كبيرة ست صوان . . لم تلبث وردة أن اكترت من أجلها عربة ، من هذه العربات التي يستعملها اكراد من اهل (تنه) ، رصفتها فيها ، وغطتها بملاءات مطرزة واخذتها الى الفرن . . مع الزغاريد . . فاذا نضجت ، هناك ، تحت اشرافها ووصاياها ، عادت بها ، وقد تحمصت ، ففرشتها مع الزغاريد ، وقامت الى دهن حار ، وعسلٍ سائح ، فصبت المزيج فوق ذاك الاديم المدلل ، فراح يصدر ازيزاً ونكهة ثقيلة . . ومزيداً من العوافي والزغاريد . . .

في اليوم التالي جاءت امرأة ملفعة بالسواد ، فانفقت نهاراً كاملاً في صنع (من السما) . . في حين كانت امي واختي الكبيرة وامرأة عمي وبناتها ، مشغولات في اعداد صواني (اللقم) و (اللوزينج . ويبعث بها على العربة الى الفرن ، ويستقبلنها كما في كل مرة بالزغاريد . . .

كان العرس ، يقترب ، تماماً ، كما قترب العيد . . لكنه – هذا العرس – كان يتميز بالضراوة ، والمبالغة ، والغرابة . .

في اليوم الذي سبق العرس ، صُفت الكراسي في الغرف والايوان والفناء . . واستعرنا من الجيران موائد كبيرة ، مدت على جانب الفناء . . وعند الظهيرة ، عاد أبي ، وخلفه أربعة حمالين ، يحملون قدراً هائلاً من الفاكهة ، واللحم ، مع زجاجات (النامليت) وزجاجات الخمر . اضافة الى زجاجات ذات عناوين اجنبية ، وقوالب ثلج . .وكؤوس مرتبة في علب كارتونية . .

أي مهرجان . . .



كان الاهل ضائعين وسط هذا الحشد من اللوازم والمهمات والمواد . . سوى عمتي الحولاء ، والتي ظلت تراقب بجبروت ويقظة مايجري ، مصدرة تعليماتها واوامرها الى الجميع . . منذرة ايانا ، نحن الصغار بأنها ستحرمنا من العرس ، ان نحن لم نغادر البيت لنلعب في الزقاق . . معنفة امي أو زوجة عمي لان اللحم كاد يحترق ، ولان احداهما وضعت من الملح في الرز قدراً اكثر مما يجب . . .

صباح اليوم التالي ، جاءوا بخروف جميل ، وربطوه عند باب الحمام . كانت عيناه صافيتين وحزينتين ، وكان لايفتأ ينادي على امه بصوت مرتعش ، حتى لكأنه يدرك مقدماً ، أنهم سيذبحونه ، عصر هذا اليوم ، تحت اقدام العروس . . .

امتد العرس بضعة أيام مجيدة . . كان يضايقني فيها ، أنني حين يجيئ الليل ، ماألبث أن اتعب من دهشتي ، فيسلمني التعب الى النعاس ، وأنام . . . في حين كان الفرح والاغاني والزغاريد والرقص والهتافات تمتد حتى تقارب الصباح . . .

ثم جاء يوم ، ابتدأ فيه العرس ينحسر عن البيت . .

اختفت الكراسي والموائد والقدور والاواني والكؤوس . . وعاد الفناء الى حالته القديمة . . واستعاد المطبخ نظامه . . والغرف عادت سيرتها السابقة . . لولا أن أخي غادر غرفته الصغيرة فسكن هو وعروسه في الغرفة التي فوق القبو ، التي كانت لقبل بضعة اسابيع غرفة الضيوف . .

هدأ كل شيئ . . وبدأ مستقراً . . ولم يتخلف من ذاك المهرجان سوى بقايا حلوى مخفية بعناية عند عمتي ، وبضع زجاجات غريبة ، غامرت ذات يوم ، ففتحت احداهما وتذوقتها فاذا لها طعم غير مستساغ ، عافته نفسي . .

وماذا عدا الذكريات البهيجة ؟ . .

عروس ، تتكلم بصوت خفيض ، ونبرة بغدادية ، تنحدر كل يوم من غرفتها ، فتجلس معنا ، بملابسها الانيقة ، ورائحة عطرها اللذيذ ، وتظل صامتة ، مسبلة جفنيها . . تتقبل مزاح أبي وعمي بحياء ودلال . . فاذا جاء مهنئون ، بين امسية وأخرى ، خفت الى غرفتها فتزينت ، وتكحلت ورتبت ضفائرها الجميلة ، وارتدت كل حلاها التي من الذهب والماس واللؤلؤ . . . مستعرضة ، عن قصد الغطرسة التي ارادها أبي لعرس ابنه ، تحت شعار «صيت الغنى» ذي التكاليف . . :

والى جانب العروس ـ كنتنا ـ التي لها شكل الورد ورائحته . . أبقى مهرجان العرس ، فتاة ، أحسبها ـ كانت يومذاك تقارب الثلاثين ، اسمها «جميلة» .

انني ، الساعة ، استدعي ، تلك الملامح ، التي استولت علي ، في امسية من أماسي الخريف ، في ذاك الايوان المتغطرس ، الذي له هيأة ابي وسيماؤه . . واراها — جميلة — التي



ما كنت بعد ، اعرف اسمها ، جالسة منفردة بين أهل العروس ، على الكرسي الكبير ، الى يسار المصباح ، واميز ذلك الوجه ، وهو يعول باعتداد ، ظاهر ، على عينين عسليتين – ما كنت من قبل . قد انتبهت الى احتمال أن تكون العينان عسليتين – فيهما مرح ، ودعابة تتكحل باقتصاد . . ثم أنف دقيق أنيق ، فيه كبرياء ومكابرة . . وشفتان رقيقتان ، تتحكمان أبداً ، بنصف ابتسامة ، تنطوي على ايحاء يعد بالاسرار . .

«انثى سرية» هكذا قلت لنفسي . وفي الوهلة نفسها ، خطر لي ، انها قادمة الى بيتنا من قصة غريبة ، تشبه الى حد كبير ، قصص النساء الساحرات التي كانت تحكي لي عمتي عنهن . . وعلى وجه التخصيص ، تلك الساحرة التي اتخذت شكل طائر ، فاذا ذهبت الى العين لتستحم ، نزعت عنها ، جناحيها ، وريشها ، فاذا هي حورية ، لا أبدع منها ولاا أجمل . .

كنت واثقاً ، في طفولتي ، ولاول مرة ، رأيت فيها جميلة ، بين أهل العروس ، في ايوان بيتنا المهيب ، أن هذه المرأة سرية الى أبعد ما يمكن أن تكون . . وأنها مهيأة ، في أيما لحظة ، لان تتحول ، الى المظهر الذي تريده . . .

بقيت ، وأنا جالس باتضاع ، ورهبة ، عند قدمي الايوان ، مأخوذاً بتلك الساحرة ، احدق فيها ، على غير ارادة مني . وبينما أنا غارق في ذلك ، انتبهت الى أنها ، ضبطت عيني المسحورتين ، وتوقفت نظراتها ، على وجهي لم تلبث ، أن وسعت من ابتسامتها . . بل لقد ضحكت . . وبلغتني ، وأنا في بشر خوفي ، اجراس صوتها الانثوية ، فاعتراني ارتباك ، وخجل شديدان ، حتى لكأنها ، اكتشفتني ، وأنا أقف ، امامها عارياً أو ضبطتني ، وأنا احدق فيها ، وقد خلعت ريشها وجناحيها فهي عارية . . لاأبدع منها ولا أجمل . .

اشحت للتو ، متشاغلاً ، بخوفي وندمي ، معترفاً أمام نفسي وأنا واثق انها لابد بسبب السحر ، ستستمع اعترافي ، بأنني ، لست اكثر من ولد سيئ الحظ ، صادف أن وقعت عيناه عليها ، وهي قد تخلت عن ريشها وجناحيها بدون قصد وعلى غير ارادة منه . . وهكذا ، فهي تملك أن تبقى سرية بالشكل الذي تريد ، دون أن تخشى أيما قدر من ثرثرة هذا الصبي المسكين الذي «ينوي ، نية ثابتة» أن لايتحدث الى أحد ، ويفشي اسرار مارأى . .

وما الذي رأى ؟ . .

كان الدير في الظهيرة ، حاراً وصامتاً . .

ولقد دفع الصيف الرهبان والفلاحين

والزوار الى النوم في الصوامع والسراديب . . .

أما أنا . . فلم استطع النوم . . . كانت التلال المعرضة للشمس والهواء تناديني . . . وكنت أرى النحل وهو يحوم حول الساقية ليشرب الماء . . واسمع حفيف اجنحة زنبور وهو يصطدم



بزجاج نافذة مكسورة ، فافهم ، رغبته المرة في الهرب . . وتخيلت بستان الدير ، والفواكه التي تكاد تنضج ثمة على الاشجار . . ورأيت ضفدعة مبللة بالماء . . وعشباً على الحافة شديد الخضرة . . . ثم نادتني العين التي تقع الى الشمال ، تحت اقدام التل ذي القرنين . . وناداني الماء . . والشوك . . وازهار الصيف . . ونبات الخشخاش وثماره اليابسة . . . وناداني جسدي وضجري . . فتسللت . .

عند باب الدير ، أخذني حمار صغير فسرت معه في الطريق الى العين . . كنت خائفاً ومنبهراً في آن . . ولاحقتني اصوات مبهمة لحشرات غريبة ، وافاعٍ ذات اقدام لحمية . . . ولكنني تحت نفوذ لذة سرية ، شجعت نفسي . . حتى صرت عند دائرة العين . .

تجاوزت الادغال ، وأنا امني نفسي ، وقد نقعني العرق والغبار ، بالظل الذي تحتمي به دائرة الماء ، وبنظافة البركة التي تجاورها . . حيث يصير الماء أخضر والظل أزرق . . اقتربت بلهفة . .

كانت العين ، وأنا في عمق احساسي بالوحدة منقذي من الشوك وثمار الخشخاش والثعابين . . ولكنني وأنا علي مبعدة ، خطوتين ، سمعت همهمة . .

وادركت ان العين ، ليست وحيدة ، وأنني لدى العين ، لست وحيداً . . . .

وكان علي أن آنس . . لا أن استفز . . لولا أن الظهيرة ، علمتني الاسرار . . فامتلأ ذهني ، بدم متوجس . . واقتربت ، ثم مددت عنقي . . . ورأيتها من الأعلى . . .

ولعلها سمعت وقع اقدامي ، فرفعت رأسها ، ورأتني . . وهلة . . . على قدر أن تكون قد تبينتني ، كما تبينتها ، أنا ابن أبي ، وهي ابنة بطرس القروي ، متعهد بستان الدير وحقوله . . .

«كانت قد خلعت ريشها وجناحيها ، وراحت تغتسل بماء العين البارد ، وظلها القلق . ولقد رأيتها ، دون ارادتي ، من موقع ، فوق سمت رأسها ، فبدت مكتنزة ، ولامعة مثل حيوان كبير أملس . . يدلك ، بدأب كتفيه ، بكفين كبيرتين . . ويصدر فحيحاً هيناً ، فيه أنانية انثوية ، لايخطئها السمع . .

ادركت بلمحة عين ، أن هذه التي اراها ، لايمكن أن تكون قط ابنة بطرس القروي ، وقبل أن اعطي لنفسي ، فرصة البحث عن المكان الذي وضعت فيه ريشها ، وجناحيها ، كنت استوعب زلتي التي لاغفران لها ، أن اكون قد تورطت في النظر الى لغز لايصح أن انظر اليه اطلقت ساقي للريح ، ورحت أجري ، مستغفراً ، تلك الساحرة في ذهني ، أن اكون قد تطفلت على اسرارها دون قصد . . . وحين وصلت الدير بسلام ، تسللت الى مكاني من ذلك السرداب المليئ بالنعاس ، وخبأت نفسي في النوم الكثيف الذي تهبه السراديب . . . ولأيام حاولت أن اتحاشى الساحرة التي تظاهرت أنها ابنة بطرس القروي . . حتى كان أن التقيت بها



وجهاً لوجه عند باب الكنيسة الصغيرة ، واذ نظرت الي وتجاهلتني ، فقد فهمت أنها غفرت لي ، واعفتني من الدخول تحت ريشها المخيف . .

حين اكتشفتني جميلة وأنا انظر اليها ، استعدت الاحساس نفسه ، وانتابني خوف كنت من قبل قد تدربت عليه ، خوف التلصص على كل ماهو سري وممنوع وانثوي . . وكان يزيد من عذابي ، أن جميلة هذه ، هي بالتأكيد ليست ابنة بطرس القروي . . أنها بطريقة ما ، ليست ابنة أحد . . ولا زوجة أحد . . يالرعب . . . كيف تكون الانثى سرية الا اذا لم تكن ابنة أحد أو زوجة أحد . .

لاتستطيع الزوجة قط أن تكون سرية حتى لو كان لها عينان عسليتان ، وريش وجناحان . . . أنها ، ما ان تتزوج حتى تتخلى عن جناحيها ، لتلد ، وتترهل ، وتلد اطفالاً يشبهون كل الاطفال لاريش فوق جلودهم ، ولاشعر . . . اطفالاً من لحم يبللون ملابسهم ويبكون فيسيل مخاطهم على شفاهم . .

ألم تكن جميلة في تلك الايام ، قد قاربت الثلاثين ؟

كيف كان لي أن اقدر ولماذا ؟ وأنا في ولائي ، لم اكن قط معنياً في احتساب عمر الذين احبهم أو اعجب بهم ، أو أخاف منهم ، فهم عندي ساعة تطيش بي عبادتي ، بلا اعمار ، بل لعلهم بلا ماضٍ . . فهم ما ولدوا يوماً ، ولا كانوا صغاراً ولارضعوا ، ولابكوا . . ابداً . لقد ولدت جميلة هكذا . . أقول ولدت . . . ولا أجرب أن اخترع كلمة لوجودها المفروغ منه ، وحضورها ، في ذاك الايوان ؟

ماكنت مؤهلاً لان اكتشف أن امي وعمتي واختي الكبيرة وبنات عمي ، كن في بطانة قلوبهن يهمسن وهن يتفرسن بابتسامة جميلة المصبوغة باللون الاحمر ، تلك الكلمة التي لامعنى لها «عانس . .» . واعرف انهن كن يفعلن ذلك بدوافع انثوية لاتخلو من الحقد .

لقد شممن رائحة جميلة منذ البداية ، وميزنها برود أفعال مختلفة ، وعلى قدر ماكانت كل منهن تتألم لهذه المعرفة كانت تحاول ان تجرب تدنيس فرادة جميلة بالاتهامات . . . ويرسمن اساليب عداء مبينه ، ومعدة مسبقاً .

أما الرجال ، وأنا منهم ، فقد سقطوا تحت نفوذ الساحرة منذ البداية واذ فعلوا ذلك بطريقة مموهة وسرية ، فقد راحت تصدر عن كل منهم رائحة ، لامجال لاخفائها . . واستمر هذا العذاب حتى قام أهل العروس فغادروا الايوان . . ولم يبق منهم الا جميلة ، مختفية هذه المرة في دولاب الملابس ، مثل سفرجل صفراء . . ومتذرعة بكونها قريبة العروس ، فهي تخرج من الدولاب بين حين وآخر وتجلس الى جانب قريبتها . وتروح تهمس لها . بطريقة مريبة حتى أن عمتي الحولاء وكانت ترى كل هذا يجري أمامها ، لم تملك الا أن تعلن احتجاجها ، فقالت أمام الجميع :

– ما بال هذه العرجاء تأتي كل يوم ، وتوسخ مخ كنتنا . . . والله ان جاءت مرة أخرى فسأطردها قبل أن تتجاوز عتبة الباب . . .

قلت لها ، بشهامة :

– ليست عرجاء ياعمتي . . .

– بل عرجاء . . وأنت أثول . .

وابتسمت كنتنا وهزت أساورها . وجاء صوت أبي يخاطب عمتي :

– ماعليك منها . . . دعيها تأتي حين تشاء . .

وزادت عين عمتي الحولاء حولاً . . . في حين كانت جميلة تغلق باب بيتها ، وتتجه الى بيتنا ، تتبعها خادمتها القزم ، مثل خروف اسود .

قال أبي :

– مرحباً ياجميلة . . .

فردت تحيته بأدب واعطته طرفاً من ابتسامتها ، وامتلأت الغرف الكبيرة دالة . وماكان ثمة مناص من الاقرار بهذه الدالة ، والاعتراف بمهارة جميلة في خياطة ملابس العروس . . . حتى بلغ الأمر بأبي ، أن اوصى أمي ذات يوم .

– تعلمي منها . . .

واذ كانت امي تجيد الخياطة ، فقد جرحها ذلك جرحاً خفيفاً على جانب قلبها ، وراحت تتودد الى جميلة . . حتى جاء الصيف ، وشددنا الرحال ، كما في كل عام الى الدير . . ولكم كان عجيباً شديداً ، أن وجدنا جميلة وخادمتها قد سبقتانا ، واحتلتا من تلك الغرف احسنها ، ولم يجرؤ أحد أن يتساءل كيف حدث هذا ، لان عمتي الحولاء لم تكن معنا ، ولان أمي ، ماكانت لتجيد اختيار اسئلة ، معذبة ، لاجواب لها ، ولا موجب . .

خلال أيام ، استولت جميلة على الدير . .

ياللعجب . .

كان يبدو أن التلال المجاورة ، والبستان المغلق ، والقسم المحرم من الدير ، والكنيسة الصغيرة . . والعين . والماء المقدس . . وقداسات صباح الاحاد . . كان يبدو ان هذا كله انتبه الى وجود جميلة ، واتخذ موقفاً . . . وماذاك الا لان جميلة ، ذات ضحى ، وكنا جميعاً نلوذ بذاك الظل الظليل الذي يتركه الدير صباحاً على الدكة الكبيرة المواجهة لبستان الصابونجي . . . في ذاك الضحى ، فتحت جميلة فمها وأنشدت ليسوع المسيح ، نشيداً اسمته «مديحة» ، أصغينا اليها جميعاً ، ونحن حائرون ، لفرط ما في كلمات المديحة من عذوبة ، وشدة ما في صوت جميلة



وادائها من روع وصدق وجمال ، ان كان علينا أن نبكي أم نضحك . . .

لم تستمر جميلة في نشيدها الا قليلاً . . ثم سكتت ، وتطلعت الى أبي مبتسمة ، متذوقة ذاك الصمت الرخيم الذي احدثه انقطاعها عن الانشاد ، بحيث راحت خيوط واوتار وهمية ترن بتأثيره . داخل ذاك الفضاء الرحب الذي يواجه النهر والبساتين . .

كان رئيس الرهبان ، هو أول من خرج من ذهوله . . فهمهم بعربية مكسرة ، ورسم على نفسه علامة الصليب ، اعقبه الكاهن المريض ، الذي جاء الى الدير يستشفي . . مكتفياً بأن يردد :

– جميلة . . جميلة . .

ولم يستطع أحد أن يدرك ، ان كان الكاهن ، يصف بذلك النشيد أم يهتف باسم المنشدة ، فهو معلم اعترافها . . .

– جميلة . . . جميلة

احمر وجهها ، وبدت منتشية . نشوة جسدية كاملة . كانت تبدو ، تحت عيون أربعة رجال ، وكأنها خرجت للتو من الحمام . فهي نظيفة ، ومهيأة للاعجاب ، بمجرد عطرها ونظافتها . .

لم يقل أبي كلمة . . وشعرت بغيرة شديدة ، لانه كان يشدد على رزانته حتى لايستدرج ، تحت تأثير صوتها العذب ، فيشرع هو أيضاً بالانشاد . . ولقد كنت أفهم حيرته ، والجهد الذي يبذله ، من أجل أن يكون ، أحسن مايكون . . . وسيكون . . .

فمنذ ذاك الضحى ، اكتشف مرتكزه . واتخذ صوت جميلة عنده ، عذراً شديد الورع ، فلم تمض أيام حتى كان ينشد معها ، أو يعلمها الانشاد . . وكان ذلك بأسره ، وبسبب مافيه من انسجام ، يملك أن يشكل عدوى من الفرح والتقى والسعادة . .

– انشدي ياجميلة . . .

وتنشد . .

«دعوتك ربي . . .

داو جراح قلبي . . .

حبك لانقصان فيه . . .»

أي نشيد هذا ؟ . . والمساء كئيب ، والتلال رمادية ، والنهر البعيد متستر ، تفضحه ماكينة الماء وهي تصدر اهاتها الرتيبة . . وتقترح المشاريع . .

ففي فجر . كان مايزال حين غادرنا ناقصاً . . أخذنا أبي في قافلة الى بستان يجاور النهر . . . كنا نسير ، والدير خلفنا يقرع نواقيس وهمية ، ويوصينا خيراً بالبغلة التي حملتنا عليها . ناعنا

لذاك اليوم الغريب . . . ولم يكن ثمة من غرابة ، سوى جميلة التي تحولت بفعل الفجر وبتأثير سحرها الخاص ، وبنفوذ جوهرها الانثوي الى صبية ،اول صباها في اختبارها ان تمشي حافية على الاسفلت الاسود البارد ، وأن تعدو أمام الموكب تتبعها اجراس ضحكتها فتنتشر عدوى المراهقة والمرح ، حتى لقد خفت أن يقع الجميع ، في اغراء حفائها ، حتى أبي الوقور ، الذي كان يسير معنا ، لاهثاً من فرط احساسه بالفجر والجمال . .

اغتسلنا من حافة دجلة . . ومسحنا وجوهنا باوراق اشجار وحشية ، وتناولنا افطاراً سائغاً . . وتحت ظل سجرة مشمس كبيرة اتكأ ابي ، فصرنا جميعاً رعيته ، لقد أراد ذلك ، من أجل أن يبدو مثل ملك ، ومن أجل أن تكون جميلة جاريته . .

ولقد قبلت منه ذلك ،قبلناه جميعاً . فقد كنا سعداء من دون دنس . . وعلى التو افترشت جميلة الارض المبقعة بالعشب والزهور واظهرت بكرم من داخل ابتسامتها ذلك السن الذهبي الموحي بالترف ، ورائحة الدعارة . . . وحين قلنا لها أن تغني ، قامت فجلبت من مكان مجهول ، آلة عود ، نضت عنها قميصها المطرز ووضعتها في حضنها . . .

كان هذا الذي حدث ضرباً من ضروب السحر بحيث ساد الصمت ، وسمعنا ابي يسأل الساحرة :

– تجيدين العزف على العود ياجميلة ؟

ضحكت . . . وضربت الاوتار بريشة طاؤوس . . . وراحت تغني عن الورد . . . وعن «حسن» الذي ربته صغيراً . . . وعن الذين زرعوا البرتقال وآن لهم أن يجمعوه . . . .

أما أنا ، فكنت اصغي مسحوراً ، بي يقين بأن هذه المغنية تخترع اغانيها ، وأن كل اغنية ، هي رسالةموجهة الينا ، والى أبي بالذات . . . . ثم الى الدير . . . والنهر . . . والايام المقبلة . .

ماكنت قد رأيت ، من قبل امرأة ، تعزف على عود ولقد خجلت للطريقة التي كانت بها جميلة تضع العود في حضنها ، والاسلوب الذي تجهد به لاحتوائه ، بحيث تميل عليه برأسها ، دافعة نظراتها التي لها لون العسل ، الى الاعلى ، فتروح تعقد ، عنها ، اواصر مع الفواكه البرتقالية في شجرة المشمش . . ونقاط الصمغ والرغبات . .

في اليوم التالي ، وفي الكنيسة الصغيرة التي يظل قنديلها موقداً . . رأيت جميلة راكعة لوحدها امام الايقونات الريفية والشموع ورائحة الخمر . وذهلت ، لأنني ، وكنت اراها دون أن تراني ، وجدتها تصلي ، وتبكي . . . . كنت اسمع صوت شهقانها ، وغزارة دموعها . . وخاتها . . والهمهمات الصادرة عن اجراس حنجرتها المختنقة . . واحترت . . فغادرت الكنيسة ، وأنا خائف خوفاً عظيماً ، وفي ذهني يتردد صوت منسحق :

«أنا سمراء . . ولكني جميلة . .»



«لهذا اختارني الرب . .»

«فأدخلني الى مخدعة . . .»

قلت لنفسي ، وأنا انظر الى خادمتها القزم ، مامن امرأة كهذه ، وما من خادمة . . . كلتاهما مسحورتان . . وبقيت طول النهار مشغولاً بنساء سريات . . ومن الجانب البعيد ، كانت تتناهى الى روحي صلوات الرهبان الموحشة . . . منتظراً الشؤم . . ولم يطل انتظاري .

فبعد ثلاثة أيام . . وفي عمق الليل ، ارتبك الدير ، في قسم الرهبان المحرم . كان ثمة اضواء لفوانيس تتحرك بسرعة . . ونداءات . . . ثم سمعنا باب الاصطبل يفتح . . وجاء صهيل الفرس . . وقدرنا أن راهباً انطلق الى جهة النهر . . ولمحنا اضواء فوانيس مخيفة . . .

بدالي أن ذئاب الخوف تقعي فوق تل البسمة ، وتنظر الينا . . . وأن الطاحونة الحجرية التي على يمين الدير ، تتأوه بفعل قوة سحرية ، تدفع فيها ذاك الحجر الكبير ثم من بعيد سمعنا صوت سيارة تتسلق الطريق بمشقة . . ورأينا الاخ ايشوع على فرسه . . . وانفتح باب الدير ، وخرج عدد الرهبان يحملون راهباً . . وضعوه في السيارة . . . وسمعنا صوت رئيس الدير . . وصوت الكاهن المريض . . وانطلقت السيارة . .

ماذا جرى ؟

ظل الليل صامتاً . .

لكن الصباح الذي جاء بعد ساعات ، اتخذ وجهاً سرياً . ولم نفهم من أحد سبب ماجرى في منتصف الليل . . .

– الاخ قرياقوس . .

– ماذا به ؟

– مريض . . واخذوه للمستشفى . .

– هكذا اذن ؟ . . مامرضه . . . ؟

فتحوا ايديهم واغمضوا عيونهم . . ولكن الظهيرة جاءت فوزعت مع الارغفة التي تصنعها «بربارة» في تنور حار . وشايات لها رائحة الدم . . . ولقد بلغت الوشاية أمي . . . وأبي . . ثم بلغت جميلة . . فوضعت يدها على فمها ، والتمعت عيناها ، وقالت شيئاً لم افهمه . .

وكان عليّ أن انتظر بضع سنوات لكي ادرك أن الاخ قرياقوس أخذ فأساً – ياللهول – وأهوى به على رجولته . . فامتلأ الدير بالدم . . . . والنميمة . . .

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١٥٨٦ / ١٩٨٥
٥٠٠٠/٣٣ - ١٩٨٥/١١/٢٦

شركة مطبعة الاديب البغدادية المحدودة
هاتف ٧١٨٨٢٨٦ - ٧١٨٨٢٨٧



الرسوم الداخلية والغلاف : للفنان الدكتور علاء بشير

شركة مطبعة الاديب البغدادية المحدودة
هاتف ٧١٨٨٢٨٦ - ٧١٨٨٢٨٧